الخواص
واللحظات المصيرية

آية الله
السيد علي الخامنئي



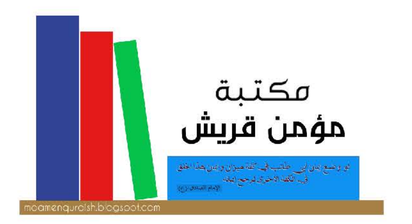
دار الهادي
للطباعة والنشر والتوزيع

الخواص

واللحظات المصيرية

الطَبعَة الأولى

١٤٢٠هـ - ٢٠٠٠م





هاتف: ٥٥٠٤٨٧ /٠١ - ٠٣/٨٩٦٣٢٩ - فاكس: ٥٤١١٩٩ - ص.ب: ٢٨٦/٢٥ غبيري - بيروت - لبنان
Tel.:03/896329 - 01/550487 - Fax: 541199- P. O. Box: 286/25 Ghobeiry - Beirut - Lebanon
E-Mail: daralhadi@daralhadi.com - URL: http: //www. daralhadi.com

الخواص

واللحظات المصيرية

آية الله

السيد علي الخامنئي



للطباعة والنشر والتوزيع



المقدّمة

لكل مرحلة وعصر من حياة البشر خصوصيات ثقافية وسياسية واقتصادية واجتماعية ولكن هذه المراحل على اختلافهما تتشابه من حيث سنن التاريخ التي تحكم سلوك الناس الاجتماعي فيها ، وفي هذا الصدد يقول أمير المؤمنين علي عليه السلام : «**فاعْتبروا بحال ولد إسماعيل وبني إسحاق وبني إسرائيل عليهم السلام ، فما أشدّ اعتدال الاحوال واقرب اشتباه الامثال**»(١) .

ولهذا التشابه في الصفات والسلوك يبلغ أحياناً درجة تجعله درساً وعبرة للاجيال القادمة ، ان التاريخ هو تفصيل لحياة المجتمعات الانسانيّة ، والمجتمع الانساني في كل مراحله له قواعد يمكن أن تتكرر اذا توفرت لها الشروط اللازمة، وعلى هذا الاساس فان مطالعة التاريخ بصورة عامة ومتابعة تاريخ المجتمعات الاسلامية التي كانت تسودها حكومات دينيّة بصورة خاصة ستكون لمجتمعنا الاسلامي خير معلم وموجه ، ويمكن دراسة التاريخ عن طريق بحث ومتابعة جوانبه المختلفة ومن هذه الجوانب مطالعة حياة واسلوب الذين قاموا بتسجيل مواقف مصيرية في التاريخ البشري في مختلف المراحل ، وقد قام البعض بتصنيف المجتمع الانساني بصورة عامة الى مجموعتين الخواص والعوام،

---

(١) نهج البلاغة ، الخطبة ١٩٢ .

التابع والمتبوع ، ولكل مجموعة من هاتين المجموعتين تعريفها الخاص بها الذي يميزها عن المجموعة الاخرى ، ويمكن ان نصنّف المجموعة الثانية بأنها تابعة وليس لها القدرة على التحليل وادراك الأمور في ميادين الحوادث الاجتماعية وعلى الدوام تميل مع كل ريح تتقبل النظام الحاكم بسرعة وعندها قابلية التكيّف مع الأوضاع الجديدة ويكون سلوكها وتفكيرها خالٍ من التحقيق والتحليل وغالباً ما تندفع الى التقليد في السلوك والتصرف .

وفي الحقيقة يمكن القول ليس كل مَن لديه شهادة أو تحصيل دراسي يكون قادراً على التحليل والتحقيق بل ان هناك كثير من الناس لم يذهبوا الى المدارس لكنهم في الوقت نفسه لهم القدرة الفائقة على التحقيق والتحليل . ان بحثنا في هذا الكتاب سيدور حول المجموعة الاولى التي اطلقنا عليها لفظ «الخواص» وكل مَن كان سلوكه واعماله قائم على أساس التحقيق والاطلاع ، وكل من يعرف طريقه ويعرف كذلك الاسباب التي من اجلها سلك هذا الطريق وصمّم على تحقيق اهدافه طبقاً للمعرفة ، وكل من لا ينجرف مع الدعايات ، هؤلاء هم الذين يقومون بصناعة الاحداث التاريخيّة وفي الدرجة الاولى يؤدون اعمالهم استناداً الى الرغبة والميل وبكلمة موجزة يمكن القول بأن سمو المجتمع الانساني وانحداره مرتبط بهذه الفئة .

وللسيد القائد آية الله الخامنئي كلام حول هاتين الفئتين ننقل منه :

(لاحظوا يا اعزائي ! إذا نظرتم الى المجتمع البشري ؛ اي مجتمع كان ، وفي أية مدينة أو بلد ، تجدون الناس فيه يُقسمون ـ من وجهة نظر معينة ـ الى فئتين :

فئة تسير عن فكر ووعي وإرادة ، وهي تعرف طريقها وتسلكه ـ ولا يهمنا في المقام ان هذه الفئة على صواب في مسلكها أو أنه مسلك خاطىء ـ هذه الفئة

يمكن تسميتها بالخواص .

وفئة اخرى لا تنظر لترى ما هو الطريق الصحيح وما الموقف الصائب ، ولا يهمّها ان تفهم وتحلل وتقيس وتدرك ، بل تتبع الجو السائد والهوى العام ، ولنُسمّ هذه الفئة بالعوام ، اذن فالمجتمع يمكن تصنيفه الى خواص وعوام . دققوا النظر ، أريد الاشارة الى نقطة بشأن العوام والخواص ويجب ان لا يقع فيها أي التباس .

من هم الخواص ؟ هل هم طبقة خاصة ؟ كلا لأن هذه الفئة التي نسميها بالخواص تضم بين افرادها اشخاصاً متعلمين وآخرين غير متعلمين ، فقد يكون أحياناً بين الخواص شخص غير متعلم لكنه يفهم ما ينبغي عليه فعله ، وهو يعمل وفقاً لتخطيط وارادة حتى وان لم يكن قد دخل المدرسة أو لديه شهادة أو يرتدي زي العلماء ، لكنه متفهّم لحقيقة الأمور .

الخواص هم الذين عندما يؤدون عملاً ، يتخذون موقفاً ، والنهج الذي يختارونه ، يختارونه عن فكر وتحليل ، أي انّهم يفهمون ويقررون ويعلمون . هؤلاء هم الخواص . والذين يقفون في الجانب المقابل هم العوام .

العوام هم الذين يسيرون مع مسير الماء ، ليس لديهم تحليل للمواقف ، حينا يشاهدون الناس يهتفون «يعيش» يهتفون معهم ، وحينما يهتف الناس «الموت لـ.» يرددون نفس الهتاف . عندما تكون الاجواء في وضع معين يأتون هنا ، وحينما تكون على منوال آخر يذهبون هناك !

واذا ما عدنا الى صدر الاسلام ثانية ؛ فهناك فريق اصحاب أمير المؤمنين والامام الحسين عليهما السلام وبني هاشم . وفريق آخر هم اصحاب معاوية كان فيهم من الخواص ، كان فيهم اشخاص اذكياء من ذوي الرأي والتدبير يناصرون بني أمية ، وهؤلاء من الخواص أيضاً .

اذن خواص كل مجتمع على نمطين : الخواص من انصار الحق ، والخواص من انصار الباطل . وماذا ترجون من الخواص المشايعين للباطل ؟ لا تتوقعوا منهم سوى التآمر ضد الحق وضدكم . وهذا ما يفرض عليكم محاربتهم ؛ حاربوا الخواص من انصار الباطل ، هذا أمر لا نقاش فيه»[1].

اذن يمكن تقسيم الخواص الى قسمين مثلما اشار اليهم السيد القائد علي الخامنئي : خواص فريق الحق وخواص فريق الباطل ، وعندما يعرف اهل الحق جبهتهم يكون من الواجب عليهم محاربة أهل الباطل وللسيد القائد علي الخامنئي كلام في هذا الخصوص :

(اعلموا يا اعزائي ان خواص انصار الحق يُقسمون الى فريقين :

الفريق الاول هم الذين يتغلبون في الصراع مع مغريات الدنيا والحياة من الجاه والشهوة والمال واللذة والرفاه والسمعة . والفريق الآخر هم الذين يخفقون في هذا الصراع . هذه ـ اي اللذة والسمعة والجاه وما شابه ـ كلها امور حسنة ، وكلها من مباهج الدنيا (متاع الحياة الدنيا) . والقرآن حينما يصفها بانها متاع الحياة الدنيا فلا يعني ذلك انها قبيحة ، فالمتاع جعله الله ليتمتّع به الانسان ؛ ولكن إذ انغمس فيها الى الحد الذي يعجز معه عن اجتنابها فيما اذا استدعت التكاليف الصعبة منه ذلك ، فهذا شيء ، وإذا استمتع فيها الى الحد الذي يستطيع معه الكف عنها بكل سهولة عند حصول اي امتحان عسير ، فهذا شيء آخر)[2].

اذا كان خواص اهل الحق يشكلون الاكثرية في المجتمع الاسلامي وكانوا

---

(١) محاضرة القاها القائد آية الله السيد علي الخامنئي في حسينية الفرقة / ٢٧ (محمد رسول الله ﷺ) بتاريخ ٢٠ / ٣ / ١٣٧٥ هـ ش .

(٢) المصدر السابق .

ممن لا تغرهم المظاهر الدنيوية واللذائذ الزائلة سيكون المستقبل حتماً لهذا المجتمع ، اما اذا حدث العكس يعني ان خواص أهل الحق هم القلة بين افراد المجتمع وكانوا ممن يفشلون في البلاء والاختبار في الجولة الأولى وهذا ما حدث فعلاً ايام خلافة يزيد بن معاوية ستنقلب الموازين في هذه الحالة ويقع اولئك فريسة للقهر والاضطهاد . يقول السيد علي الخامنئي في هذا المجال (كل مجتمع يوجد فيه هذان النمطان من انصار الحق . اذا كان الفريق الصالح منهما ، اي الذين يستطيعون عند الحاجة الانتهاء عن متاع الدنيا ، هم الاكثر فلن يقع المجتمع بما وقع فيه على عهد الامام الحسين عليه السلام ، وكونوا على ثقة ان المستقبل سيكون مضموناً الى الابد .

اما اذا كانوا قلّه ، وكان ذلك الفريق من الخواص ، اي المناصرين للحق ولكن في الوقت نفسه تنهار معنوياتهم امام المغريات الدنيوية ، بما فيها من ثروة ، ودار وشهرة ومنصب وجاه ، والذين يعرضون عن سبيل الله لاجل انفسهم ، فيلتزمون الصمت حيثما يجب قول الحق ، حفاظاً على أرواحهم أو مناصبهم أو اعمالهم أو ثرواتهم أو لحب الأولاد والاسرة والاقارب والاصدقاء ، هؤلاء اذا كانوا هم الكثرة ، فالويل الويل حينئذ ، عندها ينزل السائرون على خطى الحسين الى أرض الشهادة ويقادون الى مسالخ الذبح ويتسلط اتباع يزيد على مقاليد الامور ، وسيحكم بنو أمية الدولة التي اسسها رسول الله صلى الله عليه وآله ويطول حكمهم الف شهر ، وتتحول الإمامة الى ملك وسلطان !)[1].

اتضح لنا مما سبق الموقع الحساس الذي يحتله الخواص لانهم قدوة المجتمع فحركتهم نحو الاهداف يدفع الآخرين الى السعي نحو تحقيقها وعلى

---

(١) المصدر السابق .

العكس توقفهم وتخاذلهم يـؤدي الى سكـوت الجـماهير وتـوقفها وتـخاذلها ، وسكوت الخواص عن نصرة الامام الحسين عليه السلام خير شاهد على ما نقول .

تحدث السيد الخامنئي ـ دام ظله ـ حول هذا الموضوع وقال :

«وعندما ثار الامام الحسين عليه السلام لم يأت الكثير من هؤلاء الخواص لنصرته مع ما كانت له من منزلة عظمى في المجتمع الاسلامي !

لاحظو مدى الضرر الناجم عن وجود هـؤلاء الخـواص فـي المـجتمع ؛ الخواص الذين يرجحون دنياهم حتى على مصير العالم الاسلامي لقرون مقبلة ، مع ما كان للامام الحسين عليه السلام من مكانة وعظمة يخضع لها حتى عبد الله بن عباس ، وعبد الله بن جعفر وحتى عبد الله بن الزبير ـ مع انه لم يكن ينظر للامام عليه السلام بعين الارتياح ـ كان يبدي له غاية التبجيل والاكرام .

جميع الاكابر والخواص من انصار الحق ، اي الذين لم يكونوا الى جانب الحكومة الاموية ولم يدخلوا جبهة الباطل ، وحتى من بينهم الكثير من الشـيعة الذين يقرّون بامامة أمير المؤمنين عليه السلام ويعتبرونه الخليفة الاول شـرعاً ، هـؤلاء بأجمعهم حينما أحسوا ببطش السلطة الحاكمة ، تخاذلوا رغبة في الحفاظ عـلى انفسهم وأموالهم ومناصبهم . ونتيجة لتخاذل هؤلاء ، مال عوام الناس الى جانب الباطل»[1].

لذلك يمكن القول بان انتصار الامة وانكسارها مرهون بهذه المجموعة من الخواص ، ولهذا اصبح من اللازم علينا ان نعرف الدور الذي يلعبه هؤلاء في تقدم المجتمع الاسلامي وانحطاطه .

---

(١) المصدر السابق .

يقول السيد الخامنئي في هذا المجال :

«كل شيء مرتبط بالخواص قراراتهم في الوقت المناسب تضحياتهم في الوقت المناسب ، اقدامهم ، احجامهم ... الخ هؤلاء هم الذين ينقذون التاريخ ويدافعون عن القيم الانسانية ، وتهاونهم في اتخاذ المواقف اللازمة يعني ذلك فوت الفرصة وفي ذلك خسارة لا تعوض»[١].

من خلال دراسة التاريخ يتبين لنا أمر مهم وهو معرفة مصداقية الخواص في اللحظة الحساسة التي تودي الى انحراف مسيرة التاريخ أو استقامته ، ان دراسة الحوادث التاريخية وأخذ العبرة والتجربة منها خير سبيل للناس الواعين كي يتعرفوا على وظائفهم وواجباتهم في المستقبل ويأخذوا عبرة من تلك التجارب ويمنعوا تكرارها . فعلى الخواص ان لا ينشغلوا في اللحظات الحساسة والمصيرية بالمطامع الدنيوية .

يقول السيد القائد الخامنئي في هذا المجال :

«بحثنا في مسألة الخواص يكون على جانبين الاول الجانب التاريخي للخواص والذي يشمل : من هم هؤلاء الخواص ؟ وما هي اسماؤهم والثاني ما يجب على الخواص القيام به في اي مرحلة من مراحل التاريخ وخلاصة القول : الخواص الذين لا يخضعون في اللحظات المصيرية الى قيود حب الدينا»[٢].

والكتاب الذي بين يديك يبحث في القسم الأول من كلام السيد آية الله الخامنئي وهو معرفة الخواص الذين حددوا مسار التاريخ بمواقفهم السياسيّة ، ني

---

(١) المصدر السابق .

(٢) المصدر السابق .

خضم احداث صدر الاسلام برزت الى الوجود نخبة من الرجال الاوفياء للرسول ﷺ واصبحوا مصباح هداية للبشرية جمعاء ومن هذه النخبة كان الائمة المعصومون عليهم السلام واصحابهم النجباء من أمثال : (أبوذر الغفاري وعمار بن ياسر وسلمان الفارسي ومالك الاشتر ـ رضوان الله تعالى عليهم أجمعين ـ) . وفي مقابل هذه النخبة كانت هناك مجموعة من الخواص ممن اعمى حب الدنيا قلوبهم فتجاوزوا على مقدسات الاسلام والمسلمين وكانوا من اسباب تخلف الامة وانحطاطها .

الفصل الأول

الخواص والعوام

ما معنى الدنيا ؟ يعني الثروة ، الدار : الشهوة المنصب ، الشهرة ، المسؤولية .

والذين يعرضون عن سبيل الله لأجل انفسهم ، فيلتزمون الصمت حيثما يجب قول الحق ، حفاظاً عل أرواحهم أو مناصبهم أو أعمالهم أو ثرواتهم أو لحب الأولاد والاسرة والاقارب والاصدقاء ، هؤلاء اذا كانوا هم الكثرة ، فالويل الويل حينئذ ، عندها ينزل السائرون على خطى الحسين عليه السلام الى أرض الشهادة ويقادون الى مسالخ الذبح في كربلاء .

السيد الخامنئي

خطاب السيد الخامنئي بجمع من قادة فرقة محمد رسول الله ﷺ بتاريخ ٢٠ / ٣ / ١٣٧٥ هش الموافق (محرم / ١٤١٧ هـ ق)

بسم الله الرحمن الرحيم

اللهمّ سدّد السنتنا بالصواب والحكمة .

الجهاد في الثقافة الاسلامية

احدى الظواهر البارزة في الثقافة الاسلامية .. ولها مصاديق بارزة وكثيرة في تاريخ صدر الاسلام واقل منها على مر الفترة هي ثقافة القتال والجهاد . والجهاد طبعاً لا ينحصر في نطاق القتال في ميادين الحرب ؛ فكل ما ينطوي على جد واجتهاد ومجابهة مع العدو يسمى جهاداً .

التفتوا جيداً ؛ فلعل البعض يؤدي عملاً ويتحمل فيه مشقة كبيرة ، ويدعي الجهاد . كلا ؛ فأحد شروط الجهاد ان يكون في مجابهة العدو . ولكن قد يكون تارة في ميدان الحرب فيسمى بالجهاد الحربي ، وقد يكون تارة في ميدان السياسة فيكون جهاداً سياسياً ، وقد يكون في الميدان الثقافي فيسمى جهاداً ثقافياً ، وقد يكون في مجال البناء فيسمى بجهاد البناء ، كما ان له ميادين ومجالات اخرى طبعاً . والشرط الاول فيه أن يبذل فيه جهد ومثابرة ، وشرطه الثاني ان يكون في مواجهة العدو .

هذه ظاهرة بارزة في الثقافة الاسلامية ولها أمثلة في شتى الميادين . واليوم

ايضاً بدأ هذا الجهاد منذ ان انطلق نداء مجابهة النظام البهلوي المقيت ، من حنجرة الامام رضوان الله عليه وانصاره آنذاك ، اي في عام ١٣٤١ (هـ ش) . وكان حتى قبل هذا التاريخ ولكن بصورة متناثرة ونادرة وقليلة الاهميّة .

منذ ان بدأت هذه المجابهة اتخذت طابعاً اكثر اهمية الى ان تكللت بانتصار هذا الجهاد الذي تجسد بانتصار الثورة . ومنذ ذلك اليوم وحتى يومنا هذا كان في هذا البلد جهاد دائم .

وبما ان لنا اعداء ، واعداؤنا أقوياء في الجانب المادي ، وبما ان الاعداء قد احاطوا بنا من كل جانب ، وهم بصدد العدوان علينا ، وقضية العدوان على ايران لا يمزحون فيها ؛ لانهم يستهدفون ضربها بأيّ شكل ممكن .

الجهاد الفكري

اذن فكل من يقف في ايران الاسلامية بوجه هذا العدو ـ الذي سدد من كل جانب سهامه السامة الى جسد هذه الثورة وهذا البلد الاسلامي فهو مجاهد في سبيل الله . ونحمد الله على ان شعلة الجهاد كانت ولا زالت وستبقى مضيئة .

وطبيعة الحال ان أحد انواع هذا الجهاد هو الجهاد الفكري . اي بما ان العدو قد يباغتنا ويوقعنا في الاخطاء والمنزلقات ، فكل من يبذل جهده على طريق توعية الناس ، ويحول دون حصول اي انحراف أو سوء فهم ، فعمله هذا جهاد ؛ اذ هو في سبيل مجابهة العدو ، ولعله من الجهاد المهم .

ايران ، مركز الجهاد

اذن يا اعزائي ! بلدنا اليوم مركز الجهاد ، وليس لدينا ما يستوجب القلق في هذا المجال . الحمد لله ان الشخصيات المسؤولة في البلد كلها شخصيات صالحة

ومؤمنة ومجاهدة وواعية ومخلصة . عليكم ان تلتفتوا لهذه الجـوانب ، فـرئيس الجمهورية سماحة الشيخ الهاشمي الرفسنجاني رجل قضى عمره في الجهاد ولا زال حتى الآن يجاهد ليلاً ونهاراً ، وكذلك الحـال بـالنسبة لمسـؤولي المـحافل الاخرى كمجلس الشورى الاسلامي ، والسلطة القضائية ، والقـوات المسـلحة ، وكذا سائر ابناء الشعب ، كلهم في حالة جهاد دائم .

هذه الدولة هي دولة الجهاد في سبيل الله ، ومن هنا فان ثقل جهدي ، في المراقبة لأرى المواضع التي تخبو فيها شعلة الجهاد فاسارع بعون الله ولا ادعها تنطفىء ، وارى مواضع الخـطأ والزلل فـاتصدى لهـا ، وهـذه هـي مسـؤوليتي الاساسيّة .

انني لا يساورني اي قلق حول حالة الجهاد الحالية في البلد ، وهذا ما يجب ان تعلموه . الّا ان في القرآن شيئاً يرغمنا على التفكير فيه .

اخذ العبرة من التاريخ

وهو انه أمرنا ان ننظر الى الماضي ونأخذ العبر من التاريخ . ولكن قد ياتي البعض ويتفلسف بان الماضي لا يمكن ان يكون مثالاً للحاضر ، هذه الآراء يثيرها البعض ويتصورانه قادر على صياغتها كاطروحة فلسفية ، لكنه لا يستطيع ذلك ! ولا شان لنا بأمثال هؤلاء .

القرآن صادق مصدّق وهو يدعونا الى استقاء العبرة من التاريخ والاعتبار بالتاريخ يعني حالة القلق التي عرضت لها آنفاً ، لان التاريخ تكتنفه أمور لو أردنا الاعتبار بها لساورتنا بعض الهواجس ، وهذه الهواجس ذات صلة بـالمستقبل ، ولكن لماذا ؟ وما سبب هذه الهواجس ؟ وما الذي جرى عبر التاريخ ؟

الواقعة التي حدثت كانت في صدر الاسلام . وقد ذكرتُ في وقت ما أن الامة الاسلامية حريّ بها ان تفكر في السبب الذي وصل بالبلاد الاسلامية بعد وفاة الرسول بخمسين سنة فقط الى ان يجتمع ابناؤها من وزير وأمير وقائد وعالم وقاضى وقارىء للقرآن في الكوفة وكربلاء ، ويمزقوا كبد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بتلك الطريقة الفجيعة .

على الانسان ان يطيل النظر في الاسباب التي انتهت الى تلك الحالة . وقد سبق لي وان تحدّثت فيما سبق في هذا الموضوع قبل سنتين أوثلاث تحت عنوان (عبر عاشوراء) طبعاً هذا شيء آخر يختلف عن موضوع (دروس من عاشوراء) كدرس الشجاعة ، ودرس الايثار وما الى ذلك . الشيء الاهم من دروس عاشوراء هي العبر المستقاة من عاشوراء .

سبق لي وان ذكرت ان الامور وصلت الى الحد الذي جعلهم يأتون بحرم الرسول الى الشوارع والاسواق امام انظار الناس ويصمونهم بصمة الخوارج . والخوارج في الاسلام مصطلح يطلق على من يخرج على الامام العادل ويشق عليه عصا الطاعة ، ويستحق لعنة الله ورسوله والمؤمنين ، هذا هو معنى الخوارج . ولهذا السبب كان المسلمون آنذاك يتنفّرون من الخوارج «من خرج على امام عادل فدمه هدر» هذا مع ان الاسلام يولي أهمية فائقة لدماء الناس . لقد اشاعوا ان سبط رسول الله ، ابن فاطمة وابن أمير المؤمنين ، خارج على الامام العادل . وذلك الامام العادل هو يزيد بن معاوية ـ وصدّقهم الناس !!

ان افراد السلطة الحاكمة أناس ظلمة يقولون ما يحلو لهم ، ولكن لماذا يصدّقهم الناس ؟ ولماذا يلتزمون الصمت ازاءهم ؟

لماذا اصيبت الامة الاسلامية بالتهاون والغفلة ؟

ان ما يثير هو اجسي هو هذا الجانب من القضية ، لماذا وصلت الامور الى هذا الحد ؟ ولماذا اصيبت الامة الاسلامية وهي على تلك الدرجة من التدقيق في تفاصيل الاحكام الاسلامية والآيات القرآنية ، لماذا اصيبت بهذه الحالة من الغفلة والتهاون والتراخي الذي انتهى الى بروز فاجعة كهذه ؟ هذه المسألة تشغل فكر الانسان . وهل نحن اقوى عزماً وأشد شكيمة من مجتمع عهد الرسول وعهد امير المؤمنين ؟ وماذا نفعل حتى لا يجري مثلما جرى ؟

طبعاً السؤال الذي اثرته حول تلك الاسباب ، لم يجب عليه أحد ، ولكن جوابه عندي . وأشير الى ان احداً لم يتحدث في هذا الموضوع ؛ أو انهم قد تحدثوا حوله ولكن ليس بالشكل الوافي والكافي . أود اليوم التحدث بايجاز في هذا المجال ، وحديثي سيكون مقتضباً بالنسبة لاصل القضية ، ساثير رؤوس المواضيع امام افكاركم لتخوضوا فيها بانفسكم وليتقصى جذورها المفكرون والباحثون ، وليفكروا في السبل الكفيلة بالحيلولة دون تكرارها .

يجب علينا أخذ العبر من التاريخ

اذا لم نقف أنا وانتم بوجهها اليوم ، فلا تعجبوا اذا رأيتم مجتمعنا الاسلامي وصل الى تلك الحالة ، ربما بعد خمسين سنة أو بعد خمس سنوات أو بعد عشر سنوات إلا اذا كانت هناك ابصار حادّة تسبر اغوار الامور ، وعين امينة تدل على الطريق ، واصحاب فكر يوجهون الامور ، وارادة صلبة تساند هذا المسار ، ليتكون عند ذاك ساتر متين وقلعة حصينة لا يستطيع أحد اختراقها ، والاّ فستتكرر الحالة ذاتها فيما اذا اهملنا ، وعندها ستذهب كل هذه الدماء هدراً .

بلغت الامور في ذلك العهد حداً تربع فيه ابناء واحفاد من قُتلوا يوم بدر على يد أمير المؤمنين وحمزة وبقية قادة الاسلام ، في مكان الرسول ، ووضع امامه رأس مهجة رسول الله ، وصار يضرب على ثناياه بعود الخيزران وينشد :

ليت اشياخي ببدر شهدوا　　　جزع الخزرج من وقع الاسل

هنا يأمر القرآن بالاعتبار ويقول : ﴿ قل سيروا في الارض﴾ انظروا ما الذي وقع ، التزموا جانب الحذر . ولاجل أن يسري هذا المعنى ان شاء الله في الثقافة الحاليّة لبلدنا على يد المفكرين والباحثين واصحاب الرأي ، اتحدث إليكم اليوم باقتضاب عن هذا الموضوع .

الخواص والعوام في المجتمع

لاحظوا يا اعزائي ! إذا نظرتم الى المجتمع البشري ، اي مجتمع كان ، وفي أية مدينة أو بلد ، تجدون الناس فيه يقسمون ـ من وجهة نظر معينة ـ الى فئتين .

فئة تسير عن فكر وفهم ووعي وارادة ، وهي تعرف طريقها وتسلكه ـ ولا يهمنا في المقام أن هذه الفئة على صواب في مسلكها أو أنه مسلك خاطىء ـ هذه الفئة يمكن تسميتها بالخواص . وفئة اخرى لا تنظر لترى ما هو الطريق الصحيح وما هو الموقف الصائب ، ولا يهمّها ان تفهم وتحلّل وتقيس وتدرك ، بل تتبع الجو السائد والهوى العام ، ولنُسمّ هذه الفئة بالعوام ، اذن فالمجتمع يمكن تصنيفه الى خواص وعوام . دققوا النظر ، أريد الاشارة الى نقطة بشأن العوام والخواص ويجب ان لا يقع فيها أي التباس . من هم الخواص ؟ هل هم طبقة خاصة ؟ كلا لان هذه الفئة التي نسميها بالخواص تضم بين افرادها أشخاصاً متعلمين وآخرين غير متعلمين ، فقد يكون احياناً بين الخواص شخص غير متعلم لكنه يفهم ما ينبغي

عليه فعله ، وهو يعمل وفقاً لتخطيط وارادة حتى وان لم يكن قد دخل المدرسة أو لديه شهادة أو يرتدي زي العلماء ، لكنه متفهم لحقيقة الامور . في ايام انـدلاع الثورة ـ وقبل انتصارها ـ كنت في المنفى في مدينة (ايرانشهر) وكان في احدى المدن القريبة منها عدة اشخاص من بينهم سائق ، كان هؤلاء الاشخاص من ذوي الثقافة والمعرفة ، رغم انهم يصنفون ظاهرياً في عِداد العوام ، إلّا انهم في الحقيقة كانوا من الخواص ؛ كانوا يأتون للقائنا في ايرانشهر بشكل منتظم ، وينقلون لي حوارهم مع عالم الدين في مدينتهم ، وقد كان الآخر رجلاً طيباً إلا انه كان من العوام ! لاحظوا ، سائق الشاحنة من الخواص ، بينما ذلك العـالم المـبجل إمـام الجماعة كان من العوام !

كان العالم يقول : لماذا حينما يذكر اسم النبي تصلّون عليه مرة واحدة ، في حين اذا ذكر اسم السيد الخميني تصلّون على النبي ثلاث مرّات ؟ الا تفهمون ؟ فكان السائق يرد عليه بالقول : يوم نفرغ من المجابهة ، يوم يكون الاسلام قد ساد كل الارجاء ، واذا انتصرت الثورة فانا سنترك الصلاة عند ذكر اسـم الخـميني ، ثلاث مرات ، بل لانصلي ولا مرة واحدة ؛ هذه الصلوات الثـلاثة اسـلوب مـن اساليب المجابهة . لاحظوا ان هذا الرجل يفهم مع انه سائق لكـن ذلك العـالم لا يفهم.

خصوصيات الخواص

ذكرت هذا المثال لتعلموا اننا حينما نقول الخواص ، فلا يعني ذلك انهم فئة ترتدي زيّاً بعينه ، فقد يكون رجلاً وقد يكون امرأه ، وقد يكون ثرياً وقد يكون فقيراً ، وقد يكون من العاملين في الاجهزة الحكوميّة وقد يكون من المعارضين لاجهزة الحكومة الطاغوتية . وكلمة الخواص نقصد بها طبعاً الصالح والطالح منهم ،

ثم اننا سنصنف الخواص الى اقسام اخرى أيضاً . الخواص هـم الذيـن عـندما يودون عملاً يتخذون موقفاً ، والنهج الذي يختارونه ، يختارونه عن فكر وتحليل ، اي انهم يفهمون ويقررون ويعملون . هؤلاء هم الخواص . والذيـن يـقفون فـي الجانب المقابل لهم هم العوام . العوام هم الذين يسيرون مع مسير المـاء ، ليس لديهم تحليل للمواقف ، حينما يشاهدون الناس يهتفون (يعيش) يهتفون مـعهم ، وحينما يهتف الناس (الموت لـ...) يرددون نفس الهتاف . عندما تكون الاجواء في وضع معين ياتون هنا ، وحينما تكون على منوال آخر يذهبون هناك .

ماذا يتبع العوام ؟

نفترض ان مسلم بن عقيل دخل الكوفة ، تراهم يقولون : لقد وفد ابن عم الامام الحسين ، لقد جاء مبعوث بني هاشم ، وهو عازم على الثورة والنهوض ، فيستثارون ويلتفون حوله ويبايعونه ؛ بايعه ثمانية عشر الفاً . وبعد خمس أو ست ساعات دخل روساء القبائل الى الكوفة وقـالوا للـناس : لمـاذا اتـخذتم هـذا الموقف؟ عمن تريدون الدفاع ؟ وضد مَن ؟ انكم ستدفعون الثمن غالياً ؟ انسحب اولاً زعماء القبائل كل الى داره . وبعدما حاصر جنود ابن زياد دار طوعة للقبض على مسلم ، انبرى اولئك الناس انفسهم لمحاربة مسلم ! هؤلاء هم العوام . سلوكهم لاينطلق عن تفكير ولا ينبثق عن تشخيص ولا هو قائم على تحليل صائب ، بل يتحركون وفقاً لما يمليه الجو العام .

الخواص فريقان خواص الحق وخواص الباطل

اذن في كل مجتمع هناك خواص وهناك عوام . لنترك قضية العوام جانباً ، ونبحث في وضع الخواص . ويُقسم الخواص طبعاً الى فريقين : خواص فـريق

الحق ، وخواص فريق الباطل ، اليس كذلك ؟ اهل الثقافة والفكر والمعرفة منهم يعملون لصالح جبهة الحق . عرفوا الحق ، وعلموا ان الحق مع هذا الجانب فهم يتحركون ويعملون لأجله ، اذن فهم يعرفون الحق ، وقادرون على تشخيصه ، هؤلاء يمثلون فريقاً . أمّا الفريق الآخر فهم الذين يقفون على الطرف الضد لطرف الحق . واذا ما عدنا الى صدر الاسلام ثانية ؛ فهناك فريق اصحاب أمير المؤمنين والامام الحسين وبني هاشم . وفريق آخر هم اصحاب معاوية ، كان فيهم من الخواص ،كان فيهم أشخاص أذكياء من ذوي الرأي والتدبير يناصرون بني امية ، وهؤلاء من الخواص أيضاً . اذن خواص كل مجتمع على نمطين : الخواص من انصار الحق ، والخواص من انصار الباطل . وماذا ترجون من الخواص المشايعين للباطل ؟ لا تتوقعوا منهم سوى التآمر ضد الحق وضدكم . وهذا ما يفرض عليكم محاربتهم ؛ حاربوا الخواص من انصار الباطل ، هذا أمر لا نقاش فيه .

الخواص من انصار الحق

نأتي الآن الى الخواص من انصار الحق ، وأنا اتحدث اليكم الآن ، انظروا الى انفسكم لتروا في اي موضع انتم . وحينما نقول ان الاصل هو الفكر والاتباع عن رؤية لا نخلط بين التاريخ والقصة ، التاريخ وجه أخر لسيرتنا الذاتية . التاريخ معناه انا وانتم ، معناه نحن الموجودون اليوم هنا . واذا كنا نحن الذين نقوّم ونشرح التاريخ ، فلا بدّ ان ينظر كل منا محله من هذه القصة ، وفي اي موضع منها . ثم لنرى ما الذي فعله من كان يومذاك في مثل موضعنا حتى كان نصيبه الخسران ، لخطئه ؟ حتى لا نقع في الخطأ نفسه . مثل ما هو متعارف في دروس التعليم العسكري ، يفرض جهة معادية ، والاخرى جهتنا ، ثم يلاحظ خطأ خطة جهتنا . وتجدون ان العقل الذي وضع الخطة قد اخطأ في هذا المكان ، اذن حينما تريدون

انتم وضع الخطة يجب ان لا تقعوا في ذلك الخطأ نفسه . أو يفرض ان الخطة كانت صحيحة الا ان الآمر أو المخابر أو المدفعي أو المراسل أو جنديا عادياً في جبهتنا ارتكب خطأ، تدركون انتم وجوب عدم الوقوع في ذلك الخطأ . هكذا هي مسيرة التاريخ . والآن عليكم العثور على ذاتكم في هذا المشهد الذي اتحدث عنه في صدر الاسلام . بعض الناس من طبقة العوام ، لا قدره لهم على اتخاذ القرار ، وامرهم منوط بالفرصة المتاحة امام العوام ، فاذا صادف ان كانوا في زمن يتصدى لزمام الامور امام ـ كالامام امير المؤمنين عليه السلام ، أو كالامام الراحل رحمه الله ويسير بهم نحو الجنّة ، فخير على خير . وامثال هؤلاء يسوقهم الصالحون ، وينتهي بهم الامر ان شاء الله الى الجنة . أما اذا صادف وعاشوا في زمن من يصفهم القرآن بقوله : **﴿وجعلناهم امة يدعون الى النار﴾**[1] أو **﴿الم تر الى الذين بدّلوا نعمة الله كفراً واحلو قومهم دار البوار جهنم يصلونها وبئس القرار﴾**[2] يكون مصيرهم الى النار.

احذروا ان تكونوا من العوام

اذن احذروا ان تكونوا من العوام ، ولا نقصد بكلامنا هذا وجوب اكمال مراحل دراسية متقدمة ، ابداً ، وقد قلت ان معنى العوام ليس هذا ؛ فما اكثر الذين أنهوا مراحل دراسية عليا ، لكنهم يُحسبون في عداد العوام ، وما اكثر من درسوا العلوم الدينية وهم من العوام ، وما اكثر الفقراء أو الأغنياء الذين يدخلون في عداد العوام . ان صفة العوام رهن ارادتي وارادتكم ، ولهذا علينا ان ننتبه ولا نكون من العوام ، اي يجب ان يكون كل فعل نفعله ، عن بصيرة ، ومن لا يعمل على بصيرة

---

(١) سورة القصص : ٤١ .

(٢) سورة ابراهيم : ٢٨ ـ ٢٩ .

فهو من العوام ، ولهذا ورد في القرآن الكريم على لسان رسول الله ﷺ **﴿ادعوا الى الله على بصيرة أنا ومن اتبعني﴾**[1]. اذن انظروا اولاً هل انتم من فئة العوام ام لا ؟ فاذا كنتم من تلك الفئة فسارعوا الى الخروج منها ، حاولوا ان تكون لكم القدرة على التحليل والدراية والمعرفة .

اما اذا كنا في عداد الخواص ، فلنرى هل نحن من خواص انصار الحق ام من خواص انصار الباطل ؟ والمسألة هنا واضحة ؛ فالخواص في مجتمعنا من انصار الحق بلا ريب ، لانهم يدعون الناس الى القرآن والسنة والى العترة والى سبيل الله ، والى القيم الاسلاميّة هذه هي طبيعه الجمهورية الاسلامية . اذن فلا نتحدث الآن عن الخواص من انصار الباطل ولا شأن لنا بهم حالياً ، بل تمام الكلام في الخواص من انصار الحق ، والمشكلة كلها تبدأ من هنا .

الخواص من انصار الحق فريقان

اعلموا يا اعزائي ان خواص انصار الحقّ يقسمون إلى فريقين :

الفريق الاول هم الذين يتغلبون في صراع مع معريات الدنيا والحياة من الجاه والشهوة والمال واللذة والرفاه والسمعة . والفريق الآخر هم الذين يخفقون في هذا الصراع . هذه اي اللذة والسمعة والجاه وما شابه ـ كلها امور حسنة ، وكلها من مباهج الدنيا (متاع الحياة الدنيا) والقرآن حينما يصفها بانها متاع الحياة الدنيا فلا يعني ذلك انها قبيحة ، فالمتاع جعله الله ليتمتّع به الانسان ؛ ولكن اذا انغمس فيها الى الحد الذي يستطيع معه الكف عنها بكل سهولة عند حصول اي امتحان عسير ، فهذا شيء آخر .

---

(١) سورة يوسف : ١٠٨ .

هذه الامور تستدعي إعمال النظر فيها ، وتستلزم الدراسة والدقة ؛ لان افراد المجتمع ، والنظام والثورة لا يمكن ضمان مستقبلهم اعتباطاً . فكل مجتمع يوجد فيه هذا النمطان من انصار الحق . اذا كان الفريق الصالح منهما ، اي الذين يستطيعون عند الحاجة الانتهاء عن متاع الدنيا ، هم الاكثر ، فلن يقع المجتمع بما وقع فيه على عهد الامام الحسين عليه السلام ، وكونوا على ثقة أن المستقبل سيكون مضموناً الى الابد .

اثر المغريات الدنيوية على الخواص

اما اذا كانوا قلة ، وكان ذلك الفريق من الخواص ، اي المناصرين للحق ولكن في الوقت نفسه تنهار معنوياتهم أمام المغريات الدنيوية ، بما فيها من ثروة ، ودار شهرة ومنصب وجاه ، والذين يعرضون عن سبيل الله لاجل انفسهم ، فيلتزمون الصمت حيثما يجب قول الحق ، حفاظاً على ارواحهم أو مناصبهم أو اعمالهم أو ثرواتهم أو لحب الاولاد والاسرة والاقارب والاصدقاء ، هؤلاء اذا كانوا هم الكثرة ، فالويل الويل حينئذ ، عندها ينزل السائرون على خطى الحسين الى ارض الشهادة ويقادون الى مسالخ الذبح ، ويتسلط اتباع يزيد على مقاليد الامور ، وسيحكم بنو أمية الدولة التي اسسها رسول الله صلى الله عليه وآله ويطول حكمهما الف شهر ، وتتحول الامامة الى ملك وسلطان ! المجتمع الاسلامي مجتمع الامامة ، اي يكون الامام فيه على رأس السلطة وهو الشخص الذي يكون بيده زمام الامور ، والناس ينقادون له انقياداً قلبياً نابعاً من الايمان . أما السلطان فهو على خلاف ذلك ؛ يحكم الناس بالقهر والغلبة ، والناس لا يعتقدون به ولا يقبلون حكمه ولا يميلون إليه ، والمقصود من الناس هنا ذوو الفهم والوعي .

لقد بدّل بنو امية الامامة في الاسلام الى سلطنة وملكية ، وحكموا هذه

الدولة الاسلامية الف شهر اي تسعين سنة . حينذاك وضعت أسس بناء هش انتهى الى الثورة ضد بني امية الذين انقرضوا وجاء من بعدهم بنو العباس ، وحكموا العالم الاسلامي ستة قرون اي ستمائة سنة على اساس انهم خلفاء الرسول !

بنو العباس الذين كان خلفاؤهم أو بتعبير أدق ملوكهم يُمارسون الفساد والفسق وشرب الخمور والفجور والفحشاء والخبائث وجمع الثروات واللهو والملذات وآلاف انواع المفاسد الاخرى ، كانوا يحضرون المساجد أيضاً ـ كما هو حال سائر الملوك في العالم ـ ويأمون الناس في الصلاة . وكان الناس يصلون خلفهم اضطراراً ـ وان لم يبلغ اضطرار هم ذلك الحد ـ او من باب الاعتقاد المغلوط ، وهو ما أدى بالنتيجة الى تخريب معتقدات الناس ! ، اذا أصبح الخواص المناصرون للحق في مجتمع ما ـ كلهم أو اكثرهم ـ يخافون على حياتهم وعلى فقدان الاموال والمناصب والجاه والمكانة الاجتماعية ويحشون العزلة ، بسبب تعلقهم بالدنيا ، حينذاك لا يناصرون الحق ولا يضحون بأنفسهم .

وحينما تصير الأمور الى هذا الحال ، حينئذ يقع في طليعة الامور استشهاد الامام الحسين عليه السلام بتلك الصورة المأساوية ، ويكون آخرها تسلط بني أمية والعصابة المروانيّة ومن بعدهم بنو العباس ، ثم سلسلة السلاطين الذين حكموا العالم الاسلامي الى يومنا هذا . انظروا اليوم الى العالم الاسلامي ، والى مختلف البلدان الاسلامية ، انظروا الى محل بيت الله والمدينة المنورة ولاحظوا من يحكمها من فساق وفجار ، وهكذا فيبقية الاماكن . ومن هنا تقولون في زيارة عاشوراء : (اللهم العن اول ظالم ظلم حق محمد وآل محمد) ، وهذه هي الحقيقة ، حسناً اقتربنا شيئاً من تحليل واقعة عاشوراء ذات العبر الكثيرة وبعد ما سمعتم هذه المقدمة ننتقل الى التاريخ .

الزمن الذي انزلق فيه الخواص من انصار الحق

بدأ انزلاق الخواص المؤيدين للحق بعد وفاة الرسول بست أو سبع أو ثمان سنوات ، وحديثي هنا مع غض النظر عن مسألة الخلافة تماماً ، قضية الخلافة على حدة ، بل اتحدث الآن حول هذا النهج بسبب ما يتصف به من خطورة . القضايا بأجمعها وقعت بعد وفاة الرسول بسبع سنوات ، وبرزت أولى موشراتها في قولهم : لا يجوز ان يستوي ذوو السابقة في الاسلام ـ وهم اصحاب الرسول ومن شهد منهم حروبه ـ مع سائر الناس ؛ هؤلاء يجب ان تكون لهم امتيازات ! فمنحت لهم امتيازات مالية من بيت المال ! كانت هذه هي اللبنة الاولى ، وهذا هو حال سائر التيارات المنحرفة ؛ تبدأ من نقطة صغيرة ثم يستفحل شأنها ويتفاقم مع كل خطوة . الإنحرافات بدات من هنا الى أن بلغت عهد عثمان ، حيث آلت الاوضاع في أواسط عهد الخليفة الثالث الى حالة صار فيها كبار صحابة رسول الله ﷺ اثرى الاثرياء في زمانهم . اي ان كبار الصحابة من ذوي الاسماء المعروفة ـ كطلحة والزبير وسعد بن ابي‌وقاص وامثالهم ـ الذين كان لهم مفاخر ، باتو من رأسمالي الطراز الاول بحيث ان أحدهم لما مات وأرادوا تقسيم امواله بين وارثيه اضطروا الى كسر الذهب ـ الذي اذابه وحوله الى سبائل ـ بالفؤوس ، كالحطب الذي يكسّر بالفؤوس ، فكم كان مقدار الذهب اذن حتى يكسر بالفؤوس ؟ والحال ان الذهب يوزن بالمثاقيل ، هذا ما سجله التاريخ ! هذا ليس مما يقال ان الشيعة سطّروه في كتبهم ، ابداً ، هذا ما كتبه الجميع ، فالمبالغ التي خلفوها من الدنانير والدراهم كانت مبالغ خيالية ! وهذه الحالة هي التي ادت الى وقوع تلك الاحداث على عهد امير المؤمنين عليه السلام اي بما أن البعض صار يولي أهمية فائقة للمنصب لذلك فقد دخلوا في صراع معه . هذا وقد مرّت خمس وعشرون سنة على وفاة الرسول ﷺ ، وقد بدأت الكثير من الاخطاء والاشتباهات .

ان نفس أمير المؤمنين عليه السلام هي نفس الرسول صلى الله عليه وآله وسلم ولو لا هذه الفترة - الخمس وعشرون سنة - لما كانت تواجه علياً عليه السلام أيّة مشكلة في بناء ذلك المجتمع، إلّا انه عليه السلام جوبه بمثل هذا المجتمع الذي يوصف بعض افراده بانهم «يتخذون مال الله دولاً وعباده خولاً ودينه دخلاً بينهم». مجتمع ضاعت القيم فيه في خضم حب الدنيا، مجتمع يواجه فيه أمير المؤمنين عليه السلام مصاعب جمّه عندما يريد قيادة الناس الى الجهاد.

الخواص في زمن أمير المومنين عليه السلام

كان اكثر الخواص في عهد امير المؤمنين من المناصرين للحق؛ اي من الذين كانوا يعرفون الحق، لكنهم يرجّحون الدنيا على الآخرة. وهو ما ادى به الى خوض ثلاث معارك، وانهى فتره حكمه التي استمرت اربع سنوات وتسعة أشهر في هذه المعارك الثلاثة! الى ان استشهد في نهايه المطاف على يد أحد الاشقياء. ان دم امير المؤمنين عليه السلام غالٍ كدم الامام الحسين عليه السلام تقرأون في زيارة عاشوراء: **«السلام عليك يا ثار الله وابن ثاره»**، أي ان الله تعالى هو ولي دم الامام الحسين عليه السلام وولي دم ابيه امير المؤمنين عليه السلام، ولم يرد هذا التعبير لاحد غيره ومن البديهي ان لكل دم يراق وليّ، وهو ما يسمى بولي الدم، فالاب ولي دم ولدهِ، والولد ولي دم أبيه، والأخ ولي دن أخيه، ويُسمى هذا عند العرب ثاراً، المطالبة بالدم ومالكية حق الدم يسمونها بالثار. والذي يطالب بدم الامام الحسين هو الله تعالى، كما انه هو المطالب بدم امير المؤمنين عليه السلام، اذن ولي دم هاتين الشخصيتين هو الله تعالى. لقد استشهد أمير المؤمنين عليه السلام بسبب تلك الاوضاع. ومن بعده جاء ابنه الحسن عليه السلام الذي لم يتسنّ له الصمود بوجه تلك الحالة اكثر من ستة أشهر، إذ تخلى عنه انصاره وتركوه فريداً وحيداً، فرأى انه اذا سار لمحاربة معاوية بهذه

الثلة القليلة واستشهد فلن يطالب أحد حتى بثاره نتيجة لاستشراء الانحطاط الاخلاقي بين افراد المجتمع الاسلامي ، وبين هؤلاء الخواص ! وان دعاية معاوية وأمواله وحيله ستستحوذ على الجميع ، وسيقول الناس بعد مضي سنة أو سنتين : ان الامام الحسن لم يحسن صنعاً ـ اساساً ـ حين تحدّى معاوية ، ومعنى هذا ان دمه سيذهب هدراً ، لذلك تحمل جميع المصاعب ولم يلق بنفسه في ميدان الشهادة .

الشهادة أم البقاء عى قيد الحياة

انتم تعلمون ان الشهادة تكون احياناً أسهل من البقاء على قيد الحياة . وهذا المعنى يدركه جيداً أهل الحكمة والدقة والآفاق المعنويّة . احياناً تصبح الحياة والعمل في اجواء معيّنة اصعب بكثير من القتل والشهادة ولقاء الله ، لكن الامام الحسن عليه‌السلام سلك هذا السبيل الاصعب . في تلك الاوضاع كان الخواص في حالة انهيار ولم يكونوا على استعداد للقيام باي تحرك . ولهذا السبب حينما استلم يزيد السلطة ثار عليه الامام الحسين عليه‌السلام ؛ لان يزيد بما يتصف به من صفات سيئة كان من السهولة محاربته ، وفيما لو قتل أحد في محاربته لا يذهب دمه هدراً . كانت الاوضاع في عهده لا خيار فيها الاّ خيار الثورة ، على العكس من زمن الامام الحسن عليه‌السلام الذي فيه خياران خيار الشهادة وخيار الحياة ، وكان البقاء على قيد الحياة اكثر ثواباً وجدوى ومشقة من القتل ، والامام الحسن عليه‌السلام اختار هذا المسلك الاوعر ولكن الوضع لم يكن على هذه الصورة في عهد الامام الحسين عليه‌السلام ولم يكن هناك الا خياراً واحداً ! والبقاء على قيد الحياة الذي يعني عدم الثورة ما كان له آنذاك اي معنى ، كان لا بد له من الثورة ، سواء انتهى به الامر الى القبض على الحكم ام كان مصيره الى الشهادة . كان عليه ان يرسم الطريق

ويركز لواء الدلالة عليه ، ليكون واضحاً ان الامور اذا بلغت هذا الحد لا بد وان يكون التحرك في هذا الاتجاه .

دور الخواص في تحديد مسار الاحداث

طيّب ، وعندما ثار الحسين عليه السلام لم يات الكثير من هؤلاء الخواص لنصرته مع ما كانت له من منزلة عظمى في المجتمع الاسلامي ! لاحظوا مدى الضرر الناجم عن وجود هؤلاء الخواص في المجتمع ؛ الخواص الذين يرجّحون دنياهم حتى على مصير العالم الاسلامي لقرون مقبلة ، مع ما كان للامام الحسين من مكانة وشهرة . كنت انظر في قضايا ثورة الامام الحسين عليه السلام وحركته من المدينة ، ولاحظت انه فى الليلة التي سبقت مسيره من المدينة كان عبد الله بن الزبير قد خرج من المدينة ايضاً ، وفي الحقيقة كان كلاهما في وضع واحد ولكن اين الامام الحسين عليه السلام من عبد الله بن الزبير ؟ حديث الامام الحسين ، كلامه ، خطابه ، أجبر والي المدينة آنذاك ـ وهو الوليد ـ على ان يرقق كلامه ولا يتبع الغلظة مع الحسين عليه السلام وما ان تفوّه مروان بكلمة ، إلاّ والحسين يرد عليه مهدداً غاضباً ، ولا حيلة لمروان إلا السكوت ذليلاً . هؤلاء الاشخاص انفسهم ذهبوا وحاصروا دار عبد الله بن الزبير ، فاخرج اليهم اخاه ، فاستاذن منهم ان يسير معهم الى دار الامارة في تلك اللحظة ، فاهانوه وهددوه ان هو لم يخرج اليهم قتلوه ، حتى خضع لهم وتوسل اليهم في ان ياذنوا له ان يرسل اخاه ، وغداً ياتيهم بنفسه . ومع ان عبد الله بن الزبير كان شخصية بارزة ايضاً الا ان موقفه كان يختلف الى هذا الحد مع موقف الامام الحسين عليه السلام لم يكن احد يتجرأ على التصرف مع الامام الحسين عليه السلام أو مخاطبته بهذا الاسلوب لما له من حرمة وما يتسم به من عظمة وشخصية وهيبة وقوة روحيّة . وفي طريقه الى مكة كان كل من يلقاه ويتكلم معه يخاطبه بالقول.

جعلت فداك ، أو بابي انت وامي ، او عمي او خالي فداك . هكذا كانوا يكلمون الامام الحسين عليه السلام ، وهكذا كانت له مكانة ممتازة بارزة في المجتمع الاسلامي .

جاءه عبد الله بن مطيع وهو بمكة وقال له : (يا ابن رسول الله ، ان قتلت لنسترقنّ من بعدك اي ان هؤلاء القوم بحجزهم عن اذانا خشيتهم لك وهيبتهم منك، وانك اذا ثرت عليهم وقتلت اتخذونا رقيقاً لهم . كانت للامام الحسين عليه السلام مكانة وعظمة يخضع لها حتى عبد الله بن عباس ، وعبد الله بن جعفر وحتى عبدالله بن الزبير ـ مع انه لم يكن ينظر للامام الحسين بعين الارتياح ـ كان يبدي له غاية التبجيل والاكرام . جميع الاكابر والخواص من انصار الحق ، اي الذين لم يكونوا الى جانب الحكومة الاموية ولم يدخلوا جبهة الباطل ، وحتى من بينهم الكثير من الشيعة الذين يقرون بامامة امير المؤمنين عليه السلام ويعتبرونه الخليفة الاول شرعاً ، هؤلاء باجمعهم حينما احسوا ببطش السلطة الحاكمة ، تخاذلوا رغبه في الحفاظ على انفسهم واموالهم ومناصبهم . ونتيجة لتخاذل هؤلاء ، مال عوام الناس الى جانب الباطل .

حركة العوام تاتي على اعقاب حركة الخواص

لو نظرنا الى اسماء اهل الكوفة الذين كاتبوا الامام الحسين عليه السلام ودعوه للقدوم اليهم ، وكان كلهم طبعاً من طبقة الخواص ومن اكابر القوم ووجهاء الناس ، وكان عدد الرسائل هائلاً بلغ مئات الصفحات ، وربما ملأت عدة خروج . والذين كتبوها غالباً من الاعيان والوجهاء ، يتبين من خلال لهجة تلك الرسائل كم عدد الخواص من انصار الحق ، من كان على استعداد للتضحيّة بدينه من اجل دنياه ، ومن منهم كان حريصاً على التضحية بالدنيا في سبيل الدين وهذا ما يمكن ان يُستشف من خلال الرسائل . ولكن بما أن عدد الذين كانوا يميلون الى التضحية

بالدين في سبيل الدنيا كان اكبر ، آلت النتيجة الى مقتل مسلم بن عقيل في الكوفة بعدما كان قد بايعه ثمانية عشر الفاً من اهلها . وبعد ذلك خرج منها عشرون او ثلاثون الفاً تقاتل الامام الحسين عليه السلام بكربلاء . معنى هذا ان حركة الخواص تجلب في اعقابها حركة العوام . لا أدري هل عظمة هذه الحقيقة التي تلازم الناس الواعين على الدوام ، تتبين لنا بشكل واضح صحيح ام لا؟

لا بد وانكم سمعتم بما جرى في الكوفة ، اذ كان القوم قد كتبوا الرسائل الى الامام الحسين عليه السلام أن اقدم علينا معززاً ، فأوفد اليهم مسلم بن عقيل ليطّلع على حقيقة الموقف ، ان كان خيراً سار اليهم بنفسه . سار مسلم الى الكوفة ، ودخل دور كبار الشيعة ، وتلا عليهم كتاب الامام الحسين عليه السلام اليهم ، فاخذ الناس يفدون عليه زرافات زرافات ويعلنون عن ولائهم .

وكان النعمان بن بشير والي الكوفة آنذاك شخصاً ضعيفاً ومسالماً ، فاعلن انه لا يقاتل إلا من يقاتله ، ولم ينهض لمجابهة مسلم بن عقيل ، فرأى الناس ان المجال مفسوح امامهم ، فجاءوا الى مسلم وبايعوه وبعث بعض الخواص المؤيدين للباطل من انصار الامويين رسالة الى يزيد يعلمونه فيها ان كانت له في الكوفة حاجة فليولي عليها رجلاً حازماً ، وان النعمان بن بشير لا طاقة له على مجابهة مسلم بن عقيل . كتب يزيد الى عبيدالله بن زياد الذي كان والياً على البصرة حينذاك يعلمه فيها بأنّه عينّه والياً على الكوفة مع احتفاظه بولاية البصرة وانطلق عبيدالله من ساعته يحث السير من البصرة الى الكوفة .

ويتضح دور الخواص ايضاً من خلال مجيئه الى هناك . واذا رأينا المجال يسمح بذلك قد نعرض هنا جانباً من تلك القضيّة .

العوام لا يتحركون على اساس التفكير والتحليل

وصل عبيدالله بن زياد الى مشارف الكوفة ليلاً ، وما أن راى الناس رجلاً ملثماً قادماً ومعه الخيل والعدة حتى ظن العوام أنّه الامام الحسين ، فتقدموا اليه بكل بساطة وحييوه قائلين . (**السلام عليك يابن رسول الله**) . هذه صفة عوام الناس ؛ ليست لاحدهم قدرة على التحليل أو النظر في الامر ، فما ان رأوا شخصاً قادماً ؟معه الخيل والعدّة حتى ظنوه الامام حسين عليه السلام حتى قبل ان يتحدث معهم بكلمة واحدة . وأخذ الجميع يردد انه الامام الحسين . كان الجدير بهم ان يتاملوا ليعرفوا من هو . لكن هذا القادم لم يلتفت الى الناس وسار الى دار الامارة وعرّفهم بنفسه ودخل القصر . وبدأ يخطط من هناك للقضاء على وثبة مسلم بن عقيل ، وتركزت مساعيه على استخدام أشد اساليب الضغط والتهديد والتعذيب ضد انصار مسلم بن عقيل . واحتال على هاني بن عروة واستقدمه الى القصر ، وشج رأسه ووجهه . ولما احتشد بعض الناس حول القصر نجح بتفريقهم بأساليب الحيلة والكذب . وهنا أيضاً يتضح دور الخواص الفاسدين الذين يسموّن بانصار الحق ، وهم الذين عرفوا الحق وميّزوه ، لكنهم رجّحوا دنياهم على الدين . وبعد ان سار مسلم بن عقيل بحشد كبير من انصاره .

جاء في كتاب ابن الاثير ان عددهم بلغ ثلاثين الفاً ، والذين احاطوا بداره فقط بلغ عددهم أربعة آلاف يحملون السيوف دفاعاً عنه ، كان هذا في اليوم التاسع من ذي الحجة .

سارع ابن زياد الى بث بعض خواص الباطل بينهم لاجل اثارة الخوف والرعب فيهم ، ويشعيوا بينهم ان لبني أمية كل شيء السلاح والمال والقوة ، وان هؤلاء لا شيء عندهم . فاستشرى الذعر بين الناس واخذوا يتفرقون عنه

تدريجياً، وما ان حان وقت صلاة العشاء حتى لم يبق مع مسلم أحد . ونادى منادي ابن زياد : يجب ان يحضر الجميع الى مسجد الكوفة عند صلاة العشاء ليصلوا معه ! وجاء في المصادر التاريخية ان المسجد امتلأ بالناس للصلاة خلف ابن زياد .

الخواص من انصار الحق كانوا مقصرين

حسناً ، لماذا آلت الامور الى ذلك المآل ؟ انني حينما انظر ارى ان ذلك يعزى الى الخواص من انصار الحق الذين سلك بعضهم مسلكاً اتسم بغاية التخاذل، من امثال شريح القاضي ! شريح هذا لم يكن من بني امية وكان يعرف حقيقة الاوضاع ويدرك مع مَن . فحينما جاءوا بهاني بن عروة وشجوا رأسه وجرحوا وجهه وألقوه في السجن ، هبت عشيرته وحاصرت قصر ابن زياد ، فخشي ابن زياد اجتماعهم اذ يرون ان قاتل هاني هو ابن زياد ، لذلك أمر شريحاً ان يذهب ليرى بعينه ان هاني حيّ . اطلع شريح على حياة هاني بنفسه ولكنه وجده مجروحاً ، فما أن رأى هاني شريحاً القاضي حتى استغاث بالمسلمين (مخاطباً لشريح) اين قومي ؟ هل ماتوا ؟ لماذا لا يأتون وينقذوني مما أنا فيه ؟ يقول شريح : اردت أن اذهب وابلغ المجتمعين حول قصر الامارة بمقالة هاني ، لكن للأسف كان هناك جاسوس بن زياد ، فلم استطع ماذا يعني (لم استطع) ؟ يعني ترجيح الدنيا على الدين . لعل شريح لو كان فعل ذلك لتغيّر التاريخ ، لو قال للناس ان هاني حي ولكنه في السجن ، وابن زياد يريد قتله ، ولم يكن ابن زياد قد استولى على الامور بعد ـ لهجموا وانقذوا هاني واصبحوا اكثر قوة وشكيمة ولقبضوا على ابن زياد وقتلوه أو اخرجوه من هناك ، ولاستتب أمر الكوفة للحسين عليه السلام ولما وقعت حادثة كربلاء ! ولو لم تقع حادثة كربلاء لانتهى الامر الى

استلام الامام الحسين لزمام الحكم، ولو ان هذا الحكم استمر تسعة اشهر ـ وربما كان يمتد لفترة أطول ـ لكانت له بركة كبيرة في التاريخ.

الموقف المطلوب وغير المطلوب واثرهما في حركة التاريخ

قد تؤدي حركة ما احياناً الى تبديل وجه التاريخ. وقد تقود حركة اخرى مغلوطة وناتجة عن الخوف والضعف وحب الدينا والحرص على الحياة، الى جعل التاريخ يتمرغ في مهاوي الضياع انت (يا شريح القاضي) لماذا لم تشهد بالحق حينما رأيت هاني على تلك الحالة؟! هذا هو دور الخواص الذين يفضلون الدنيا على الدين. حينما أمر ابن زياد رؤساء القبائل ان يذهبوا ويعملوا على تفريق الناس من حول مسلم، لماذا اطاعوا أمره؟ فهم لم يكونوا باجمعهم من الامويين، ولم يكونوا قد قدموا من الشام، بل ان بعضهم كان ممن كتب الرسائل الى الامام الحسين عليه السلام كشبث بن ربعي الذي كان قد كتب له رساله ودعاه الى القدوم! هذا الرجل كان من جملة الذين أمرهم ابن زياد بالسعي لتفريق الناس، فذهب وأخذ يثبط الناس ويستخدم اساليب التهديد والتخويف والاغراء، وساهم في تفريق الناس عنه، لماذا فعلوا هكذا؟ لو ان شخصاً كشبث بن ربعي خشي الله في لحظة مصيريّة بدلاً من خشية ابن زياد، لتبدّل وجه التاريخ! لكن هؤلاء انبروا لتثبيط الناس؛ فتفرق العوام. ولكن لماذا تفرق الخواص المؤمنون المحيطون بمسلم؟ مع انهم كان من بينهم شخصيات خيّرة وصالحة وبعضهم سار في ما بعد الى كربلاء واستشهد هناك لكنهم اخطاوا في ذلك الوقف. من الطبيعي ان الذين استشهدوا في كربلاء قد كفّروا عن خطئهم ذلك. ونحن هنا لا نتحدث عنهم ولا نذكر اسماءهم. ولكن ايضاً كان من بينهم من لم يأت الى كربلاء! لم يستطيعوا أو لم يوفقوا، لكنهم انخرطوا في ما بعد في صفوف التوابين.

الأثر الذي تركه شهداء كربلاء

ولكن ما فائدة ذلك بعد ما وقعت فاجعة كربلاء وقتل سبط الرسول ، وبدأت حركة التاريخ بالانتكاس ؟ ولهذا السبب كان عدد التوابين عدة اضعاف شهداء كربلاء . شهداء كربلاء صرعوا كلهم في يوم واحد ، والتوابون صرعوا كلهم في يوم واحد ايضاً . ولكن تلاحظون ان الاثر الذي تركه التوابون في التاريخ لا يعدل واحداً من الف مما خلفه شهداء كربلاء !

وذلك لانهم لم يبادروا الى ذلك العمل في وقته ، ولان تشخيصهم وقرارهم قد جاء متاخراً . لماذا تركوا مسلم وحده ، بعد ما جاء اليهم كمندوب عن الامام الحسين عليه السلام ، وبعدما بايعوه وأنا هنا لا أخاطب العوام بل اعني الخواص لماذا حينما جنّ عليه الليل تركوه يلتجىء الى دار طوعة ؟!

الخواص قصّروا في أداء واجبهم

لو أنّ الخواص لم يتخلوا عن مسلم ، ولو وقف الى جانبه على سبيل المثال مائة رجل ، وآووه في دار احدهم ودافعوا عنه ، ومسلم حتى حينما كان وحده حينما ارادوا اعتقاله بقي يقاوم عدة ساعات ، واستطاع بعد ان هجموا عليه عدة مرات ، ورغم كثرة عددهم ان يردهم على اعقابهم ، ولو كان معه مئة رجل ، هل كان بامكانهم القبض عليه ؟ كلا ، لان الناس سيهبون لنجدتهم . اذن الخواص قصّروا هنا اذ لم يهبّوا لمؤازرة مسلم . لاحظوا اينما تذهبون تصطدمون بموقف الخواص . من الواضح ان قرار الخواص في الوقت المناسب ، ورؤيتهم الصائبة للأمور في الوقت المناسب وتجاوزهم عن الدنيا في اللحظة المناسبة ، وموقفهم في سبيل الله في الفرصة المؤاتية ، هو الذي يستنقذ التاريخ ويصون القيم . وهذا ما

يوجب اتخاذ الموقف المناسب في اللحظة المناسبة ، أما اذا فات الأوان ، فلا جدوى في ما وراء ذلك .

بعد الانتخابات التي جرت في الجزائر وفازت فيها الجبهة الاسلامية ، **سيطر الجيش على مقاليد الحكم بتحريض من امريكا وغيرها في اليوم الاول لمجيء حكومة العسكر الى السلطة ، لم تكن لها اية قوة ، فلو أن مسؤولي الجبهة الاسلامية قادوا الناس الى الشوارع من اليوم الاول ـ وقد اعلنت لهم ذلك ـ حين** لم تكن الحكومة العسكرية يومذاك على درجة من القوة ، ولا قادرة على اي عمل ، لقضوا عليها ولاقاموا حكماً اسلامياً ، ولكانت في الجزائر اليوم حكومة اسلامية . ولكنهم لم يتخذوا قراراً كهذا . بعضهم اخذته الرهبة ، والبعض الآخر انتابه الضعف ، والبعض قال : لنا الرئاسة ، أو لهذا أو لذاك .

الامام الخميني ﵀ اتخذ القرار المناسب في اللحظة الحاسمة

في عصر يوم ٢١ من بهمن عام ١٣٥٧ هـ ش (٩/٢/١٩٧٩م) اعلنت الاحكام العرفيّة في طهران لكن الامام دعا الناس للنزول الى الشوارع ولو لم يتخذ الامام هذا القرار في تلك اللحظة لكان محمد رضا لا يزال يحكم هذا البلد . ولو ان الناس حين اعلان الاحكام العرفيّة لزموا منازلهم ، لبدأوا أول ما بدأوا بالامام ومن بعده مدرسة الرفاه ثم بقيّة المناطق ، ولقضوا على كل شيء ، ولكانوا قتلوا في طهران خمسمائة ألف شخص ، وانتهى كل شيء ! على غرار ما حصل في اندونيسيا حيث قتلوا مليون شخص ثم عاد كل شيء الى محلّه ، وذلك الشخص على رأس السلطة اليوم ، شخصيته المبجلة والمكرّمة ، ولم يتزحزح شيء عن موضعه . غير أن الامام اتخذ القرار اللازم في اللحظة الحاسمة في موقعه . لو ان الخواص شخّصوا ما ينبغي عمله في الظرف المناسب ، وطبقوا ذلك لتغيّر وجه التاريخ ، ولما سبق أمثال

الحسين بن علي الى ميادين كميدان كربلاء . واذا كان الخواص قد أساءوا الفهم ، أو ابطاؤا في الفهم ، أو فهموا ولكن اختلفوا كما هو الحال بالنسبة للاخوة الافغان ـ وحتى اذا كان المتصدون للعمل كفوئين ، الا ان طبقة الخواص لم تتجاوب معهم ، **وقال أحد أفرادها نحن مشغولون حالياً وقال غيره لقد انتهت الحرب ، دعونا نتفرغ لاعمالنا ونكسب لقمة عيشنا وجمعوا خلال بضع سنوات امكانات هائلة واننا قد سئمنا القتال والتجوال بين هذه الجبهة تلك تارة في جبهة الغرب وتارة في** جبهة الجنوب ، اذا تعرف الخواص بهذه الصورة ، فاعلموا ان التاريخ ستتكرر فيه وقائع كواقعة كربلاء !

نصر الله

وعد الله تعالى بنصرة من ينصره ، ان قام احد لله وبذل جهده يكون النصر حليفه لا بمعنى يكتب النصر لكل واحد من الاشخاص بل معناه ان اية جماعة عندما تتحرك تنال النصر ، ومن الطبيعي ان مسارها تحفّه المصاعب والقتل والآلام ، ولكن فيه انتصار ايضاً .يقول الباري تعالى : ﴿**ولينصرن الله من ينصره**﴾ ولا يقول نصركم دون ان يدمى انف أحدكم ، لا أبداً ، وانما يقول ﴿**فيقتُلون ويُقتلون**﴾ ولكن ينتصرون ، هذه سنّة إلهية . حينما نخاف على دمائنا ، وعلى كرامتنا ، وعلى أموالنا ، ولاجل عوائلنا واحبائنا ، وحينما نخشى على الراحة والمعيشة الوادعة ، ونحرص على الكسب وعلى الحصول على دار فيها غرفة اكثر من غرف الدار السابقة ، عندما تُعيقنا أمثال هذه الامور عن الحركة ، يصبح من الواضح حينها أنه حتى لو كان أشخاص كالامام الحسين تزعموا الطريق ، لاستشهدوا عن آخرهم ، مثلما استشهد امير المؤمنين عليه السلام ، وكما استشهد الحسين عليه السلام . الخواص ، الخواص ، طبقة الخواص . انظروا يا اعزائي اين موقعكم ،

ان كنتم من الخواص ـ وانتم فعلاً منهم ـ فحاذروا . هـذا كـل مـا نـريد قـوله . من الطبيعى ان كلامنا هذا خلاصة لهذا الموضوع الذي يستدعي ان يدرس فـي حقلين : يتمثل الحقل الاول في الجانب التاريخي للقضية . ولو كان امامي متسعاً من الوقت لبادرت إليه بنفسي ولكن مع الاسف لم يعد في الوقت متسع له ، اذن يجب ان يبحث لاجل العثور على امثلة مما يحفل به التاريخي عـن الخـواص ، والظروف التي كان ينبغي عليهم فيها المبادرة للعمل فلم يُبادروا ، مع ذكر اسمائهم ولو كان المجال يسمح الآن ولا يتعبني ويتعبكم ، لتحدثت اليكم ساعة عن هذه المواضيع والاشخاص ففي ذهني الكثير منها .

تطبيق الوقائع والحوادث التاريخيّة على كل زمان

اما الحقل الثاني الذي يجب البحث فيه فهو تطبيق ذلك عـلى وضـع كـل زمان، لا في زمننا الحالي فحسب ، وانما فيكل زمن كان يجب فيه على الخواص العمل بتكاليفهم لكنهم لم يعملوا لها وما ذكرنا ه عن اجتناب انقيادهم لمـغريات الدنيا ، كان كلمة واحدة ؛ ويجب البحث في كيفية عدم الانقياد للدنيا ، مع ذكـر الامثلة والمصاديق على ذلك . يا اعزائي ! ان السير على طريق الله له معارضون على الدوام . ولو ان شخصاً من هؤلاء الخواص الذين تحدثنا عنهم اراد ان يقدم على عمل ـ ان هو اراد ذلك ـ لا نبرى له جماعة آخرون مـن اولئك الخـواص انفسهم باللوم والتعنيف والتقريع على موقفه ذاك . مثلما كانوا يفعلون فـي ايـام ثورتنا لكن الخواص يجب عليهم ان يقاوموا ؛ هـذه احـدى ضـرورات جـهاد الخواص ، وهي الصبر على اللوم والتقريع ، لانهم يتلقون من المعارضين التـهم والاساءات على الدوام .

الانتخابات وتدخل قوات التعبئة

نحمد الله على ان انتخاباتنا جرت على ما يرام ، وشارك فيها ابناء الشعب كافة ، وقد انتخب والحمد لله نواب صالحون . ونشكر الله على ان الحكومة ، ووزارة الداخلية ، ورئيس الجمهورية ، ومجلس صيانة الدستور وغيرهم ساهموا باجمعهم في اقامة هذه الانتخابات ، فجرت على أفضل ما يكون . لقد تحدث بعض افراد قوات التعبئة ببعض الكلمات في طهران أو هنا أو هناك ؛ فاثيرت لاجل ذلك ضجة بذريعة ان الحرس الثوري تدخل في الانتخابات ، وما شابه ذلك ما هذا الكلام ؟ أجل ، ان الأمور تسير على هذه الشاكلة . اذا اراد المرء ان يقوم باي اجراء أو يأتي باي عمل ، فالعدو بالمرصاد . والاعداء صورهم شتى ، حتى ان بعضهم من الاصدقاء وهم ليسوا اعداء ، ولكنهم لا يفهمون ولا يشخصون ، فيثيرون الشكوك والشبهات ! طبعاً كما قال الامام الراحل لا ينبغي للحرس الثوري والجيش وسائر القوات المسلحة الخوض في السياسة . ولا يعني هذا ان الاعداد الهائلة من قوات التعبئة لا يحق لها أداء دور مناسب في قضية خطيرة ، كالانتخابات لماذا يخلط البعض بين هذين الامرين ؟ افراد الحرس الثوري شأنهم شأن سائر الناس . يجب عليهم التعامل مع كل شيء بشكل عقلاني . ومن الطبيعي ان عدم الخوض في السياسة باق على قوته بذات المعنى الذي أمر به الامام . ولا يتوهم البعض ان المسار السياسي قد طرأ عليه تغيير ، على اعتبار ان الامام قال : لا تقحموا انفسكم في السياسة ، بينما يقال حالياً : ادخلوا في السياسة ! ابداً فالامر ما أمر به الامام ، ولكن مصداقه ومثاله لا ينطبق على المورد . اذا ادى الناس الملتزمون والشباب المؤمنون ، وهم خيرة شبان البلد دوراً في الانتخابات ، وحضروا عند صناديق الاقتراع لغرض الاشراف ، وللحيلولة دون حصول اي تجاوزات أو خلافات ؛ فلا خير في عملهم هذا . وخلاصة القول

هي ان اي عمل تؤدونه ـ اي يؤديه الخواص ـ وفي اي قطاع كان ، وقد يكون من القضايا الهامة التي قد تطرأ في المستقبل ، ـ وما ذكر كان نموذجاً مصغراً ـ سيؤدي الى اثارة الاعتراضات والتساؤلات من قبل البعض !

بلدنا بلد الجهاد في سبيل الله

نحمد الله على ان بلدنا اليوم بلد المجاهدة في سبيل الله ، وبلد الجهاد والايثار والقيم . ومسؤولوا البلد واكابر العلماء الاعلام والخطباء والمبلغون في شتى القطاعات كالجامعات وغيرها يعملون لخدمة الثورة والاسلام والفضائل . والقوات المسلحة كما هو واضح مظهر للفضائل . وهذا حرس الثورة بماله من مناقب مشرّفة ، وهذه القوات بما تتميز به من خصائص ، كم بذلت من جهود مضنية ، وكم سطرت من الملاحم ، يجب عليها ان تبقى الآن سائرة في طريق تلك القيم والفضائل ذاتها .

كان هذا عرضاً عاماً لهذه القضية التي ارتئيت الحديث عنها بمناسبة ايام محرم الحرام . لا شك ان ما قلناه موجزاً ، وان كان الوقت قد طال بنا شيئاً ما ـ رغم التوصيات المتكررة بضرورة الاختصار في الاحاديث لكي لا أصاب بالارهاق ـ والحقيقة انني ارى ليس من المصلحة ان أرهق نفسي ؛ ليتسنى لي اداء مهامي الاخرى ، لكن المرء حينما يجلس في محفل كمحفلكم هذا يستغرق في الوجد ولا يشعر بالتعب .

اسأل الله ان يوفقكم جميعاً ، وان يحشر روح الامام مع الانبياء والاولياء . وادعوه تعالى ان يثبت الشعب الايراني على هذا الطريق الواضح الذي وضع قدمه فيه .

اللهم احينا لخدمة الثورة الاسلاميّة والقيم الاسلاميّة ، وامتنا على هذا الطريق . اللهم اجعل موتنا قتلاً في سبيلك ، وارفع درجات شهدائنا الابرار يوماً بعد آخر . اللهم تفضّل على مضحيّنا بالاجر الجزيل ومُنّ عليهم بتمام الصحة والسلامة . اللهم اجعل اعلى الدرجات لمن تحملوا المشقة على هذا السبيل ، ولمن كانوا في الأسر مدة من الزمن ، واطلق سراحهم ، أو لم يُطلق سراحهم الى الآن ، ولمن فقدوا أو فقدت اجسادهم ولا أحد يعلم عنهم شيئاً ، واكتب لعوائلهم الاجر والصبر .

اللهم اقض حاجات المسلمين ، وخلّص البلدان الاسلامية من مخالب الاجانب ومن براثن امريكا ، وايقظ زعماء المسلمين من سبات الغفلة ، واستنقذهم من مستنقع الشهوات .

اللهم بحق محمد وآل محمد أرنا عزتك وقدرتك في مذلة وانكسار أمريكا وسائر اقطاب الاستكبار وأذنابهم ، واذق الشعب الايراني حلاوة الانتصار عليهم. اللهمّ وكما محوت الاتحاد السوفيتي ، نسألك ان تمحو بقية أقطاب الاستكبار .

اللهم اشمل برحتمك وبركاتك كل من عاش ومات على هذا السبيل .

اللهم تقبّل بلطفك وكرمك كافة الاعمال والجهود .

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

الفصل الثاني

انزلاق الخواص امام مغريات الدنيا

قرارات الخواص في الوقت المناسب ، تحديد الخواص للمواقف في الوقت المناسب ، عزوف الخواص عن الدنيا فياللحظة المناسبة ، كل ذلك يحفظ لنا التاريخ وينقذ لنا القيم ويحفظها ، يجب اتخاذ الموقف اللازم في اللحظة الحاسمة ، واذا مرّت تلك اللحظة المصيريّة بدون استثمار تكون الفرصة قد مرت والخسارة لا تعوض .

السيد الخامنئي

الغدير ومنزلة علي عليه السلام

ان خلافة الرسول صلى الله عليه وآله في عقيدة الشيعة هي منصب الهي وان الله سبحانه لا يجعل هذا المنصب الا لمن توفرت فيه كامل الشروط لحفظ وصيانة هذا المنصب الالهي . وفي المرحلة الأولى التي اعلن فيها الرسول محمد صلى الله عليه وآله عن دعوته المباركة أُمر بانذار عشيرته الاقربين .

وقد طلب النبي صلى الله عليه وآله من علي عليه السلام أن يدعو ٤٥ نفراً من بني هاشم لحضور دعوة الرسول صلى الله عليه وآله لتناول طعام العشاء ومنذ تلك الجلسة التاريخيّة طُرحت مسألة خلافة علي عليه السلام من قبل الرسول صلى الله عليه وآله عندما قال للحاضرين : (قد أمرني الله تعالى ان أدعوكم اليه فأيّكم يؤازرني على هذا الامر على ان يكون أخي ووصي وخليفتي فيكم)، وبعد ان أبلغهم الرسول صلى الله عليه وآله بنبوته ما آمن احدٌ به إلّا علي عليه السلام وهذا ما نقلته جميع الكتب التاريخيّة فقال لهم النبي صلى الله عليه وآله : (هذا اخي ووصي وخليفتي) . وعلى مدى ٢٣ سنة من رسالة النبي صلى الله عليه وآله وفي مناسبات مختلفة طرح صلى الله عليه وآله خلافة ووصاية علي عليه السلام على اسماع المسلمين واول تلك الاحاديث هو حديث المنزلة الذي ادخل السرور على قلوب المحبين والحسد في قلوب المنافقين عندما جعل الرسول صلى الله عليه وآله علياً عليه السلام منه بمنزلة هارون من موسى عليه السلام والحديث الآخر هو – حديث سد الابواب) وذلك عندما أمر الرسول صلى الله عليه وآله بسد جميع ابواب الصحابة التي تؤدي الى مسجده ما عدا باب علي عليه السلام ، هذا بالاضافة الى «حديث المؤاخاة» بين المهاجرين والانصار في المدينة المنورة عندما اعلن صلى الله عليه وآله للجميع ان علياً عليه السلام

(اخي في الدنيا والآخرة) . ولا يمكن ان تنسى هنا (حديث ابلاغ البراءة) الوارد في الآيات الاولى من سورة التوبة والتي فُضل فيها علي عليه السلام على ابي بكر في مسألة ابلاغ البراءة . وكذلك حديث المباهلة بين الرسول صلى الله عليه وآله ونصارى نجران الذي ذكرته الآيات (٥٩ ـ ٦١) من سورة آل عمران الذي جعل فيه الرسول صلى الله عليه وآله نفس علي عليه السلام بمنزلة نفسه . وفي ختام تلك الوقائع (حديث الغدير) في سنة ١٠ للهجرة وذلك بعد حجة الوداع عندما أراد الرسول صلى الله عليه وآله الرجوع الى المدينة المنورة وفي موقع يقال له غدير خم ـ وهذا الموقع ليس بعيداً عن مكة المكرمة ـ نزلت الآية الكريمة الآتية ﴿**يا ايها الرسول بلغ ما انزل اليك من ربك وان لم تفعل فما بلغت** رسالته﴾ المائدة آية ٦٧ . وواضح من ذيل الآية الكريمة أهمية هذا الامر الالهي وكيف ان الآية خاطبت الرسول صلى الله عليه وآله بعبارة ﴿**والله يعصمك من الناس**﴾ اي يحفظك ويرعاك .

فامر الرسول صلى الله عليه وآله بجمع المسلمين وابلغهم ذلك الامر الالهي على لسان الوحي وكان عدد الحاضرين يقدر ١٠٠/٠٠٠ نفر في ذلك المكان وكان الجو فيها قائظاً فوقف صلى الله عليه وآله على مكان مرتفع فحمد الله واثنى عليه ونادى علياً عليه السلام وأخذ بيده ورفعها وقال : (ايها الناس ... فمن كنت مولاه فعلي مولاه ... اللهم وال من ولاه وعاد من عداه ..) ، وبعد ان انتهت الخطبة أخذ الصحابة والمسلمون يبايعون علي عليه السلام وفي هذا المقام طلب الشاعر حسان بن ثابت من الرسول ان يأذن له بالقاء قصيدة شعرية بهذه المناسبة فأذن له الرسول صلى الله عليه وآله ، واليكم هذا البيت من مطلع تلك القصيدة :

يناديهم يوم الغدير نبيهم ... بخم فاسمع بالرسول منادياً[1]

---

(١) عن كتاب الغدير للعلامة الاميني ج ١ ص ١١ / المترجم .

لو تركوا الرسول ﷺ يكتب وصيته

مرض الرسول ﷺ بعد عودته من الحج ولازم الفراش ، وعندما وصلت الاخبار عن وجود نوايا للروم بالهجوم على حدود الدولة الاسلاميّة أمر ﷺ بتجهيز جيش لصد ذلك العدوان وانتخب له قائداً شاباً اسمه (أسامة بن زيد) وسلّمه ﷺ الراية بنفسه وبحضور كبار الصحابة من أمثال : أبو بكر ، عمر ، ابو عبيدة ، سعد بن ابي وقاص .. الخ ووضعهم تحت قيادته ، وقد اتخذ اسامة من منطقة (جُرف) معسكراً لتدريب واعداد المجاهدين ، وفي خلال تلك الاحداث بدأت بعض الايادي تعمل خلف الستار وذلك عن طريق بث الاشاعات والتشكيك بمشروع حملة اسامة بن زيد واثارة التساؤلات عن سبب ترجيح الرسول ﷺ لهذا الشاب على باقي الصحابة الكبار ، وفي الحقيقة ان هذه التشكيكات كانت تعبر بصدق عن النفس الجاهلي والقيم الجاهليّة والقبليّة التي كانت سائدة قبل ظهور الاسلام والتي كانت تؤكد على ضرورة كون القائد أو الرئيس يجب ان يكون كبير السن ، اما مسألة العلم والتقوى فتأتي في المرتبة الثانية أو الثالثة ، في بداية الامر واجه بعض الصحابة تلك الدسائس لكونه ﷺ كان مريضاً وعندما وصلت الأمور الى طريق مسدود اضطر الرسول ﷺ ان يترك فراش المرض ويذهب الى المسجد لالقاء خطبة يوضح فيها مسار الاحداث وبعد ان حمد الله واثنى عليه قال : (ايها الناس ... قد بلغني ان اقواماً يقولون في امارة اسامة ! ولعمري لئن قالوا في امارته ، لقد قالوا في امارة ابيه من قبله ! وان كان ابوه لخليقاً للامارة ، وانه لخليق لها ، فانفذوا بعث اسامة ...) ، ونزل ﷺ من على المنبر وعاد الى فراشه وكان يقول لكل من زاره : (انفذوا بعث اسامة ... لعن الله من تخلف عن جيش اسامة) ، وعندما اشتد به المرض بسبب تأثره من الذين أخذوا يقدمون الاعذار بعدم قدرتهم على المشاركة بجيش اسامة وجاءت مجموعة من

تلك الثلة المتخاذلة من الصحابة لعيادته فنظر ﷺ بوجوههم نظرة عميقة ثم اطرق برأسه قليلاً ثم رفع رأسة ونظر اليهم ثانية فعم الهدوء والصمت في انحاء المجلس واخذت تلك اللحظات تمر ببطيء وثقل الى ان تحركت شفتاه ﷺ وقال: (ايتوني بدواة وكتف لا كتب لكم كتاباً لا تضلوا بعده ابداً) فعمت الحاضرين الحيرة والدهشة فقال عمر بن الخطاب وبدون تردد: ان النبي قد غلب عليه الوجع وعندكم القرآن حسبنا كتاب الله. وعلى أثر كلام عمر اختلف الحاضرون حول الوصية وقال بعضهم لا بد من اجراء وصية الرسول ﷺ واما عمر ومن سايره فقاموا بالرد عليهم وعلى أثر ذلك اختلفوا وكثر اللغط في محضر النبي ﷺ حتى قالت بعض نساء النبي اللاتي شهدن المجلس: ائتوا رسول الله بحاجته فقال لهن عمر: اسكتن فانكن صواحبه اذا مرض عصرتنّ اعينكنّ واذا صحّ اخذتنّ بعنقه فخجلن وسكتن فكثر اللغو والاختلاف فقال الرسول ﷺ: قوموا عني فطلب منهم عمر الاسراع بالخروج من عند الرسول ﷺ.

لاجل الاسلام منعت ذلك

وهكذا أفسد بعض الصحابة الذين يجهلون حقيقة الاسلام ما أراد الرسول ﷺ ان يوصي به بخصوص استمرار خط النبوة في ولاية علي عليه السلام واقامة صرح العدالة بين افراد المجتمع الاسلامي، وقد بكى ابن عباس بكاءً شديداً على ما جرى من احداث (يوم الخميس) ذلك اليوم الذي حال بعض الصحابة بين الرسول وبين كتابة وصيته وقال: (الرزية كل الرزية ما حال بين رسول الله وبين ان يكتب لهم ذلك الكتاب من اختلافهم ولغطهم) وقد تحدث عمر أيام خلافته عن موضوع امتناع الرسول عن كتابه وصيته لعلي عليه السلام ونقل ابن ابي الحديد عن كتاب تاريخ بغداد ان ابن عباس قال: (دخلت على عمر في اول خلافته وقد القي له

صاعٌ من تمر على خصفة ، فدعاني الى الاكل ، فاكلت تمرة واحدة واقبل ياكل حتى اتى عليه ثم شرب من جرٍ كان عنده ، واستلقى على مرفقة له وطفق يحمد الله يكرر ذلك ، ثم قال : من اين جئت يا عبد الله ؟ قلت من المسجد ، قال : كيف خلّفت ابن عمك ؟ فظننته يعني عبد الله بن جعفر ، قلت : خلفته يلعب مع اترابه ، قال : لم اعن ذلك ، إنما عنيت عظيمكم اهل البيت ، قلت : خلّفته يمتح بالغَرب على نخيلات من فلان ، وهو يقرأ القرآن ، قال : يا عبد الله ، عليك دماء البُدن إن كتمتينها ؟ هل بقي في نفسه شيء من أمر الخلافة ؟ قلت : نعم ، ايزعم ان رسول الله ﷺ نص عليه ؟ قلت : نعم ، وأزيدك ، سألت ابي عما يدّعيه ، فقال : صدق ، فقال عمر : لقد كان من رسول الله ﷺ في أمره ذَرْوٌ من قول لا يثبت حجة ، ولا يقطع عذراً ، ولقد كان يربع في أمره وقتاً ما ، ولقد أراد في مرضه ان يصرّح باسمه فمنعت من ذلك اشفاقاً وحيطة على الاسلام ، لا ورب هذه البنيّة لا تجتمع عليه قريش ابداً ! ولو وليها لانتقضت عليه العرب من أقطارها ، فعلم رسول الله ﷺ اني علمت ما في نفسه فأمسك وأبى الله إلا امضاء ما حتم)[1].

فتنة الخواص عندما كان الرسول ﷺ ملقياً على الارض

في اليوم الذي خرج فيه الرسول ﷺ عائداً من المسجد متكئاً على ساعد علي عليه السلام والفضل بن العباس قامت عائشة باعداد فراش للنبي ﷺ في بيتها لتتولى تعليله وسألت ازواج النبي ﷺ في ذلك فاذن لها ، وكانت الدوافع التي ادت بعائشة

---

(١) شرح نهج البلاغة لابن ابي الحديد ج ١٢ ص ٢١ ، ونقله عن شرح النهج تاريخ تحوّل الدولة والخلافة ص ٧٢ رسول جعفريان.

ـ وقد أورد الامام ابو الفضل احمد بن ابي طاهر هذا الحديث في كتابه (تاريخ بغداد) .

ـ اتقوا الله ، للدكتور محمد التيجاني السماوي ، ترجمة لطيف راشدي ص ٣٤.

للقيام بهذا العمل هو منع الرسول ﷺ من الذهاب الى بيت فاطمة عليها السلام ولكي تكون على علم بمجريات الاحداث ، ولما اشتد به المرض ﷺ قال : (ابعثوا الى عليّ فادعوه ، فقالت عائشة : لو بعثت الى ابي بكر ! وقالت حفصة . لو بعثت الى عمر ! فاجتمعوا عنده جميعاً ، فقال رسول الله ﷺ : انصرفوا ، فان تك لي حاجة ابعث اليكم ، فانصرفوا ، وظل بيت النبي ﷺ على هذه الحالة من عدم الاستقرار حتى حانت وفاته وعندما غلب الوجع على النبي ﷺ ذهب عمر الى معسكر جيش اسامة في خارج المدينة المنورة وطلب من ابى بكر ترك جيش اسامة والعودة الى المدينة ويكون عمر بعمله هذا قد خالف أوامر ووصايا الرسول ﷺ في تجهيز جيش اسامة ولم يكتف بذلك بل كان له الدور الفاعل في وضع الخطة السياسية لنشاط قريش في المدينة في بداية رحلته ﷺ الى الرفيق الاعلى ، وقد اشار النبي ﷺ في أواخر ايام حياته الى الفتن والاضطرابات التي ستثيرها مجموعة من الخواص في المدينة ، وما أن توفي النبي ﷺ وعرجت روحه الطاهرة الى الرفيق الاعلى بدأت المرحلة الفعليّة لتنفيذ تلك المؤامرات التي حيكت خلف الستار ضد اهل البيت عليهم السلام فبينما كان الهاشميون وجمع كثير من المؤمنين جالسين حول الجثمان الطاهر للنبي ﷺ ، ذهب عمر وابو عبيدة الجراح الى المسجد لغرض الاتفاق حول موضوع الخلافة فاقترح عمر على ابي عبيدة ان يكون الخليفة بعد النبي ﷺ أبو بكر لأنه يحمل كثير من الصفات التي تؤهله لهذا المنصب ، وعندما سمع الانصار بذلك أسرعوا الى «سقيفة بني ساعدة» لغرض تثبيت أحقيتم بالخلافة والمشاركة في صنع القرار السياسي والتقى (عمر وابو بكر وابو عبيدة) مع الانصار في السقيفة وحدث الجدال فيما بينهم حول أحقيّة كل طرف بالخلافة فقال ابو بكر : (نحن المهاجرين أول الناس اسلاماً ... وأمسهم برسول الله رحماً ... ان العرب لا تدين إلّا لهذا الحي من قريش فلا تنفسوا على اخوانكم المهاجرين ما

فضلهم الله به ...) وعقب عمر على كلام ابي بكر وقال: (من ذا ينازعنا سلطان محمد وامارته ونحن اولياؤه وعشيرته إلّا مدل بباطل أو متجاف لاثم أو متورط في هلكة). ثم بعد ذلك اعلن عمر وابو عبيدة بيعتهم لابي بكر، وحدثت كل تلك الملابسات وبنو هاشم وكثير من الصحابة من المهاجرين والانصار لم يكونوا حاضرين ولم يشتركوا في هذه البيعة المزيفة لانهم كانوا مشغولين بتجهيز الرسول ﷺ، فلما أخبروهم بما جرى في السقيفة احتج بنو هاشم وعدد آخر من الصحابة امثال: سلمان الفارسي، ابوذر الغفاري، عمار بن ياسر، والمقداد ... على تلك المقررات لانهم كانوا يعلمون احقيّة أهل البيت عليهم السلام بهذا الأمر، وعلى اثر ذلك تجمعوا في حي (بني بياضة) لغرض الاعلان عن وصايا رسول الله ﷺ بخصوص خلافة علي عليه السلام، اما الطرف الآخر وهم ابو بكر وجماعته فقد جاؤوا صباح اليوم التالي الى المسجد وجددوا البيعة لابي بكر، وقد جرت كل هذه الاحداث وعلي عليه السلام بعيد عن ساحة الصراع مشغول بتجهيز الرسول ﷺ وبينما كان العباس عم النبي ﷺ وعلي عليه السلام مشغولان بتكفين النبي ﷺ، قال العباس لعلي عليه السلام: (أمدد يدك أبايعك فيقال عم رسول الله بايع ابن عم رسول الله فلا يختلف عليك اثنان ..).

فقال له علي عليه السلام: (يا عم نحن الآن مشغولون بتجهيز الرسول)، وفي مثل تلك اللحظات لم يكن الامام عليه السلام يفكر بالخلافة بقدر ما كان يفكر بتجهيز الرسول ﷺ وتدفينه.

وقد اكثر الرواة الى ان ابا سفيان وقف موقف المتحمس لعلي عليه السلام وأخذ يتهدد ويتوعد ويقول: (والله لاملأنّها عليهم خيلاً ورجالاً) ولم يكن ليخفى على علي عليه السلام ان ذلك كان منه بقصد الوقيعة بين المسلمين واشعال الفتنة ليتاح له

ولامثاله ممن اسرّوا الشرك والنفاق ان يصلوا لاهدافهم المعادية للاسلام . وما أن اكمل علي عليه السلام تجهيز الرسول صلى الله عليه وآله وتكفينه وايداعه في قبره الشريف حتى استعد لشرب كأس المرارة على ايدي بعض الخواص من الذين تحجرت عقولهم واعمى حب الدنيا قلوبهم ، وقد وقف بعض الصحابة الى جانب علي عليه السلام في تلك المحنة ولم يشتركوا في بيعة أبي بكر وبعد مرور عده ايام على تلك البيعة المرتجلة احتج عليه السلام على الانصار بأحقيته بالخلافة وكونه أخو الرسول صلى الله عليه وآله وقد اوصى به في كثير من المواقع وشاركته زوجته فاطمة الزهراء عليها السلام وأخذت تطالب بحق زوجها حتى اثارت النفوس وألهبت المشاعر وندم كثير منهم على موقفهم المتخاذل من علي عليه السلام فاخذوا يتسللون الى دار علي عليه السلام ويتكتلون ضد الحكم القائم ويتداولون فيما يجب ان يكون فأحس أبو بكر وانصاره بالخطر فتشاور مع عمر وابو عبيدة فقال ابو عبيدة له : (للمغيرة بن شعبة رأي في هذا الأمر) فأرسل عليه أبوبكر واحضره وطلب منه المساهمة في حل النزاع الدائر بينه وبين الصحابة الذين رفضوا بيعته فقال له المغيرة : (لابد من ايجاد الفُرقة فيما بينهم حتى تتشتت كلمتهم) ، وفي الواقع لا بد ان نتساءل لماذا لم ينصاع أبو بكر الى الحق وسعى لايجاد التفرقة بين اهل البيت عليهم السلام وبين المؤمنين ؟! والشيء المثير للعجب هو ان المغيرة بن شعبة كان من صحابة الرسول صلى الله عليه وآله ومن الذين سمعوا وصايا رسول الله صلى الله عليه وآله واحاديثه ومن ابرزها حديث الغدير ، ثم سأل أبوبكر المغيرة ثانية وقال : كيف أفرق جمعهم ؟ فقال له المغيرة : ارى ان تلقوا العباس فتطمعوه في ان يكون له في هذا الامر نصيب ، فتقطعوه بذلك عن ابن اخيه علي بن ابي طالب عليه السلام ، فان العباس لوصار معكم كانت الحجة على الناس وهان عليكم أمر علي بن ابي طالب وحده ، وقبل أبوبكر رأيه وذهب الى العباس وبعد مقدمات قال له أبو بكر : جئناك ونحن نريد ان نجعل لك في هذا لامر

نصيباً يكون لك ولعقبك من بعدك . فردّ عليه العباس موبخاً وقال له : ان الله ابتعث محمداً صلى الله عليه وآله نبياً وللمؤمنين ولياً فان كنت برسول الله ﷺ طلبت هذا الامر فحقنا أخذت ، وان كنت بالمؤمنين طلبت فنحن منهم ، ما تقدم رأينا في أمرك ، ولا شوّرنا ، ولا نحب لك ذلك اذ كنا من المؤمنين ، وكنا لك كارهين . فخرج ابو بكر من بيت العباس بن عبد المطلب يائساً ، ولغرض ايجاد التفرقة بين الصحابة الذين يؤيديون اهل البيت عليهم السلام ذهب ابو بكر في اليوم التالي الى بيت علي عليه السلام برفقه عمر وابي عبيدة فوجدوا في بيت الامام عليه السلام مجموعة من كبار الصحابة امثال : سلمان ، عمار ، ابوذر ، المقداد والزبير ... الخ من الذين رفضوا وبشكل قاطع بيعة ابي بكر ، فدخلوا دار الامام عليه السلام وقال ابو بكر : ابن عم الرسول وزوج ابنته يريد ايجاد الفرقة بين صفوت المسلمين . والعجيب من ابي بكر انه يتهم الآخرين بالفرقة وقد تناسى انه اول من شق عصا المسلمين بذهابه للتشاور مع جماعته بأمر الخلافة وسعى لحياكه المؤامرات خلف الاستار .

فقال العباس وقد كان حاضراً في ذلك المجلس : ليس هناك أحد افضل من علي عليه السلام وأجدر بخلافة رسول الله ﷺ . وقال لهم علي عليه السلام : انا احق بهذا الامر ... وانتم اولى بالبيعة لي ... انا اولى برسول الله حياً وميتاً ... فعلام تنازعونا هذا الأمر فقال عمر لعلي عليه السلام : انك لست متروكاً حتى تبايع طوعاً أو كرهاً .

فردّ عليه علي عليه السلام : احلب حلباً لك شطره ، اشدد له اليوم ليرد عليك غداً ... فقام ابو عبيدة الى علي عليه السلام فقال : يا ابن عم لسنا ندفع قرابتك ولا سابقتك ولا علمك ولا نصرتك ولكنّك حدث السن ... وأبو بكر شيخ من مشايخ قومك ، وهو أحمل لثقل هذا الأمر ...

فقال له الامام عليه السلام : انت اعلم ام رسول الله ؟

فقال : حتماً رسول الله اعلم !

فقال له الامام عليه السلام : لقد أمّر رسول الله صلى الله عليه وآله اسامة بن زيد على كبار الصحابة وكان عمره ثمانية عشرة سنة ، فسكت وطأطأ براسه لكنه لم يستسلم للحق .

وهكذا بقي عليه السلام ملازماً لبيته يعاني من العزلة والغربة لا ناصر له سوى فاطمة عليها السلام وبعض الصحابة وقد تكالب عليه الجميع فاصبح بين فريقين الاول متجاهل لحقه والثاني منافق حاسد ، وظل علي وفاطمة عليهما السلام يقصدان بيوت الانصار يسالونهم النصرة فكانوا يقولون لفاطمة عليها السلام : يا بنت رسول الله قد مضت بيعتنا لهذا الرجل ـ يعني ابي بكر ـ ولو أن زوجك وابن عمك سبق الينا قبل ابي بكر ، ما عدلنا به ، فيقول علي عليه السلام لهم : أفكنت ادع رسول الله في بيته لم أدفنه ، واخرج أنازع الناس سلطانه ؟ فقالت فاطمة : ما صنع أبو الحسن إلّا ما كان ينبغي له ، ولقد صنعوا مالله حسيبهم وطالبهم .

نعم لقد ادى عليه السلام واجبه تجاه النبي صلى الله عليه وآله من التجهيز والتغسيل والتدفين لكن الآخرين وللأسف الشديد استغلوا انشغاله فقاموا بالاستيلاء على الخلافة وسرقتها ومنعوا حقه منها وقد كان لذلك العمل الجبان اثاراً سلبيّة ستبقى في سجل التاريخ ما بقي الليل والنهار . وفي هذا المجال ننقل هذا المقطع من احدى خطب نهج البلاغة قال عليه السلام : «.. حتى اذا قبض الله رسوله صلى الله عليه وآله ، رجع قوم على الاعقاب ، وغالتهم السّبل ، واتكلوا على الولائج ، ووصلوا غير الرحم وهجروا السبب الذي أمروا بمودته ، ونقلوا البناء عن رص أساسه ، فبنوه في غير موضعه . معادن كل خطيئة وابواب كل ضارب في غمرة . قد ماروا في الحيرة وذهلوا في السّكرة ...»[1].

---

(١) نهج البلاغة ، صبحي الصالح ، الخطبة ١٥٠ .

لو كان عندي أربعون رجلاً لنهضت بهم !

بعد ان انتهت معركة صفين نظر علي عليه السلام الى مَن تبقى من اصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله الذين بقوا معه وأخذت الأفكار والتكهنات تجول في ذهنه ، كيف انكروا حقه في الخلافة ؟ وكيف تركوه يحترق في هذه الغربة والوحشة ؟ كيف انـقلبت الامور بمجرد رحلة النبي صلى الله عليه وآله ؟ وكيف يكون هو مقابل أحد ابناء الطلقاء الذين عفا عنهم رسول الله صلى الله عليه وآله بعد فتح مكة ؟ !كل هذه الويلات والمصائب حدثت منذ يوم اعرض بعض كبار الصحابة عما أوصى به رسول الله صلى الله عليه وآله يوم الغدير وما حدث بعد هذا اليوم من العجائب والغرائب (في السقيفة) من انتخاب ابي بكر لقد جاءت كل هذه الاحداث كنتيجة لاعـراض بـعض الصـحابه وانسـياقهم وراء الاهـواء والمطامع الدنيويّة ، ولو فرضنا ان هؤلاء لم يقوموا بما قاموا به من تآمـر عـلى الحكم والخلافة لانقاد باقي الصحابة لأمر الرسول صلى الله عليه وآله ولم ينفسح المجال للفتنة ان تقع ، ولكان ذلك تسجيلاً منهم لموقف لا ينساه التاريخ . الم يكن عمر حاضراً في يوم الغدير ؟ الم يكن يعلم بمنزلة أهل البيت عليهم السلام الم يعلم بمنزلة فاطمة عليها السلام ؟ فكيف يسمح لنفسه ان يقف بباب دار علي عليه السلام وينادي : (والذي نفس عمر بيده ليخرجن أو لاحـرقنّه عـلى مـا فـيه) فـقيل لعـمر : ان فـي الدار فـاطمة بـنت رسول الله صلى الله عليه وآله .

فرد عليهم عمر وبدون تحرّج : وليكن فيها فاطمة !

فضرب عمر الباب برجله فكسره ثم دخل ، فارتفع صـوت الزهـراء عليها السلام مستغيثة برسول الله صلى الله عليه وآله : «**يا أبه ، يا رسول الله ! ...**» ، فغضب عليه السلام غضباً شديداً ووضع يده على مقبض سيفه ليلقنهم درساً ثم رفع يده عن سيفه وعاد الهدوء اليه رويداً رويداً وأخذ يناجي روح الرسـول صلى الله عليه وآله ويـقول : «**يـا ابـن أُم ان القـوم**

استضعفوني وكادوا يقتلونني ...» ، ثم نظر الى فاطمة الزهراء ﷺ وقال : «ان اتمّوا اربعين فجاهدهم» .

اذن من حقنا ان نسأل هؤلاء ما هي الاسباب التي جعلتكم تعرضون عن الحق ؟

الشورى التي منحت الحق الى غير أهله

قام عمر بن الخطاب قبل وفاته بتعيين ستة من الصحابة سماهم اصحاب الشورى وهم : علي ﷺ ، عثمان ، سعد بن ابي وقاص ، الزبير ، طلحة بن عبد الله ، وعبد الرحمن بن عوف وقد وضع عمر لهذه المجموعة ضوابط صارمة الزم الجميع التقيد بها ومن جملة تلك الضوابط هي : ان يكون عبد الرحمن بن عوف رئيساً لهذه الشورى وان تجتمع في مكان معين بحراسة خمسين نفراً من الانصار ويقومون بانتخاب واحد من بينهم ولو فرضنا قام خمسة منهم بانتخاب واحد وقام الشخص السادس بمخالفة ذلك فستكون عقوبته القتل ، واذا اصبحوا ثلاثة مقابل اثنان فلا بد من قتل الاثنين ، واذا اصبحوا ثلاثة مقابل ثلاثة فيجب عليهم الخضوع الى تحكيم عبد الله بن عمر وفي حالة عدم الاتفاق على رأيه تكون المجموعة التي فيها عبد الرحمن بن عوف هي الغالبة ويكون حكم المجموعة المقابلة لمجموعة عبد الرحمن القتل المحقق ، وبهذه الطريقة استطاع عمر ان يوحي للجميع بان الخلافة لا بد ان تكون لعثمان ، وفي تحليل لعلي ﷺ لمسرحيّة الشورى التي وضعها عمر قال ﷺ لابن عباس : أولا تعلم ان عبد الرحمن ابن عم سعد بن ابي وقاص وان عثمان صهر عبد الرحمن ؟ قال بلى قال : فان عمر قد علم ان سعد وعبد الرحمن وعثمان لا يختلفون في الرأي ، وانه من بويع منهم كان الاثنان معه ، ولم يبال ان يقتل طلحة اذا قتلني وقتل الزبير ، أمَ والله لئن عاش عمر

لأعرفنّه سوء رأيه فينا قديماً وحديثاً ، ولئن مات ليجمعني وإياه يوم يكون فيه فصل الخطاب .

والعجيب من عمر انه هو نفسه من رواة حديث الغدير ، وهو أوّل من حال بين الرسول ﷺ وبين ان يكتب وصيته في خلافة علي ؑ . وقد كان عمر آخر ايام حياته يكرر هذا القول : لو كان ابو عبيدة حياً لاستخلفته .

بمَنْ أقاتلهم ؟

قام اعضاء الشورى برئاسة عبد الرحمن بن عوف لمدة ثلاثة ايام بمشاورة رؤساء القبائل والاشراف وقادة الجيش واهل الحل والعقد بخصوص أمر الخلافة ثم بعد ذلك اجتمعوا في المسجد صباحاً وبحضور جمع من الانصار والمهاجرين قال عبد الرحمن بن عوف : اني قد نظرت وشاورت الناس ؛ فاذا هم لا يعدلون بعثمان) .

فصاح عمار بن ياسر : (ان اردت ان لا يختلف الناس فبايع علياً ؑ) ثم قال المقداد بن الاسود : (صدق عمار ان بايعت علياً ؑ قلنا سمعاً وطاعة) وفي خلال ذلك قال عبد الله بن ابي سرح (طريد رسول الله) : (ان اردت ان لا يختلف قريش فبايع عثمان) . فاضطرب المجلس فقام لهم عمار بن ياسر وقال : (ايـها الناس ! ان الله اكرمنا بنبيه فانى تصرفون هذا الأمر عن أهل بيت نبيكم ؟) .

ثم قال المقداد : (اني لأعجب من قريش انهم تركوا رجلاً ما أقول ولا اعلم ان أحداً اقضى بالحق ولا اعلم ولا اتقى منه اما والله لو أجد اعواناً عليه لقاتلتهم) ، وفي خلال ذلك صاح عبد الله بن سعد بعمار وقال : لقد عدوت طورك يا بن سميّة ، وما أنت وتأمير قريش لأنفسها .

وقال عمار بن واثلة : كنت في البيت يوم الشورى فسمعت علياً عليه السلام وهو يقول : ... إلّا ان عمر جعلني مع خمسة انا سادسهم لا يعرف عليّ فضل ، ولو أشاء لاحتججت عليهم بما لا يستطيع ـ عربيّهم ولاعجميهم ـ ، المعاهد منهم والمشرك ـ تغيير ذلك ثم قال : نشدتكم بالله أيها النفر ! هل فيكم أحد وحّد الله قبلي ؟ !

قالوا : اللهمّ لا .

قال : نشدتكم بالله هل فيكم أحد له أخ مثل اخي جعفر المزيّن بالجناحين في الجنة يحلّ فيها حيث يشاء غيري ؟ !

قالوا : اللهمّ لا .

قال : نشدتكم بالله هل فيكم أحد له عم مثل عمّي حمزة أسد الله وأسد رسوله وسيد الشهداء غيري ؟ !

قالوا : اللهم لا .

قال : نشدتكم بالله هل فيكم أحد له زوجة مثل زوجتي فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وآله وبضعة منه وسيدة نساء أهل الجنة غيري ؟ !

قالوا : اللهم لا .

قال : نشدتكم بالله هل فيكم أحد له سبطان مثل سبطي الحسن والحسين ابني رسول الله صلى الله عليه وآله وسيدي شباب اهل الجنة غيري ؟!

قالوا : اللهم لا .

قال : نشدتكم بالله هل فيكم احد قدّم بين يدي نجواه صدقة غيري ؟ !

قالوا : لا .

قال : نشدتكم بالله هل فيكم أحد قال فيه رسول الله ﷺ : من كنت مولاه فعلي مولاه ، اللهمّ وال من والاه وعاد من عاداه وانصر من نصره ليبلغ الشاهد الغائب . وبعضهم نقلها : «هل فيكم احد نصّبه رسول الله ﷺ يوم غدير خمّ بأمر الله...»[1].

وفي مقابل تلك الفضائل التي ذكرها وذكّرهم بها الامام عليه السلام لم يستطع عبد الرحمن ان يعترض بشكل علني فالتجأ الى المكر والخداع لانه كان يعلم أفضليّة الامام ومنزلته من رسول الله ﷺ ، ولا يمكن لاحد ان يضع آراءه الشخصيّة مقابل كتاب الله والسنة المطهرة فقال لعلي عليه السلام : عليك عهد الله وميثاقه لتعملنّ بكتاب الله وسنة رسوله ﷺ وسيرة الخليفتين من بعده .

وعندما وضع عبد الرحمن سيرة الشيخين (الخليفتين ابو بكر وعمر) في مقابل كتاب الله وسنة نبيه ﷺ يكون قد أفرغ آخر ما في جُعبته من الحقد على جبهة الحق وأمامها لانه كان يعلم جيداً مدى التزام الامام عليه السلام بالشرع المقدّس[2] وبهذه الخدعة استطاع عبد الرحمن وجماعته من حرف الناس عن محور الحق والعدالة ، وهكذا بقي الامام عليه السلام وحيداً غريباً مغصوباً حقه يكاد قلبه يتقطع مما عاناه من هؤلاء وامثالهم خلال مدة ٣٦ سنة من بعثة النبي الاكرم ﷺ . وما جرى خلالها منذ الحصار في شعب ابي طالب والهجرة وما جرى من مواقفه في بدر وفي غزوة أحد عندما فرّ بعضهم طلباً للسلامة والحصول على الغنائم وخيانتهم

---

(١) حديث علي عليه السلام يوم الشورى مشهور ومعروف ، نقله العلّامة الأميني في المجلد الثاني من كتابه (الغدير) مع شرح واف لاسانيد هذا الحديث من الفريقين .

(٢) لم يرد نصّ في السيرة النبوية يقول بجعل سيرة أبي بكر وعمر مقابل كتاب الله وسنّة نبيه ، ولو فرضنا مطابقة سيرتهما لكتاب الله وسنّة نبيه لم يأت نص على جعل تلك المطابقة وعدم العمل بها لا بجعلها شرطاً من شروط الخلافة .

يوم السقيفة ومخالفتهم الصريحة لوصايا النبي ﷺ إلى تزييفهم الحقائق في يـوم الشورى ، كل تلك الحوادث مرّت على ذهنه الشريف وهو يستطلعها ويتذكرها بحرقة ويعرف جيداً انه تحملها وسكت عـنها حـفاظاً عـلى مـصلحة الاسـلام والمسلمين .

واصر عليه السلام على رفض سيرة الشيخين ورد على عبد الرحمن قـائلاً : (بـل على كتاب الله وسنة رسوله ﷺ واجتهاد رأيي) فعدل عنه الى عثمان فعرض ذلك عليه فقال نعم فقال عبد الرحمن لعلي عليه السلام : يا علي لا تجعلن على نفسك سـبيلاً يعني (القتل) !!

فأحس عليه السلام بالضيق والهم وكأنما تراكمت في صدره جبال من الهم والحزن ولسان حاله يقول : عجيب من هذه الدنيا كيف تعز قوماً وتذل آخرين فما هـو السبب الذي يجعل عبد الرحمن ان يتكلم مع الامـام عليه السلام بـهذه الصـورة وبـهذه اللهجة !! في الحقيقة ان الذي مكّن عبد الرحمن وامثاله ان يقفوا مـع الامـام عليه السلام مواقف مخزية كان بسبب سكوت بعض الصحابة عن اظهار الحق بسبب ركونهم الى الدنيا . بعد ذلك سأل عمار بن ياسر والمقداد الامام عليه السلام عن مدى استعداده لخوض حرب مع هؤلاء فنظر اليهما الامام عليه السلام نظرة عميقة واجاب بحزن : «بمن اقاتلهم» !! .

وهكذا تم ما أرادوه في مسرحيه الشورى في ابعاد الامام علي عن استلام مقاليد الامور تمهيداً لوقوعها بيد عثمان ، بالرغم من ان الجميع كان يعلم بان الحق لمن ومع من ؟ لكن الإقرار يحتاج الى قلوب نظيفة خالية من وساوس الشيطان وتزييناته وللأسف كانوا لا يمتلكون مثل هذه القلوب لان قلوبهم مريضة فزادهم الله مرضاً .

ارجعوني الى المدينة

بعد ان تمت واستتبت الامور لعثمان بدأت مرحلة جديدة من الاختلافات والشقاقات بين افراد الامة وبدأت الافكار الجاهليّة تدب فيما بينهم وتحوّل الدين شيئاً فشيئاً الى بضاعة للكسب والحصول على المنافع الماديّة الدنيوية وقد تنبأ رسول الله ﷺ بهذه الاحداث قبل وفاته عندما كان جالساً يوم من الايام في البيت مع عائشة وبحضور بعض ازواجه فقال : «كأني باحداكن قد نبحها كلاب الحوأب» ثم نظر الى عائشة وقال لها : «وإياك ان تكوني أنت يا حميراء» . واخذت تنظر كل واحدة منهن للاخرى نظره تعجب واستنكار عندما سمعن كلام النبي ﷺ وأخذن يستنكرن تلك المرأة التي تحدث عنها ، وظلت تلك الكلمات منقوشة في ذهن عائشة وبعض نساء النبي ﷺ ولكن هذه الكلمات وبمرور السنين تغطت بشيء من السحاب بسبب الاهمال والنسيان وبعد أن مرت ٢٥ سنة مليئة بحوادث الانتصار والانكسار بدأت بوادر ذلك الكلام بالتحقق عندما مرت قافلة مكونة من ٦٠٠ رجل على مقربة من بيت الله الحرام متجهة الى البصرة وفيها عائشة زوج الرسول ﷺ وفي الطريق انتهوا الى ماء الحوأب فنبحها كلاب الحوأب فقالت عائشة : ما أراني إلا راجعة ؛ فقيل لها : ولِمَ ذلك ؟

فقالت : لاني سمعت رسول الله ﷺ وهو يقول كاني بامرأة من نسائي تنبح عليها كلاب الحؤاب فاتقي الله ان تكوني انت ، ونزل القوم هنالك ، فلما اصبحا إذا عبد الله بن الزبير وقد أتى بخمسين رجلاً يشهدون عندها ان هذا الماء ليس بماء الحوأب وانهم قد جازوا ماء الحوأب بليل ، فكانت هذه الشهادة أول شهادة زور شهد بها في الاسلام ، وتحرك الجيش نحو البصرة بوجود عائشة ووقعت تلك الفتنة الكبرى التي حذّر الرسول زوجته منها منذ سنين ليست ببعيدة . ومن الحق

ان نقول لو أن الخواص الذين رافقوا عائشة انصاعوا للحق عند وصولهم الى «الحوأب» ورجعوا مع زوج النبي ﷺ الى المدينة في ظل ولي أمرهم علي عليه السلام لكانوا قد سجلوا موقفاً تاريخياً لا يمكن أن ينسى .

الخواص الواعون الصامتون

لقد حارب علي عليه السلام خلال فترة حكمه ثلاث مجاميع من المعارضين لحكمه وكما عرفناهم تاريخياً هم :القاسطين والناكثين والمارقين .

فالقاسطون : الذين نقضوا العهود التي قطعوها للامام عليه السلام بعد البيعة لعدم حصولهم على المناصب التي كانوا يسعون للحصول عليها من حكومة الامام عليه السلام ، وفي النهاية ذهبوا الى مكة برفقه عائشة ومن هناك توجهوا الى البصرة ونتيجة لما قاموا به من هتك للحرمات هناك حاربهم الامام عليه السلام وهزمهم في الواقعة المشهورة بـ(حرب الجمل) .

والناكثون : هم المتمردون في الشام برئاسه معاوية الذي ولّاه عمر قيادة الجيش ثم أخذ بتقوية مركزة هناك في زمن الخليفة الثالث عثمان وبعد وفاته بقي معاوية متمسكاً بالشام بخلاف كل الطلبات التي وجهت اليه بترك الشام والتوجه إلى مقر الخلافة ولم يكتف بذلك بل أخذ يعد العِدة لاسقاط الحكومة الاسلامية في زمن علي عليه السلام مما اضطر الامام الى محاربته في «صفين» .

امّا المجموعة الثالثة التي عادت الامام عليه السلام فهي الخوارج الذين يطلق عليهم اسم (المارقين) وهم الذين خرجوا عن الامام عليه السلام بعد التحكيم الذي قام به أبو موسى الاشعري وعمرو بن العاص بعد توقف الحرب بين جيش الامام وجيش معاوية ، مستندين في ذلك على الحجج الواهية وقد تحدث علي عليه السلام

للناس عما تنبأ به رسول الله ﷺ وقال لهم : قال رسول الله ﷺ لي : «**ستقاتل الناكثين والقاسطين والمارقين**» .

بالاضافة الى تلك المجاميع الثلاث وما عاناه منها علي عليه السلام كانت هناك مجموعة رابعة وهي من خواص المسلمين وهم الذين كانوا على يقين من ان علياً عليه السلام مع الحق واعدائه مع الباطل لكنهم مع الاسف الشديد التزموا الصمت ولم ينصروا الامام وقد نعتهم التاريخ باسم (القاعدين) وكان مركز ثقلهم في المدينة المنورة التي كانت مليئة بالفتن والاضطرابات،وقد بيّن عليه السلام في بداية خلافته تلك الاوضاع في احدى كلماته وقال ستكون حبلى بالاحداث . وبعض من القاعدين امتنعوا عن بيعة الامام عليه السلام وبعض منهم اشترطوا في بيعتهم للامام ان تكون متوقفة على بيعة جميع المسلمين ، وبعضهم بايع الامام في بداية خلافته لكنهم لم يشتركوا في حرب ضد الامام عليه السلام وكما سماهم الامام بـ(جليس الدار) .

وجميع هؤلاء كانوا من اسباب الفتنة لانهم اصبحوا على الدوام يمنعون الناس من الالتفاف حول قيادة الامام عليه السلام ، وكان على رأس هذه المجموعة سعد بن ابي وقاص ، أبو سعيد الخدري ، ابو موسى الاشعري ، عبد الله بن عمر ، ومحمد بن مسلمة ، أبو مسعود الانصاري ، ومن الملفت للنظر ان سعد بن ابي وقاص وابو سعيد الخدري كانا من الذين رووا الاحاديث والروايات التي تتكلم في شأن آية التطهير التي نزلت بحق الرسول ﷺ ، وعلي وفاطمة ، والحسن ، والحسين عليهم السلام ، والغريب انهم يعتبرون علياً عليه السلام مثيراً للفتن والحروب وفي نفس الوقت يروون احاديث في شأنه عليه السلام وانه مطهّر من الرجس ومصون عن الخطأ والزلل، مضاف الى ذلك ان اغلبهم من الذين شهدوا يوم الغدير ومن رواة حديثه.

وبعد ان قام معاوية باغتصاب الخلافة ذهب الى المدينة المنورة وقد رآه

سعد بن ابي وقاص في احدى المجالس يطعن بالامام عليه السلام فأخذ سعد يذكر فضائل الامام علي عليه السلام فلعنه معاوية وقال له (لو كنت أعلم من فضل علي ما علمت لما تخلّيت عنه) ، ألم تشهد هذه المجموعة من الخواص تلك البيعة الحرة التي قام بها طلحة والزبير لعلي عليه السلام ومن ثم قيامهما بنقض تلك البيعة بشكل علني ؟ !

ألم يعلموا بان معاوية كان مدّعياً للخلافة ؟ !

ألم يعملوا بانهم من معارضي الخليفة الثالث عثمان ؟!

ألم يعلموا قدر معاوية وعائلته وما فعلوه من فضائح في تاريخ الاسلام ؟!

ألم يعلموا بان معاوية وباقي طلقاء فتح مكة هم ليسوا بأهل لقيادة المجتمع الاسلامي ؟!

ألم يكونوا من الذين شهدوا ما قاله رسول الله صلى الله عليه وآله يوم الغدير عندما قال: «**اللهم عاد من عاداه ووال من والاه**» ؟!

نعم ، انهم يعرفون علي عليه السلام ومنزلته وفضائله في القرآن وفي احاديث الرسول صلى الله عليه وآله لكن حب الدنيا وزخارفها حال بينهم وبين الاعتراف بالحقيقة . وقد التفت معاوية الى نقطة مهمة وهي وجود بعض الصحابة في المدينة ممن اعرضوا عن الامام عليه السلام وتخلوا عنه فقرر استمالتهم الى جانبه فاخذ يكتب الرسائل اليهم ومن جملة اولئك سعد بن ابي وقاص الذي وعده بالخلافة فاجاب سعد بن ابي وقاص على تلك الرسالة : (... غير ان علياً قد كان فيه ما فينا ولم يك فينا ما فيه وهذا أمر قد كرهنا أوله وكرهنا آخره ، وامّا طلحة والزبير فلو لزما بيوتهما كان خيراً لهما ...) .

ورفض بذلك دعوة معاوية له ، ثم كتب معاوية الى عبد الله بن عمر ودعاه

للمجيء الى الشام وواعده بالخلافة فكتب اليه عبد الله بن عمر : (ما أنا كعلي في الايمان والهجرة ومكانه من رسول الله ونكايته بالمشركين ، فاغن عنّا نفسك) .

أما محمد بن مسلمة فقد رد على الرسالة التي ارسلها له معاوية بقوله : (... لعمري ما طلبت إلّا الدنيا ولا اتّبعت إلا الهوى فان تنصر عثمان ميتاً فقد خذلته حياً فما اخرجني الله من نعمة ولا صيّرني الى شك ...) .

وبهذا الشكل ألا يمكن ان نقول بأن القاعدين على الرغم من يقينهم بأحقيّة الامام عليه السلام ؟ لكنهم لم يمدوا له يد البيعة وفي أشد أيام الصراع بين الامام والفئة الباغية كان حضورهم في الساحة واجباً ولكن مع الاسف وجدناهم التزموا الصمت واصبح كل واحد منهم جليس داره ولم يكتفوا بذلك بل أخذوا يمنعون الناس من الالتفاف حول قيادة الامام عليه السلام وصاروا حجر عثرة في طريق الاصلاحات التي يقوم بها الامام ، وقد ظلت ، تلك المواقف السلبية تجاه حكومة الامام قائمة في ذاكرة التاريخ ، ولو سألهم سائل عن سبب قعودهم يقولون كن عبد الله المقتول ولا تكن عبد الله القاتل ومعنى ذلك انهم يدعون الى ترك الجهاد الواجب والالتجاء الى الصلح ومداراة الخواطر في دفع اخطار الفتنة ، وقد ظلت هذه الشبهة التي احدثها هؤلاء معلّقة باذهان القبائل في الحجاز وأمتدت الى اطراف الدولة الاسلامية في العصور القادمة .

عودة متأخرة وعقيمة

عند استلام علي عليه السلام للخلافة بعدمقتل عثمان طلب طلحة والزبير من الامام ان يوليهما البصرة والكوفة لكن الامام لم يستجب الى طلبهما وولى عليهما اثنين آخرين ، وبعد بضعة أيام من ذلك ذهب طلحة والزبير الى مكة المكرمة بحجة اداء

العمرة وقد التحق بهما مجموعة من بني أمية برئاسة مروان بن الحكم وقد سبقتهم عائشة بالوصول الى هناك قبل احداث مقتل عثمان . وقد التحق بهؤلاء عبد الله بن عامر الذي كان والياً على البصرة ويعلي بن منية الذى كان والياً على اليمن من قبل عثمان ، وبعد ان تم اللقاء بين الجميع في مكة اتفقوا على التوجه الى البصرة بستمئة محارب وبدعم واسناد الأموال التي قام بسرقتها يعلى بن منية من بيت مال المسلمين ايام عثمان ، وعند وصولهم الى البصرة تصدى لهم والي المدينة عثمان بن حنيف وبعد مواجهة قليلة تم توقيع الهدنة وفي ليلة مظلمة ذات رياح اتى طلحة والزبير واصحابهما دار الاماره في البصرة وكان عثمان بن حنيف غافلاً عنهم وأسروا خمسين رجلاً من حراس بيت المال وبعد ان قيدوهم بالسلاسل قاموا بقتلهم وتعتبر هذه الحادثة أول جريمة قتل في الاسلام ثم هجموا على عثمان بن حنيف فأوثقوه رباطاً وعمدوا الى لحيته فنتفوها حتى لم يبق فيها شيء ولا شعره واحدة ثم ارسلوه الى المدينة ولما وصل اليها كان الامام عليه السلام قد أعد جيشاً للتوجه الى البصرة فولاه على المدينة وتوجه بالجيش نحو البصرة وعندما وصل اليها حاول أول الأمر اقناع طلحة والزبير وحذروهما من عواقب هذا التمرد فرفضوا الانصياع لنصائحه وأصروا على عنادهم ولما يئس أمير المومنين عليه السلام من التوصل الى حل يحقن به دماء المسلمين عن طريق الحجة والمناظرة أمر أحد رجاله ان يخرج بين الصفين وبيده مصحف يدعوهم الى العودة الى حكم القرآن وقد اخبره الامام بانه سيقتل شهيداً فلم يتردد ومضى بيده المصحف حتى اذا بلغ ما بين الصفين رفعه بكلتي يديه ووقف باتجاه جيش المتمردين ودعاهم الى حكم القرآن فكان جوابهم ان رموه بالسهام من كل جانب حتى وقع شهيداً ثم استشهد اثنان من ميمنة جيش الامام وميسرته ، ثم تقدم لهم عمار بن ياسر وناداهم لكن دون جدوى .

فقام علي عليه السلام في الناس خطيباً وبعد أن وجد الامام ان الحجة قد القيت على الصحابة خرج بنفسه حاسراً على بغلة رسول الله صلى الله عليه وآله لا سلاح عليه فنادى : يا زبير اخرج اليّ ، فخرج اليه الزبير شاكاً في سلاحه ، .. فقال له علي عليه السلام : ويحك يا زبير ! ما الذي اخرجك ؟

قال : دم عثمان .

قال : قتل الله اولانا بدم عثمان ، امّا تذكر يوم لقيت رسول الله صلى الله عليه وآله في «بني بياضة» وهو راكب حماره ، فضحك اليّ رسول الله ، وضحكت اليه ، وانت معه ، فقلت انت : يا رسول الله ما يدع عليّ زَهوه.

فقال لك : «ليس به زهو ، اتحبه يا زبير» .

فقلت : اني والله لأحبه .

فقال لك : «انك والله ستقاتله وانت له ظالم» .

فقال الزبير : استغفر الله ، والله لو ذكرتها ما خرجت .

فقال له : يا زبير ارجع .

فقال : وكيف ارجع الآن وقد التفت حلقتنا البطان ؟ هذا والله العار الذي لا يغسل !

فقال : يا زبير ارجع بالعار قبل أن تجمع العار والنار .

فرجع الزبير وهو يردد ابياتاً من الشعر تدل على ندامته ... فقال له ابنه عبدالله : اين تذهب وتدعنا ؟

فقال : يا بني اذكرني ابو الحسن بأمر كنت قد أنسيته .

فقال : لا والله ، ولكنك فررت من سيوف بني عبدالمطلب ، فأنها طوال حداد ، تحملها فتية انجاد .

قال : لا والله ، ولكني ذكرت ما أنسانيه الدهر ، فاخترت العار على النار ...

ثم نادى علي عليه السلام طلحة حين رجع الزبير : يا أبا محمد ، ما الذي اخرجك ؟

قال : الطلب بدم عثمان !

قال علي عليه السلام : قتل الله اولانا بدم عثمان ، أما سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله يقول : «**اللهم وال من والاه ، وعاد من عاداه**» وانت من بايعني ثم نكث وقد قال الله عزّ وجلّ : ﴿**ومن نكث فانّما ينكث على نفسه**﴾ ؟

فقال : استغفر الله ثم رجع ، فقال مروان بن الحكم : رجع الزبير ويرجع طلحة ... فرماه في أكحله فقتله .

وهكذا كانت نهاية هذين الصحابيين الذين كانا لهما قصب السبق في الهجرة ايام رسول الله صلى الله عليه وآله حتى حصل طلحة على لقب (طلحة الخير) والزبير (سيف الاسلام) لكن سوء العاقبة ومصارع السوء اوصلتهما الى هذه النهاية فاصبحا عبرة للمعتبرين ، فقد كان الزبير من اصحاب الرسول وابن عمة أمير المؤمنين صلى الله عليه وآله وكان كذلك ممن بايع علي عليه السلام ودافع عنه وتحصن في بيته ضد أبي بكر وعمر .

وقال الامام عليه السلام في سيفه : «**سيف طالما جلا الكرب عن وجه رسول الله صلى الله عليه وآله ، لكنه الحيْنُ ومصارع السوء**» .

ولنستمع الى ما كتبه المؤرخ المشهور ابو الحسن المسعودي في كتابه مروج الذهب :

«وفي أيام اقتنى جماعة من الصحابة الضيّاع والدور : منهم الزبير بن العوام بنى داره بالبصرة وهي المعروفة في هذا الوقت ـ وهو سنة اثنتين وثلاثين وثلثمائة ـ (سنة تأليف مروج الذهب) ، تنزلها التجار وأرباب الاموال واصحاب الجهاز من البحريين وغيرهم ، وابتنى ايضاً دوراً بمصر والكوفة والاسكندرية ، وما ذكرنا من دوره و ضياعه فمعلوم غير مجهول الى هذه الغاية ، وبلغ مال الزبير بعد وفاته خمسين الف دينار ، وخلف الزبير الف فرس ، والف عبد وأمه ، وخططاً بحيث ذكرنا من الامصار . وكذلك طلحة بن عبيدالله التيمي : ابتنى داره بالكوفة المشهورة به هذا الوقت ، المعروفة بالكناسة بدارالطلحيين ، وكان غلته من العراق كل يوم الف دينار ، وقيل اكثر من ذلك ، وبناحية الشرارة أكثر ما ذكرنا وشيد داره بالمدينة وبناها بالآجر والجصّ والساج»[1] .

هل يمكن القول بأن تعلق هؤلاء الخواص بالدنيا وزخارفها والابتعاد عن البساطة في العيش هو الذي ادى بهولاء الى السقوط في حبائل الشيطان ؟ لقد كان لهؤلاء الخواص شرف المشاركة بالجهاد والتضحية والفداء مع رسول الله ﷺ وكانوا على علم بفضل علي عليه السلام واحقيّته بالخلافة لانهم سمعوا بآذانهم كلام النبي ﷺ في شانه اذن فما الذي حدث ؟! هل غرّهم الجهاد الاصغر (الحرب) وما يترتب عليه من مغانم دنيوية ؟ الجواب : نعم ، انه هوى النفس الذي يدفع الى الفتن ولهذا نجده ﷺ عندما عاد من احدى غزواته قال لاصحابه عليكم بالجهاد الاكبر فقالوا وما الجهاد الاكبر فقال جهاد النفس ، وهولاء فشلوا للاسف الشديد فى ميدان جهاد النفس وخسروا المعركة مع النفس وذلك هو الخسران المبين .

---

(١) مروج الذهب للمسعودي ج ١ ، ٦٩٠ ، ابو القاسم باينده من منشورات دار العلم والثقافة .

اصلاح شيء من الدنيا بفساد كبير في الدين

ان عمرو بن العاص بن وائل بن سهم هو من قبيلة بني سهم واستناداً الى ما نقله الزمخشري فان أمه كانت جارية عند قبيلة عنزة وقد أسرت في أحدى الغزوات وأخذت الى مكة فاشتراها عبد الله بن جدعان التيمي وكانت من النساء الزانيات وقد زنى بها في ليلة واحدة كلّ من ابي لهب ، أمية بن خلف ، هشام ، ابي سفيان ، والعاص بن وائل فحملت وولدت عمرو فتنازع الجميع فيما بينهم كل واحد منهم يدعي بان عمرو ابنه وفي الختام احتكموا الى أمه فقالت لهم : انه ابن العاص وقد كان حملي منه ، والسبب في ذلك هو ان العاص بن وائل كان قد اعطاها اجراً اكثر من جماعته ؟!

وعندما بعث النبي ﷺ كان عمرو بن العاص لا يزال فتى أما أبوه العاص فقد كان من الذين يستخفون ويستهزئون بالنبي ﷺ حتى نزلت له الآية الكريمة ﴿**ان شانئك هو الابتر**﴾ فاصبح الابتر عند قريش لقباً له .

وعندما هاجر المسلمون الهجرة الاولى الى بلاد الحبشة كان عمرو بن العاص من الذين ذهبوا الى النجاشي ملك الحبشة وحاول بشتى الطرق اقناع الملك بارجاعهم الى الحجاز لكن بحمد الله باءت تلك المساعي بالفشل ومن مواقفه الاخرى ضد النبي ﷺ قيامه برمي الحجارة صوب عائلة النبي ﷺ وعلى اثر ذلك اسقطت زينب بنت النبي ﷺ جنينها . وبقي عمرو بن العاص حتى زمان هجرة الرسول ﷺ يهجو النبي الاكرم باشعاره ويقوم بجمع الاطفال في مكة ويحرضهم على قراءة الاشعار خلف الرسول ﷺ عندما يمر في الطرقات ، وفي ذات مرة ذهب ﷺ من شدة غضبه الى مكان حجر اسماعيل ودعا الله سبحانه أن يلعن عمرو بن العاص بقدر ما هجاه وآذاه .

ولما انتشر الاسلام في بلاد الحجاز وأحس عمرو بن العاص ان لا مناص من الدخول في‌الاسلام جاء الى المدينة المنورة واعلن اسلامه بعد صلح الحديبية.

وكان معاوية قد أوعده ـ في زمن خلافة امير المؤمنين عليه السلام ـ بامارة بلاد مصر وعلى أثر ذلك وفي سبيل الحصول على المطامع الدنيوية وقف مع معاوية ضد الامام، قال الزبير من بكار: في يوم من الايام جلس ابن العاص عند معاوية وقال (الا تبعث الى الحسن بن علي فتحضره فقد أحيا سيرة أبيه ... وسببناه وسببنا أباه، وصغّرنا بقدره وقدر أبيه وقعدنا لذلك حتى صدق لك فيه) فقبل معاوية اقتراح عمرو بن العاص فبعث الى الامام الحسن عليه السلام فلما اتى مجلسهم أخذوا يلعنون امير المؤمنين عليه السلام بحضوره فأخذ الامام يرد على كل واحد منهم حتى اذا وصل الدور الى عمرو بن العاص رد عليه الحسن عليه السلام: «واما انت يا عمرو بن العاص الشاني اللعين الابتر ... وانك ولدت على فراش مشترك فتحاكمت فيك رجال قريش ... فغلبهم عليك من بين قريش ألأمهم حسباً، واخبثهم منصباً، واعظمهم بغية ... وقال ابوك: ان محمداً رجل ابتر لا ولد له ... فأنزل الله ﴿**ان شانئك هو الابتر**﴾ ... ثم كنت في اصحاب السفينة الذين أتوا النجاشي ... فحاق المكر السيء بك ... واكذب احدوثتك وجعل كلمة الذين كفروا السفلى، وكلمة الله هي العليا».

وقد تولى عمرو بن العاص مصر الى آخر ايام حياته طبقاً للاتفاق الذي تم بينه وبين معاوية، وفي أواخر عمره ندم كثيراً على ما قام به من اعمال ونقل الشافعي لنا هذه المحاورة التي جرت بينه وبين عبد الله بن عباس قبل وفاته عندما ذهب للقائه ابن عباس وسأله: كيف أصبحت يا عمرو؟

فأجابه : أصبحت وقد أصلحت القليل من دنياي وأفسدت الكثير من ديني ولو أن الطلب اليوم ينفعني لطلبت ولو استطعت الفرار لفررت ، مثلي كمثل من يصعد إلى السماء ولا يستطيع الرقي فيها فهو معلق بين السماء والأرض لا يستطيع الصعود ولا يقوى على النزول .

عمرو بن العاص باع دينه بدنياه

اسرع عمرو بن العاص نحو الشام حيث القصر الاخضر وهو قصر معاوية الذي كان يضاهي قصر كسرى الاسطوري ، ووصل الى دمشق ليحقق أحلامه في الحصول على المال والسلطان من أميرها العنيد معاوية وما أن حل هناك بدأ باعلان مخالفته ومعارضته لعلي عليه السلام والسائرين على نهجه وفي هذه الاثناء أرسل علي عليه السلام رسالة بيد جرير بن عبد الله الى معاوية جاء فيها (اما بعد فقد لزمك ومن قبلك من المسلمين بيعتي وانا بالمدينة وانتم بالشام لانه بايعني الذين بايعوا ، أبا بكر وعمر وعثمان .. فليس للشاهد ان يختار ولا للغائب ان يرد فادخل فيما دخل فيه المهاجرون والانصار وقد اكثرت في قتلة عثمان فادخل فيما دخل فيه الناس ثم حاكم القوم اليّ احملك وأياهم على ما في كتاب الله وسنة نبيه واعلم انك من الطلقاء الذين لا تحلّ لهم الخلافة ، ولا تعرض فيهم الشورى ...)[1].

وخلاصه الرسالة التي حملها جرير هي : منع انتشار الفتنة وتثبيت الحق والتهيؤ لنشر مفاهيم الاسلام الاصيل في انحاء المعمورة ، ولما وصل جرير الى

---

(١) في بداية مجيء الامام علي عليه السلام الى الكوفة كان جرير حاكماً على همدان فقام الامام بعزله عنها واستدعاه الى مركز الخلافة وقبل ذلك وعاد الى جانب الامام طائعاً لأوامره ثم بعد ذلك اقترح جرير على الامام عليه السلام ان يذهب الى الشام ويتكلم مع معاوية لعله ينصاع الى طريق الحق والهداية التي لم يدخلها آل ابي سفيان يوماً ما !

باب الشام في دمشق قام بتسليم رسالته الى أميرهـا وفي صباح اليوم التالي دخل على معاوية وأخذ يبلغه بمضامينها فرد عليه معاوية (يا جرير، انها ليست بخلسة، وانه أمر له ما بعده، فابلغني ريقي حتى انظر).

والمهلة التي طلبها معاويةَ منه ليست لغرض دراسه مضمون الرسالة التـي بعث بها الامام عليه السلام وانما لغرض التشاور مع أهل الغدر والمكر فاستدعى معاوية اخاه عتبة وشاوره في أمر الرسالة فقال له عتبة (اجتمعنّ على هذا الأمر بعمرو بن العاص واثمن له بدينه فانّه من قد عرفت، وقد اعتزل أمر عثمان في حياته وهو لامرك أشدّ اعتزالاً إن ير فرصة».

واسرع معاوية بارسال رسالة الى عمرو بن العاص الذي اختار من فلسطين سكناً له بعد ان قام عثمان بعزله عن مصر وذلك لغرض الوصول الى مخرج لهذه المشكلة وجاء في تلك الرسالة (... وقدم علينا جرير بن عبد الله في بيعة علي، وقد حبست نفسي عليك حتى تأتيني. أقبل اذاكرك امراً) وعندما استلم عـمرو الرسالة فكّر ملياً بها، وقد كان على يقين من سلامة دينه بوقوفه مع علي عليه السلام، امّا الدنيا التي فقدها بعد عزلة عن ولاية مصر فيمكنه استعادتها بالوقوف مع معاوية، فاستشار ابنيه عبد الله ومحمداً، فقال عبد الله: (ارى ان نبي الله صلى الله عليه وآله قبض وهو عنك راض والخليفتان من بعده، وقتل عثمان وانت عنه غائب، فَقِر في مـنزلك فلست مجعولاً خليفة، ولا تريد أن تكون حاشية لمعاوية على دنيا قليلة، أو شك ان تهلِك فتشقى فيها).

وقد وضّح عبد الله الواقع الذي يعيشه أبوه عمرو بن العاص لكن استغراقه باحلامه في الحصول على مصر منعه من الاصغاء الى كلامه فلم يقنع فالتفت الى جانب اخيه محمد وقال له ما هو رأيك؟

فقال محمد لأبيه : (ارى انك شيخ قريش وصاحب أمرها ، وان تصرّم هذا الامر وانت فيه خامل تصاغر امرك ، فالحق بجماعة اهل الشام فكن يداً من اياديها ، واطلب بدم عثمان ، فانك قد استنمت فيه الى بني امية) .

فاضطربت الافكار في ذهن عمرو واصبح بين أمرين ، بين وعود معاوية له بالسلطان والمال وبين سوء العاقبة التي ستحل به في بيع دينه بدنياه ، وكان وردان غلام عمرو يلاحظ الموقف على بعد فتقدم نحوه وقال (خلطت ابا عبد الله) . فرد عليه عمرو موبخاً : (ويحك) ولم يبال وردان بذلك واستمر بالقول (اما انك ان شئت انباتك بما في نفسك ... اعتركت الدنيا والآخرة على قلبك ... فقلت علي معه الآخرة في غير دنيا وفي الآخرة عوض الدنيا ، ومعاوية معه الدنيا بغير آخرة ، وليس في الدنيا عوض من الآخرة ، فانت واقف بينهما . قال عمرو : فانك والله ما أخطأت فما ترى يا وردان ؟ قال : ارى ان تقيم في بيتك فان ظهر اهل الدين عشت عفو دينهم وان ظهر أهل الدنيا لم يستغنوا عنك).

لم يتأثر عمرو بن العاص بكلام غلامه وردان لان حب الدنيا والسلطان قد اعشى بصره عن رؤية الحق فاسرع نحو الشام حباً بالمطامع التي كان يحلم بها فلما وصل الى دمشق دار بينه وبين معاوية تبادل في وجهات النظر وتبادلا فيما بينهما خبرات المكر والخداع التي اكتسبها كل منهما وبعد ان طلب معاوية من عمرو التهيؤ لجهاد علي عليه السلام رد عمرو بصراحة (والله يا معاوية ... مالك هجرته ولا سابقته ولا صحبته ولا جهاده ولا فقهه وعلمه .. والله ان له مع ذلك حدّاً وجدّاً وحظاً وحظوة وبلاءً من الله حسناً ، فما تجعل لي ان شايعتك على حربه وانت تعلم ما فيه من الغرر والخطر ؟ فقال له معاوية : حكمك . فقال عمرو : مصر طعمة . فتلكأ عليه معاوية ثم قال له : يا ابا عبد الله اني اكره أن يتحدث العرب عنك إنّما

دخلت في هذا الأمر لغرض الدنيا فقال عمرو : دعني عنك فقال له معاوية : اني لو شئت ان أمنيك واخدعك لفعلت فقال عمرو : لا لعمر الله ما مثلي يُخدع لأنا اكيس من ذلك فقال له معاوية : ادنُ مني برأسك أسارك . فدنامنه عمرو يسارّه ، فعضّ معاوية أذنه وقال : هذه خدعة ، هل ترى في بيتك أحداً غيري وغيرك ... فاعطاه مصراً .

فقال معاوية لعمرو : طرقتنا في هذه الايام ثلاثة أمور ، ليس فيها ورد ولا صدر .

فقال عمرو : ما هن ؟!

فقال معاوية : أما أولهن فان محمد بن حذيفة كسر السجن وهرب الى مصر فيمن كان معه من اصحابه وهو اعدى الناس لنا وامّا الثانية : فان قيصر الروم قد جمع الجنود ليخرج الينا ليحاربنا على الشام واما الثالثة : فان جريراً قدم رسولاً لعلي بن ابي طالب يدعوننا الى البيعة له أو ايذان بحرب .

فقال له عمرو : أما ابن حذيفة فما يغمك من خروجه من سجنه في اصحابه فارسل في طلبه الخيل فان قدرت عليه فذاك وان لم تقدر عليه لم يضرّك . وامّا القيصر فاكتب اليه تعلمه انك ترد عليه جميع من في يديك من أسرى الروم ، وتسأله المصالحة . وامّا علي ارى فيه خيراً ، اتاك في هذه البيعة خير أهل العراق ومن عند خير الناس في انفس الناس ، ودعواك اهل الشام الى رد هذه البيعة خطر شديد ورأس اهل الشام شرحبيل بن السمط الكندي ، وهو عدو لجرير المرسَل اليك فارسل اليه ووطن له ثقاتك فليفشوا في الناس أن علياً قتل عثمان ، وليكونوا اهل الرضا عند شرحبيل فانّها كلمة جامعة لك أهل الشام على ما تحب وان تعلقت بقلب شرحبيل لم تخرج منه بشيء ابداً . فكتب الى شرحبيل ... فلما قدم كتاب

معاوية على شرجبيل وهو بـ(حمص) ... فسار الى دمشق ... ودخل على معاوية فقال له : يا شرجبيل ان جرير يدعونا الى بيعة عليّ وعلي خير الناس لو لا انه قتل عثمان بن عفان وقد حبست نفسي عليك ...

فقال شرحبيل : اخرج فأنظر فخرج فلقيه الموطؤن له ، فكلّهم يـخبره ان عليا قتل عثمان . فخرج مغضباً الى معاوية فقال : يا معاوية أبى الناس إلا أن علياً قتل عثمان ، ووالله لئن بايعت له لنخرجنك من الشام أو نقتلنك .

قال معاوية : ما كنت لاخالف عليكم ، وما أنا إلّا رجل من أهل الشام .

فقال شرحبيل : فردّ هذا الرجل (يعني جرير) الى صـاحبه (يـعني عـلي) اذاً... فلما أخبر معاوية اهل الشام قال معاوية لجرير : يا جرير إلحق بصاحبك وكتب الى علي بالحرب . وهكذا كانت مؤامرة الخواص من طلاب الدنيا الذين قاموا بوضع خطة ماكرة لكسب الرأي العام في الشام واستعدوا لقرع طبول الحرب وفق هذه الخطة المدروسة .

الاشعث بن قيس في بوتقة الاختبار

كان الاشعث بن قيس رئيساً لقبيلة بني كندة ، دخل الاسلام في أواخر حياة النبي ﷺ وبعد وفاته ﷺ قام أبو بكر بارسال جيش لتتبع بعض المشركين مـن قبيلة بني وليعة فدخلوا في قبيلة بنيكندة وطلبوا من رئيسهم الاشعث بن قـيس النجدة فاستجاب لطـلبهم بسـبب ضـعف ايـمانه مـتناسياً العـهود التـي قـطعها للرسول ﷺ وقال لهم (لا أنصركم حتى تملكوُني عليكم) فملكوه وتوجوه ولما أحس بالقدرة والعظمة أخذه العجب والخيلاء فأعدّ جيشاً وقادة لمحاربة جيش الاسلام وعندما التقى جيشه مع جيش المسلمين سلّم نـفسه الى قـائد الجـيش

الاسلامي وطلب الامان مع عشرة آخرين فحملوه الى ابي بكر موثقاً بالحديد مع العشرة ، فعفا عنه وعنهم .

وقد ندم ابو بكر قبل وفاته على ذلك الامان الذي اعطاه للاشعث بن قيس ، واشترك الاشعث أيام الخلفاء الثلاثة في الفتوحات الاسلامية وتولى اذربايجان وأرمينية أيام الخليفة الثالث عثمان ، وعندما تولى علي عليه السلام الخلافة قام بعزله واستدعاه الى مقر الخلافة ، وفي بداية الأمر اراد الالتحاق بمعاوية ثم تذكر ارتداده بعد وفاة الرسول صلى الله عليه وآله فلم يذهب الى الشام وفضّل نهج النفاق والخداع فعاد الى علي عليه السلام واصبح ضمن جيشه واستلم بعض المناصب وفعلاً اثبتت الايام القليلة القادمة قيامه باعمال يمكن أن نقول بانها غيّرت مجريات الامور وفي معركة صفين كان له دور في تحريض الناس ضد الامام عليه السلام وبعمله هذا أجبر الامام على ايقاف الحرب وفي قضية تعيين ممثل من جهة جيش الامام عليه السلام ضم رأيه مع رأي الذين أصروا على تمثيل ابي موسى الاشعري وقد اعتبر الامام عليه السلام فشل حرب صفين بسبب مؤامرة التحكيم التي شارك بها الاشعث بن قيس بشكل مباشر .

ومن مواقفه المشينة الاخرى هي الدور النفاقي الذي لعبه في احباط عزائم الجنود عندما أراد الامام تعبئتهم في معسكر النخيلة لغرض العودة بهم الى الشام لصد اعتداءات جيش معاوية على الدولة الاسلامية .

وفي هذا الصدد لا بد من ذكر المواقف الخيانية التي وقفهاابنه محمد بن الاشعث بمساهمته في جلب مسلم بن عقيل وهاني بن عروة الى قصر عبيدالله بن زياد ،امّا بنته جعدة بنت الاشعث فدورها معروف بسمِّ الامام الحسن عليه السلام باشراف معاوية حتى مضى عليه السلام مسموماً شهيداً .

للحرب منطقها الخاص بها ، ومنطقة الحرب هو الدم والشهادة والاسر ، والبعد عن الراحة والامن ، هكذا يجب ان تكون حرب صفين لانها حرب كباقي الحروب وقد دامت هذه الحرب شهوراً وذهب ضحيتها اكثر من مائة الف من المسلمين الذين غررّ بهم ابن هند وابن العاص حتى أوردهم ذلك المورد السيء ، وشيئاً فشيئاً أخذ بعض ممن كانوا في جيش معاوية يفهمون الاحداث واخذوا يتحسسون النوايا الخبيثة لقادة جيش الشام ، وعندما تقدم مالك الاشتر وكان قائداً لميمنة جيش الامام نحو خطوط جيش العدو وأخذ يسحق المدافعين عن معاوية وكادت المعركة أن تنتهي لصالح جيش أمير المؤمنين عليه السلام وفي خلال تلك اللحظات المصيرية عاد معاوية الى المكر والخداع ونادى (يا عمرو ، انما هي الليلة حتى يغدو عليّ علينا بالفيصل فما ترى ؟ قال : ... الق اليهم أمراً إن قبلوه اختلفوا وإن ردوه اختلفوا . ادعهم الى كتاب الله حكماً فيما بينك وبينهم فانك بالغ به حاجتك في القوم ؛ فاني لم أزل أوخر هذ الأمر لوقت حاجتك اليه فعرف ذلك معاوية فقال لعمرو : صدقت . فاصبح أهل الشام وقد رفعوا المصاحف على رؤوس الرماح ، وذُكر أنه قد رُفع اكثر من ٥٠٠ قرآن التي كانت قبل قليل ملطخة بدماء عمار بن ياسر وأويس القرني وعشرات من امثالهم وبتحريض من عمرو بن العاص نادى اهل الشام (الله الله في نسائكم وبناتكم فمن للروم والاتراك وأهل فارس غداً اذا فُنيتم ... هذا كتاب الله بيننا وبينكم) وبهذه الكذبة وقعت الفتنة واندفع الذين في قلوبهم مرض نحو الجدال بسبب وقوعهم بالمتشابهات فقال بعض من اهل العراق للامام (اجب القوم الى ما دعوك اليه ...) .

فقال الامام عليه السلام لهم : (عباد الله ، اني احق من أجاب الى كتاب الله ، ولكن

معاوية وعمرو بن العاص وابن ابي معيط وحبيب بن مسلمة وابن ابي سرح ليسوا باصحاب دين ولا قرآن ، اني اعرف بهم منكم ، صحبتهم اطفالاً وصحبتهم رجالاً فكانوا شر أطفال وشرّ رجال ، انها كلمة حق يراد بها باطل ...) فقام مالك الاشتر وقال (ان معاوية لا خلف له من رجاله ولك بحمد الله الخلف ولو كان له مثل رجالك لم يكن له مثل صبرك ولا بصرك ، فاقرع الحديد بالحديد واستعن بالله الحميد) . وقد أيّد باقي الصحابة وقادة الجيش ما قاله مالك الاشتر وفي هذا الظرف بالذات كان المنافقون يترصدون الاوضاع بدقة ويسعون لاثارة الفتنة بين صفوف جيش الامام عليه السلام وعلى رأسهم الاشعث بن قيس فقد قال للامام (يا أمير المؤمنين ، انا لك اليوم على ما كنا عليه أمس ، وليس آخر امرنا كأوله ، وما من القوم أحد احنى على أهل العراق ولا أوتر لاهل الشام مني فاجب القوم الى كتاب الله فانك أحق به منهم . وقد أحب الناس البقاء وكرهوا القتال).

وقد لقت مبادرة الاشعث تأييداً واسعاً بين صفوف جيش الامام من الذين اغرتهم وعود معاوية بالمال حتى مال اكثر الذين في قلوبهم مرض نحو الصلح واخذوا يطالبون بالتحكيم ، وعلا الجدال والنزاع بين القلة من طلاب الحق وبين الكثرة من مرضى القلوب وفي هذه الاثناء قال الاشعث للامام : ان شئت اتيت معاوية فسألته ما يريد ونظرت ما الذي يسأل ، فقال الامام عليه السلام : ائته ان شئت ...) وبدون تردد ذهب الاشعث بن قيس الى معاوية واتفق معه على تعيين حكم من طرف معاوية وآخر من طرف الامام وان يتحاكما الى كتاب الله وعاد الاشعث الى الامام عليه السلام وشرح لهم ما دار بينه وبين معاوية وايّد كثير من الحاضرين هذه الفكرة وأخذوا يطالبون بتحقيقها فقال لهم الامام علي عليه السلام (ويحكم انهم ما رفعوها لانكم تعلمونها ولا يعلمون بها وما رفعوها لكم إلا خديعة ودهاء ومكيدة ... ويحكم انما قاتلتهم ليدينوا بحكم الكتاب ... فامضوا على حقكم وقصدكم وخذوا في قتال

عدوكم فان معاوية وابن العاص ... ليسوا باصحاب دين ولا قرآن وانا اعرف بهم منكم ...) وتهددوه ان يُصنع به ما صنع بعثمان . وحلفوا عليه لتُرسِلن الى الاشتر أو لنسلمنّك الى عدوك ، فاقبل مالك الأشتر ، فسبّوه وسبّهم .. وصاح بهم عليعليه السلام ، فكفوا ، وقال الاشتر : يا أمير المؤمنين ، احمل الصف على الصف تصرع القوم ، فتصايحوا ... فقال الاشتر : ان كان امير المؤمنين قد قبل ورضى فقد رضيت. وهكذا نجح بعض الخواص من طلاب الدنيا ان يفرضوا على الامام عليه السلام القبول بالتحكيم وتم وقف القتال بين الطرفين وتجرع الامام وبعض السائرين على نهجه السُم نتيجة لذلك واستلم معاوية خلافه المسلمين وتسلط على رقابهم ، كل ذلك كان بسبب مواقف بعض الخواص من متزلزلي الارادة ولو كانت مواقفهم كما يجب لقاموا بتسجيل موقف تاريخي له الاثر الكبير في صناعة مصير الامة الاسلامية .

يقول السيد الخامنئي في هذا المجال : (قرارات الخواص في الوقت المناسب ، تحديد الخواص للمواقف في الوقت المناسب ، عزوف الخواص عن الدنيا في اللحظة المناسبة ، كل ذلك يحفظ لنا التاريخ وينقذ لنا القيم ويحفظها ، يجب اتخاذ الموقف اللازم في اللحظة الحاسمة : واذا مرّت تلك اللحظة المصيريّة بدون استثمار تكون الفرصة قد مرت والخسارة لا تعوّض)[١].

مخالفة الخواص للحَكَم الذي اختاره الامام

اتفق الطرفان على مبدأ التحكيم واتفق أهل الشام على ان يفاوض عنهم عمرو بن العاص ، امّا اهل العراق فقد اختلفوا اشد الاختلاف ومال اكثرهم نحو

(١) محاضره القاها السيد الخامنئي في مجموعة من الفرقة ٢٧ (محمد رسول الله صلى الله عليه وآله) ، في طهران عام / ١٣٧٥ هـ ش .

ابي موسى الاشعري وكان من بين هذه الاكثرية فرقه سميت بالخوارج وعلى رأسهم الاشعث بن قيس ، وأصرّوا على تمثيل ابي موسى بالرغم من أن خطره على الاسلام لا يقل عن خطر عمرو بن العاص وامثاله من المنافقين ، وهكذا واجه الامام عليه السلام شكلاً آخراً من أشكال الفهم المنحرف وأصابه الملل من كثرة ما رآه من تشتت صفوف جيشه فوقف على مكان مرتفع ونادى (... اني لا أرضى بابي موسى ولا أرى أن أوليّه ...) .

فرد الاشعث على الامام وقال : انا لا نرضى إلاّ به .

فقال له الامام عليه السلام (فانه ليس لي برضاً ، وقد فارقني وخذّل الناس عنّي ، وهرب مني حتى أمّنته بعد أشهر ، ولكن هذا ابن عباس اولّيه ذلك ...) .

فقال الاشعث وبعض رؤساء القبائل والخواص : لا والله لا يحكم فينا مضريان حتى تقوم الساعة... .

بهذه الطريقة كان يفكر الاشعث بن قيس والكثير من امثاله على الرغم من مرور ٥٠ عاماً على ظهور الاسلام تلك الطريقة التي تعتمد على التفكير الجاهلي والروح القبيلة بديلاً عن التقوى والاخوّة الاسلامية واقترح الامام عليه السلام على جماعته انتخاب عبد الله بن عباس كي يكون حكماً من جانبه مقابل عمرو بن العاص لكن الغدرة والفجرة قاموا مرة اخرى بسد الطريق بوجهالامام عليه السلام رغم ما كان يتمتع به عبد الله بن عباس من علم وتقوى ومنزلة وصحبة للرسول صلى الله عليه وآله وكان من ولاة البصرة من قبل الامام عليه السلام ، بعد ذلك قال الامام لجماعته (فاني اجعل الاشتر) فنادى المخالفون (وهل سعّر الارض علينا إلاّ الاشتر ! وهل نحن إلاّ في حكم الاشتر ... يضرب بعضنا بعضاً بالسيف حتى يكون ما أردت وما أراد .... فقال عليه السلام : اقد ابيتم إلاّ أبا موسى !

قالوا : نعم .

وهكذا اجبر بعض الخواص الامام علي قبول تحكيم ابي موسى الاشعري مثلما أجبروه من قبل على ايقاف الحرب والخضوع للتحكيم ، وتركهم في لجاجتهم وقال لهم : (اصنعوا ما شئتم) وجلس في انتظار نتائج التحكيم .

لم تُسفر المفاوضات بين الطرفين عن نتائج تذكر سوى الحماقة التي ارتكبها ابو موسى الاشعري بخلعه للامام ، بعد ذلك عاد الامام بجيشه نحو العراق بعد ان تحمل آلاف من الشهداء والجرحى وفي طريق عودتهم الى العراق أخذ كل واحد منهم يلوم صاحبه ويطعن بنتائج التحكيم فاخذ الامام يهدئهم ثم تعجل بالمسير نحو العراق مخافة ان تتأزم الامور ويحدث ما لا يحمد عقباه ، وفي احدى المواقع في الطريق تحدث اليهم الامام عن الملابسات التي رافقت مسألة التحكيم ، وفجأة سأله احدهم (نهيتنا عن الحكومة ثم امرتنا بها فلم ندري أي الامرين أرشد) فنظر الامام عليه السلام نظرة حيران ممزق الى الاشعث وصفق بيديه وقال (هذا جزاء من ترك العقدة) . فرد عليه الاشعث قائلاً (يا امير المؤمنين ، هذه عليك لا لك) فقال له الامام وهو غضبان (وما يُدريك ما عليّ مما لي ! عليك لعنة الله ولعنة اللاعنين ؟ حائك ابن حائك ، منافق ابن كافر . والله لقد أسرك الكفر مرة والاسلام اخرى ، فما فداك من واحدة منهما مالك ولا حسبك . وانّ امرأً دلّ على قومه السيف ، وساق اليهم الحتف ، لحرى ان يمقته الاقرب ، ولا يأمنه الأبعد)[1].

---

(١) تشير خطبة الامام عليه السلام الى احداث وقعت بعد وفاة الرسول صلى الله عليه وآله . ايام خلافة ابي بكر عندما أمرّ زياد بن لبيد الانصاري لحرب (بني وليعة) فقتل منهم جمعاً كثيراً ... ولحق فلّهم بالاشعث بن قيس ، فاستنصروه فقال : لا انصركم حتى تملكوني عليكم فملكوه وتوجوه كما يتوّج الملك من قحطان ، فخرج الى زياد في جمع كثير ... فلقوا الاشعث فهزموه ... ولجأ الاشعث والباقون من جماعته الى حصن معروف . فحاصرهم المسلمون حصاراً شديداً

بعنا ديننا بدنياكم

ان حرب صفين التي دارت بين جيش الامام وجيش معاوية كانت تضم مجاميع مختلفة من قبائل الشام والعراق والحجاز وايران ومصر وكل قبيلة من تلك القبائل كانت تحت امرة رئيسها ، وكثير من القبائل وبسبب الاختلافات العقائدية انقسمت على نفسها فوقع نصف منها في جيش الامام ﷺ والنصف الآخر في جيش معاوية . وغني عن البيان ان عامة الناس هم ليسوا من أهل التحليل والتحقيق أما النخبة الذين نطلق عليهم (خواص القوم) كانوا هم المسؤولون عن ادارة تلك القبائل وتسيرها حيث يشاؤون . ان الجيش الذي شكله معاوية وعمرو بن العاص من أهل الشام كان قائماً على اساس المكر والخداع وفيه كثير من الافراد المغرر بهم اما رؤساء القبائل فكانوا من الخواص الذين لهم سوابق في تاريخ الاسلام وكذلك لديهم القدرة الكافية على تحليل الاحداث وعلى اتم العلم والمعرفة بالفروق الموجودة ما بين الامام ﷺ ومعاوية ، لكننا نجدهم ـ مع الاسف الشديد ـ يتجاهلون الحقيقة بسبب تعلّقهم بالدنيا وزخارفها ، ومع ذلك نجدهم في بعض اللحظات المصيرية يعترفون بأخطائهم وتقصيرهم عن نصرة الحق ، وفي هذا المجال يقول المسعودي في مروج الذهب : (ولما رأى معاوية القتل في أهل الشام وكَلَب اهل العراق عليهم استدعى بالنعمان بن جبلة التنوخي ـ وكان صاحب راية قومه في تنوخ وبَهراء ـ وقال له : لقد هممت ان أولي قومك من هو خير منك مقدماً وأنصح منك ديناً ، فقال له النعمان : إنا لو كنا ندعو قومنا الى

حتى ضعفوا فسأل الاشعث جيش المسلمين الامان على نفسه وعشرة من اصحابه فامضوا شرطه فدخلوا واخذوا اسلحتهم وقالوا للاشعث : اعزل العشرة ، فعزلهم فتركوهم وقتلوا الباقين (وكانوا ثمانمائة) ... وحملوا الاشعث الى ابي بكر موثقاً في الحديد هو والعشرة فعفا عنه وعنهم ، والعجب من الاشعث انه لا يزال يُمني نفسه بهذه الاحلام المريضة .

جيش مجوع لكان في كسع الرجال بعض الأناة ، فكـيف ونـحن نـدعوهم الى سيوف قاطعة ، ورُدينيه شاجرة ، وقوم ذوي بصائر نافذة ، والله لقد نصحتك على نفسي ، وآثرت ملكك على ديني ، وتركت لهواك الرشد وأنا اعرفه ؛ وحِدتُ عن الحق وأنا ابصره ، وما وفقت لرشد حين أقاتل على ملك ابن عم رسول الله ﷺ وأول مؤمن به ومهاجر معه ، ولو اعطيناه ما اعطيناك لكان أرأف بالرعية ، واجزل في العطية ، ولكن قد بذلنا لك الامر ولا بد من اتمامه كان غياً أو رشداً ، وحاشا ان يكون رشداً ، وسنقاتل على تين الغوطة وزيتونها اذ حرمنا اثمار الجنة وانهارها ، وخرج الى قومه ، وصمد الى الحرب).

اعطنا الفرصة كي نعد العدة

مر عام على حرب صفين وذكريات مهزلة التحكيم لا تزال قائمة في ذهن الامام واستعد الامام عليه السلام ثانيةً للقضاء على الفتنة التي أخذ يشعلها مـعاوية فـي اطراف الدولة من جهة الشام ، وأخذ يعيد تنظيم قواته في معسكر «النخيلة» ، وفي خلال ذلك بدأ الخوارج تحركاتهم وتعدوا نطاق التنديد بالتحكيم الذي امـضوه وانتقلوا الى دائرة التخريب واعلنوا حرباً شعواء على كل من لا يشاطرهم آرائهم ورويداً رويداً أخذوا يشكّلون خطراً كبيراً لا يقل عن خطر العدو المتربص فـي الشام وكان رأي الامام عليه السلام في بداية الأمر تأجيل مشكلة الخوارج الى مـا بـعد تصفية الحساب مع معاوية لكن الانباء المثيرة التي وصلت للامام حول القلاقل التي أخذ يقوم بها الخوارج غيّرت مسار الاحداث وحاول الامام عليه السلام ان يتحاشى الاصطدام بهم وأرسل اليهم يدعوهم بالالتحاق بحيشه لغـرض مـحاربة العـدو المشترك ، وبعد ان وصلت الامور بين الخوارج والامام عليه السلام الى طريق مسـدود وجّه لهم الانذار النهائي ولكن دون جدوى فـدارت بـينهما مـعركة فـي مـنطقة

«النهروان» دامت يوماً واحداً واسفرت عن القضاء على هذه الفئة المنحرفة الضالة بعد ذلك عاد الامام الى معسكره في (النخيلة) لاعداد العدة لمواصلة هدفه الاصلي وهو مواصلة المسير لقمع الفتنة التي اشعلها معاوية وعمرو بن العاص في بلاد الشام ، ومرة اخرى أخذ الامام عليه السلام يدعو جماعته الى التهيؤ والاستعداد لمواصلة السير نحو الشام حيث جثم القاسطون على أرض الاسلام لكنهم هذه المرة لم يستجيبوا لأن حب الدنيا دخل الى قلوبهم ورضوا بها عوضاً عن الآخرة ومن هنا تغير مسار الاحداث وبدأت تأوهات الامام فبدأ يعيش الوحدة والغربة في زمن جائر لقد بدأ عصر التيه والضياع لامة لم تعرف قدر امامها وراعيها فتركته وحيداً في الساحة .

آه لجيش فيه المنافق الاشعث بن قيس وامثاله ، وكأن لسان حال الامام يقول : اين عمار ؟ اين خزيمة ذو الشهادتين ؟ اين اويس القرني ؟ اين هاشم المرقال ؟ اين امثالهم ممن طووا معه الطريق الى صفين ؟ ونالوا شرف الشهادة . فكرر عليهم الامام قوله : «**ألا وإنّي قد دعوتكم الى قتال هؤلاء ... فتواكلتم وتخاذلتم ... لوددتُ أني لم أركم ولم اعرفكم معرفة والله جرّت ندماً ... وأفسدتم عليّ رأي بالعصيان ...**» ، فقام اليه الاشعث وقال له : يا أمير المؤمنين قد كلّت سيوفنا ونفدت نبالنا ونصلت أسنة رماحنا ، فدعنا نستعد بأحسن عدّتنا .

أخذ بعض الخواص يعملون على اثارة الشائعات بين صفوف الجيش عن طريق النفاق فأخذوا يثبطون العزائم بأساليب خداعة وماكرة وذلك عن طريق اظهار النصيحة للمقاتلين واخفاء المكر وشيئاً فشيئاً اضطربت الاوضاع واصبح الجو مشحوناً بالشبهة والفتنة فاخذ افراد جيش الامام يتسللون تاركين معسكرهم عائدين الى بيوتهم وهكذا فرغت الساحة من المقاتلين ولم يبق مع الامام إلاّ القلة

القليلة ، لقد انتهت الامور الى هذه النتيجة بسبب المواقف المتخاذلة التي وقفها بعض الخواص من الامام ، تلك المواقف التي مهدت الطريق لمعاوية وامثاله من السفهاء الوصول الى سدة الحكم .

شهادة حرّفت التاريخ

كان شُريح بن الحارث من اصحاب رسول الله ﷺ وقد استلم منصب القضاء في زمن الخليفة الثاني وظل في هذا المنصب حتى استلم الامام عليه السلام الخلافة وقد كان الامام عليه السلام راغباً في عزله عن منصبه ولكن بسبب اصرار البعض عليه ابقاه الامام بمنصبه ، وفي زمن الامام عليه السلام قام شريح القاضي بشراء دار وقصة تلك الدار مذكورة في كتاب نهج البلاغة الرسالة الثالثة[1]، وظل في ادارة القضاء الى ان جاء المختار بن ابي عبيدة الثقفي حيث قام بنفيه الى خارج مدينة الكوفة وذلك في قرية من قرى اليهود . وبقي هناك الى ان استدعاه الحجاج بن يوسف الثقفي وولاه القضاء لكنه طلب من الحجاج اعفاءه من هذا المنصب . ومن حقنا ان نتساءل لماذا كان شريح منبوذاً في زمن المختار ثم اصبح فجأة شخصاً مقبولاً في زمن الحجّاج ؟ الجواب : ان شريح مات وعمره ١٢٠ سنة وقد قضى ٧٥ منها في منصب القضاء ، وكان قد شهد زوراً وبهتاناً على الصحابي الجليل هاني بن عروة

---

(١) بعد ان وبخ الامام عليه السلام شريحاً قال له : (اما إنك لو كنت اتيتني عند شرائك ما اشتريت لكتبت لك كتاباً على هذه النسخة ، فلم ترغب في شراء هذه الدار بدرهم فما فوق ... وتجمع هذه الدار حدود أربعة : الحد الأول ينتهي الى دواعي الآفات ، والحد الثاني ينتهي الى دواعي المصيبات والحد الثالث ينتهي الى الهوى المردي ، والحد الرابع ينتهي الى الشيطان المغوي وفيه يشرع باب هذه الدار اشترى هذا المغترّ بالامل من هذا المزعج بالاجل هذه الدار بالخروج من عز القناعة والدخول في ذل الطلب والصراعة ...) .

تلك الشهادة التي ادت الى سجن وتعذيب هذا الصحابي واستشهاده ودفعت الموت والهلاك عن الطاغية عبيد الله بن زياد واصبحت سبباً من الاسباب المباشرة لوقوع حادثة عاشوراء المفجعة عام ٦١ هـ.

مرّ عشرون عاماً على ابتعاد اهل الكوفة وعدم انقيادهم لأهل البيت وخلال هذه الفترة الزمينة انتبه كثير منهم من نومته ممن انطلت عليه الاكاذيب فعرفوا الحق واهله وندموا على ما اقترفوه من تقصير بحق اهل البيت عليهم السلام ولهذا نجد سيل رسائل التعزية ينهال على المدينة بمناسبة استشهاد الامام الحسن المجتبى عليه السلام معبرة عن الحب والتقدير لاهل البيت عليهم السلام ، وبعد وفاة معاوية واستلام يزيد لمقاليد الامور بايع أهل الكوفة الامام الحسين عليه السلام وكتبوا رسائل عديدة الى المدينة يدعون بها الامام الحسين عليه السلام للمجيء الى العراق لاستلام الخلافة وعلى أثر ذلك قام الامام بارسال سفيره الى العراق «مسلم بن عقيل» وعندما وصل الى الكوفة هب الآلاف لاستقباله وبايعوه باعتباره نائباً عن الامام وفي ذلك الوقت كان «النعمان بن بشير» والياً على الكوفة ، وهو من الذين يعرفون باحقية الامام الحسين عليه السلام بالخلافة ، لكنه حاول ان يتماشى مع الوضع الجديد وجلس في قصره ولم يلتقي بمسلم بن عقييل فلما وصلت الاخبار الى يزيد قام بعزله عن ولاية الكوفة وولى عبيد الله بن زياد مكانه على الكوفة بالاضافة الى البصرة وأصدر أوامره بالتصدي للتحركات الجديدة التي تحصل في الكوفة ، وعندما وصل عبيد الله الى ضواحي الكوفة قادماً من البصرة ظن الناس ان القادم هو الامام الحسين عليه السلام الذي كانوا يتوقعون قدومه فهبوا لاستقباله فدخلها وعليه عمامة سوداء متلثماً بها متوجهاً نحو قصر الامارة فلما اقترب من باب القصر طلب من الحرّاس مناداة النعمان بن بشير فلما دخل عبيدالله القصر وتحصن به ونادى النعمان قائلاً: لقد طال نومك، وازال اللثام عن فيه فعرفه ففتح له الباب، وتنادى الناس ابن مرجانة، فحملوا

عليه بالحجارة ففاتهم ابن زياد ودخل القصر واغلق الابواب . في هذه الاثناء كان مسلم بن عقيل في بيت الصحابي «هاني بن عروة» الذي كان من اشد الموالين لاهل البيت عليهم السلام ورئيساً لقبيلة بني مراد وهي من القبائل الكبيرة في العراق وتمتلك أربعة آلاف فارس وثمانية آلاف مقاتل كلها تحت إمرته ، وأوّل عمل قام به عبيد الله بن زياد بعد استلامه زمام الأمور وضعه الرصد على مسلم حتى علم بموضعه فوجه محمد بن الاشعث بن قيس الى هاني بن عروة فجاءه وسأله عن مسلم فانكره ، وقام هاني بجمع بعض مقاتليه من حملة السيوف وذهب بهم الى قصر ابن زياد وقبل ان يدخل القصر قال لجماعته : إذا ارتفع صوتي أو ارادوا قتلي فاهجموا على القصر واجهزوا على ابن مرجانة واقتلوه ومن معه ، ثم دخل الى القصر برفقه ابن الاشعث وقد كان حضر في مجلس ابن زياد بعض رؤساء القبائل وقاضي الكوفة «شريح القاضي» فسأل ابن زياد هاني : اين مسلم؟ فقال هاني : ليس عندي ، فرّد عليه ابن زياد بكلام خشن ، ولما كان هاني يعلم بالموقع المتزلزل لابن زياد بين الناس وان الناس مع مسلم اجابه بهدوء : ان لزياد ابيك عندي بلاءً حسناً ، وأنا أحب مكافاته به فهل لك في خير ؟ فقال ابن زياد : وما هو؟ فقال هاني : تشخص الى الشام انت وأهل بيتك سالمين باموالكم فانه قد جاء حق مَن هو أحق من حقك وحق صاحبك . فصاح ابن زياد : ادنوه مني فضرب وجهه بقضيب كان في يده حتى كسر أنفه وشق حاجبه ونثر لحم وجنته ، وكسر القضيب على وجهه ورأسه ، وضرب هاني بيده الى قائم سيف شرطي من تلك الشرط فجاذبه الرجل ومنعه السيف ، فصاح اصحاب هاني من خارج القصر : قتل صاحبنا ، فخافهم ابن زياد وأمر بحبسه في بيت الى جانب مجلسه واخرج اليهم ابن زياد شريحاً القاضي ، فشهد عندهم انه حيّ لم يقتل فانصرفوا ، وأخذ شريح القاضي يحاور نفسه حول الشهادة المزورة وهو يقول لنفسه : كيف شهدت زوراً

وعمري ٧٠ عاماً ؟ كيف شهدت زوراً وأنا منذ استلامي لمنصب القضاء كنت موضع ثقة واعتماد بعض الخلفاء والناس يعلمون بأني من صحابة الرسول ﷺ ، فعندما يرون الجروح في دمه ورأس هاني ألا يقولون أن شريحاً شهد زوراً !! لا لن أفعل .

وبقي بين أمرين بين الخوف من انتقام ابن زياد وبين الخوف من تلك الشهادة الكاذبة وعواقبها وبقي في صراع مع نفسه واضطراب حتى ذهب في نهاية المطاف الى قبيلة بني مراد فقال شريح : (لا بأس عليه ، انما حبسه الامير ليسأله) ، فتفرقوا فعاد اصحاب هاني الى بيوتهم استناداً الى شهادة شُريح المزورة تلك الشهادة التي غيّرت مسار التاريخ لصالح ابن زياد وأدت الى قتل هاني بن عروة فذهب شهيداً ، ومهدّت لوقوع فجائع يوم عاشوراء .

غربة مسلم درس آخر للخواص

عندما سمع مسلم بمصير رفيقه هاني بن عروة نادى في الكوفة بشعار (يا منصور) وهذا الشعار المقدس كان يرده الرسول الاعظم ﷺ في غزواته ضد المشركين والكفار واستمر أهل البيت عليهم السلام على ترديده في حروبهم من بعده ، جمع مسلم الف مقاتل وتقدم بهم نحو قصر ابن زياد فأمر ابن زياد رؤساء القبائل والخواص الذين كانوا في القصر صعود الى سطح القصر وأمر كل واحد منهم ان ينادي جماعته من الذين جاؤوا لمحاصرة القصر مع مسلم بالابتعاد عن مسلم وتخويفهم بجيش الشام القادم ، ونتيجة لذلك تفرق الناس عن مسلم .

وفي الحقيقة يمكن القول بان اولئك الخواص لو لم يقوموا بتفريق ذلك الجيش عن مسلم لاستطاع ان يسجل موقفاً مصيرياً يغيّر به مجرى التاريخ ،

والغريب من هؤلاء الخواص انهم كانوا بالأمس القريب قد كتبوا آلاف الرسائل الى الحجاز تبايع الامام الحسين عليه السلام وتدعوه الى القدوم الى الكوفة وكتبوا كذلك بانهم على اتم الاستعداد للتضحية والفداء في سبيل أهل البيت عليهم السلام. اما بعد قدوم سفير الامام مسلم بن عقيل وبسبب حب الدنيا والخوف من الموت نراهم ينكثون البيعة ويلتجأون الى بني أمية ولم يكتفوا بذلك بل أخذوا يطالبون الناس بالابتعاد عن مسلم وكأنهم يوم كتبوا العهود والمواثيق ما كانوا يعرفون ابن زياد ولا جيش الشام. وشيئاً فشيئاً أخذ الذين كانوا مع مسلم ينخرطون عنه حتى تركوه فريداً وحيداً وكانوا معه بالآلاف فاصبح ولا أحد معه غير نفسه وبعد أن كانت له آمال كبار وأمان حسان تركوه كما يترك المسافر رفيقه الظامىء الجريح في الصحراء المحرقة لاظل فيها ولا ماء لينجو بنفسه غير مبال بما تصنعه المقادير بصاحبه من بعده ... وغشيته غاشية من القلق والانتظار .. وبكى حزناً على الاخلاق التي ضاعت والمروءة التي ودّعت هؤلاء الناس الذين تجردوا من كل الفضائل والقيم!

ان الاحاديث الكاذبة التي ادلى بها رؤساء القبائل أزالت الامن والاستقرار من قلوب انصارهم ومؤيديهم وفي لحظة من لحظات عذاب الضمير فكّروا بالامام وبمسلم بن عقيل عليهما السلام وكيف عاهدوهما على بذل المال والنفس في سبيل الدين، وفجأة ارتفع من اعلى قصر الامارة صوت شيخ تعلّق قلبه بحب الدنيا فقطع عليهم سلسلة أفكارهم وقال: «يا أهل الكوفة، لا تشقوا عصا المسلمين، ولا تفرقوا جمع المؤمنين، كفانا من تقاتل الاخوة، ارحموا نساء الكوفة واطفالها ايّتها الساكتات، لماذا لا تأخذن بأيدي أبنائكن من لهيب هذه النار التي ستحرق الجميع؟ جيش الشام في الطريق، كيف يمكننا مواجهته بهذا العدد القليل؟ ماذا يظن مسلم؟ هل انّ جيش الخليفة لعب وهزل؟».

في الصفوف الاخيرة سادت حـالة مـن البـلبلة وكأن جـماعة مـنهم قـد ارتسمت معالم الخزي والعار على جباههم : نحن ذاهبون ... نحن ذاهبون أيضاً ... أنا قادم أيضاً ! إذا بايع أعيان الكوفة الأمير عبدالله بن زياد ، فما عسانا أن نفعل ؟ لا ، لا فائدة من القتال ، تعالوا نذهب ....

وقف مسلم يؤدي الصلاة بمفرده وكان يدعو «أشهد أن لا إله إلّا الله وأشهد أن محمداً عبدك ورسولك ، لك الحمد ، أنت مالك يوم الدين ، اياك نعبد وإيـاك نستعين ، اهدنا الصراط المستقيم ...» . وكانه جالس في جنة الرضوان ، بينما أهل الكوفة يتخبّطون في ظلمات الجاهلية والنفاق ودعا الله سبحانه في سجوده وقال : «الهي ، أنت الشاهد على انّ الحسين في الطريق ، وقد فعلت ما بوسعي ، ولكن أهل الكوفة لا يعرفون الله ولا ابن رسوله والعهد والميثاق ، ثمّ قال في نفسه : أي نفس لا تخافي الموت ما دمت تقومين بواجبك» .

ولما انتهى من صلاته لم يجد أحداً ينصره فأخذ يتجول وحيداً في ما بين سكك الكوفة حيث لا ملجأ له غريباً مخذولاً فانتهى الى باب امرأة وسلم عليها وطلب منها الماء فسقته وجلس فقالت له : من أنت ؟ قال : غريب ليس لي في هذا المصر منزل ولا عشيرة انا مسلم بن عقيل ابن عم الحسين بن علي عليه السلام ، وكانت تلك المرأة اسمها (طوعة) وهي من أقرباء الاشعث المعروف بنفاقه وغدره ايـام حكومة أمير المؤمنين بعد ذلك قامت بادخال مسلم بسرعة الى بـيتها فـوصلت الاخبار الى اسماع محمد بن الاشعث وذلك عن طريق الجواسيس فقام بـدوره باخبار ابن زياد فقال له عبيدالله بن زياد : فليذهب محمد بن الأشعث وعبدالله بن عباس السلمي بسبعين رجلاً ويلقون القبض عـلى مسـلم ويأتـون بـه إلى دار الامارة.

فلما وصلوا الى الدار التي فيها مسلم خرج اليهم بسيفه حتى اخرجهم من الدار ثم عادوا ثانية فاثخنوه بالجراح وحوصر مسلم ولم يستسلم . ولما رأوا ذلك منه اشرفوا على سطح الدار وجعلوا يرمونه بالحجارة ويلهبون النار في القصب ويلقونها عليه فلما رأى ذلك خرج عليهم بسيفه يقاتلهم فقال له محمد بن الاشعث لك الامان فلا تقتل نفسك فخرج عليهم يقاتلهم وهو يقول :

اقسم لا اقتل إلّا حراً ... وان رأيت الموت شيئاً نكراً

كل امريء يوماً يلاقى شراً ... اخاف ان اكذب أو أغرا

فقال له ابن الاشعث : انك لا تكذب ولا تخدع ، القوم بنو عمك وليسوا بقاتليك ولا ضاريك، فاقبل اليه ابن الاشعث والناس يؤمونه وحملوه على بغلة وانتزعوا منه سيفه فعرف بالخديعة ثم وصلوا به الى القصر وهو مخضب بدمائه وعندما كان على باب القصر رآه رؤساء قبائل الكوفة فقال لهم مسلم : «ها أنتم الذين أضفتم الناس بفعلكم ، يا طلاب الدنيا ، لا ايمان لكم ، نكثتم البيعة وجئتم تستجدون ابن مرجانة ، كم الفرق بين البارحة واليوم ، لكم انقلبتم سريعاً ! ثم أُدخِلَ الى قصر ابن زياد بحضور اولئك الخواص الذين نكثوا البيعة وغدروا بهاني بن عروة من قبل فأمر ابن زياد بالقائه من اعلى قصر الامارة فرموه وقضى نحبه شهيداً مظلوماً وغريباً من اجل هداية الناس الى طريق الحق .

الجزء الثاني

الخواص واللحظات المصيريّة

المقدمة

ان الخواص هم المثل الاعلى للعوام وعلى الدوام تكون حركتهم تبعاً لتحرك الخواص الذين يحددون بحركتهم مصير العوام ومن هنا تبدأ المهمة الصعبة التي يتحملها الخواص لان الاخطاء التي يقع بها هؤلاء في اللحظات المصيرية لا يمكن ان تُغفر.

فالخواص الذين عرفوا الحق وميّزوا الباطل لديهم القدرة على تحليل الوقائع واتخاذ القرارات المناسبة وكل ما يصدر عنهم له الأثر البالغ في حركة المجتمع فهم يتحكمون بحركة الجماهير وارادتها وطموحاتها. وفي هذه المناسبة لابد من الاشارة الى ان كثيراً من الخواص الذين سلكوا طريق الحق وتركوا طريق الباطل نجدهم يتلكأون في مسيرهم (لماذا؟) والجواب هو ان مسؤولية حمل الامانة في طريق الحق دائماً تكون أصعب من انتخاب الطريق نفسه، وفي تاريخنا الكثير من الشخصيات التي سلكت طريق الحق لكنها في نقطة من نقاط الطريق الصعبة لم تستطع مواصلة السير في طريق ذات الشوكة فأنزلقت في طريق الباطل مختارةً طريق السكوت والذل فحبطت اعمالها امّا الخواص الذين سلكوا طريق الحق واستمروا عليه الى آخر المطاف فلابد لهم من صفتين مهمتين وهما البصيرة التي تعني الوعي واليقظة والاخرى الصبر الذي يعني الصمود والمقاومة، ان هاتين الصفتين ضروريتان للسير والثبات على الصراط المستقيم ومن صحابة

النبيﷺ الذين تجسّدت فيهم هاتان الصفتان هو الصحابي الجليل عمار بن ياسر رضي الله عنه فقد كان رسول اللهﷺ يوصي بأن مَنْ أراد أن يعرف جبهة الحق فلينظر الى عمار في أيّ جهة يقف. ولما استشهد رضي الله عنه في معركة صفين حدث بعض الاضطراب بين صفوف جيش الشام (لماذا؟) لان رسول اللهﷺ قال له يا عمار تقتلك الفئة الباغية ومعنى ذلك أن معاوية وجماعته هم الفئة الباغية ولم يستطع معاوية وعمرو بن العاص من ايقاف هذا الاختلاف بين صفوف الجيش إلّا بعد ان لجأووا الى طريق المكر والخداع. ان ثبات عمار على طريق الحق كان بفضل البصيرة والصبر اللتان كان يمتلكهما على العكس من طلحة والزبير اللذين كان لهما الفضل الكبير في انتصارات الايمان على الكفر في صدر الاسلام لكنّهما في لحظة من اللحظات المصيرية في التاريخ فشلوا في الصمود أمام مغريات الدنيا فانزلقوا في طريق الباطل فحبطت اعمالهم وخسروا دينهم ودنياهم وذلك هو الخسران المبين.

ان الخواص الذين سلكوا طريق الحق لابد لهم من معرفة الشياطين واتباعهم في الدرجة الأولى ثم التعرف على كيفية التحكم بمسير العوام. تعال معي لنرى ما فعله طلحة والزبير وعائشة عندما طالبوا بدم عثمان وكيفية تحريضهم للعوام بحيث أنّهم تمكّنوا من تعبئة ثلاثين الف انسان من العوام وتجهيزهم للوقوف امام جيش الامام عليعليه السلام والنجاح في إشعال نار فتنة كبرى خدَمت معاوية وشياطينه وقد كان معاوية مستبشراً بهذه الفتنة لأنه كان يفكر باثارة أمثالها. وقد حذّر الامام الخمينيرحمه الله من حب العظمة والتسلط بين العلماء والمسؤولين الكبار في الدولة واعتبره وباءً كبيراً حذّر منه بلفظ الجلالة (الله) ثلاث مرات في مجلس الخبراء واشار الى النتائج الخطيرة المترتبة على هذا المرض الخطير من الغرور والتكبر واتهام الآخرين وايجاد الفرقة والاختلاف

الذي يضر بمصلحة الاسلام والحكومة الاسلامية.

وبعد نجاح الثورة الاسلامية في ايران بقيادة الامام الخميني﴿رض﴾ وفي بداية حكم الجمهورية الاسلامية اشاد الامام﴿رض﴾ بـبعض الشـخصيات بسـبب بـعض المواقف الايجابية من الثورة والدولة، لكن هذه الشخصيات وبسبب انحرافها عن خط الثورة الاسلامية مستقبلاً حكم عليها الامام بالانحراف وقام بـطردها مـن مواقعها في الدولة.

ان التهويل الاعلامي والتحجيم الذي يلجأ اليه الاعداء له الاثر الكبير في اذعان ضعاف الايمان وهؤلاء نجدهم يخسرون الحرب في الجولة الاولى لانهم مهزومون نفسياً وعلى عكسهم اقوياء الايمان الذين يأتون الى سـاحة المـعركة مجهزين بسلاح البـصيرة والصـبر بـالاضافة الى سـلاح السـيف والرمـح لذلك ينتصرون على عدوهم لأنهم نصروا الله فنصرهم. ما أعظم آية الله المدّرس ذلك البطل الشامخ عندما وجد ممثلي المجلس (مجلس الامة) مبهوتين ساكـتين لا يعرفون ماذا يفعلون أمام تهديدات الروس بغزو ايران وفـتح طـهران فـقام فـي المجلس وقال: (اذا كان لابد من أن ننتهي فلماذا نُنهي أنفسنا بأنفسنا؟) فـاعطى رأيا مخالفاً وأحدث ضجة داخل قـاعة المـجلس ورد عـلى تـهديدات الروس وبالفعل لم يستطيعوا عمل شيء تجاه ايران.

ان الذين يتأثرون باشارة أو ابتسامة أو لقاء صغير مع العدو ويستسلمون لأيّ شكل من اشكال الضـغط الاقـتصادي أو السـياسي أو الاعـلامي نـجدهم يساومون بعزة دينهم وامتهم باسرع وقت ان هؤلاء وامثالهم يواصلون السير في الدرب اذا رأوا ان الدرب مملوء بالزهور والرياحين وان وجدوا فـي مسـيرهم بعض الاشواك والعقبات اعرضوا عن دربهم وقائدهم وديـنهم. ولهـذا نـقول ان

الصمود والمقاومة في طريق الحق اعظم من الحق نفسه وهذا الانعطاف الخطير في هذه المسيرة هو الذي يحدد مسار الخواص. فخواص أهل الحق يمرون بسلام من هذا الانعطاف ويحصلون من الله على الأجر والثواب الجزيل والنعيم المقيم. وأمّا الخواص الذين انزلقوا في الانعطاف ووقعوا في احضان الباطل سيكون مصيرهم النار والعذاب الاليم الخالد، فجزاء المجموعة الاولى النعيم والسعادة لانها أدّت بالمجتمع الى السعادة وجزاء المجموعة الثانية الشقاء لانها ادّت بالمجتمع الى الشقاء. ولكي يتعرف عامة الناس على اهل الحق عليهم أن يعرفوا الحق فاذا عرفوا الحق ومصاديقه فعند ذلك سيعرفون أهله كما قال أمير المؤمنين عليه السلام (اعرفوا الحق تعرفوا أهله)، وهذه العملية لاتتم إلّا عندما يتجرد الانسان من الخضوع للهوى أو الشهرة أو الجاه أو... الخ وأن لا يبيع دنياه وآخرته من أجل التعصب الطائفي أو العنصري. ان محور الحق هو إمام الهدى العادل المتقي الشجاع الذي لا يساوم الاعداء على حساب دينه وكل مَنْ دار في هذا المحور فهو عظيم ومن لم يدر فليس له قيمة تذكر حتى وإن كانت له سابقة في الاسلام «**علي مع الحق والحق مع علي**» والسلام.

الفصل الأوّل

أسباب انحراف مجتمع الرسول ﷺ

ما هي الاسباب التي ادّت بالمجتمع الذي أعدّه الرسول ﷺ أن يصل الى تلك الدرجة من الانحراف؟

النص الكامل للخطبة الاولى لصلاة الجمعة التي أُقيمت في طهران
بإمامة آية الله السيد علي الخامنئي
بتاريخ ١٨ / ٢ / ١٣٧٧

ان البحث في عبر عاشوراء يختص بالزمن الذي تكون فيه الحاكمية للاسلام. ويمكن القول ـ على أدنى الاحتمالات ـ ان مثل هذا البحث يختص الجانب الاساسي منه بمثل هذا الزمن الذي يوجب علينا وعلى بلدنا أخذ العبرة.

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين. احمده واستعينه واستغفره واتوكل عليه وأُصلي وأُسلّم على حبيبه ونجيبه وخيرته في خلقه وحافظ سرّه ومبلّغ رسالاته، بشير رحمته ونذير نقمته سيّدنا ونبيّنا ابي القاسم المصطفى محمد وعلى آله الاطيبين الأطهرين المنتجبين المظلومين المعصومين سيما أبي عبد الله الحسين عليه السلام وسيّما بقية الله في الأرضين الحجة بن الحسن (عجّل الله فرجه).

أُوصيكم عباد الله بتقوى الله، وأدعوكم للتقوى اولاً وآخراً واحثّكم على التزود بزاد التقوى. وحتى البحوث التي نقدمها انما نبغي من ورائها ترسيخ التقوى ـ بعون الله ـ في أنفسنا وتركيز دواعيها لدى الناس ولدى مستمعي صلاة الجمعة إن شاء الله. أُكرس خطبتي الاولى في هذا اليوم لبحث واقعة عاشوراء. وهذا

الموضوع أفاضت فيه الكثير من الكلمات والخطب. والقينا فيه بحوثاً ودراسات، إلّا ان جوانب وآفاق هذه الحادثة العظيمة الخالدة مهما بُحثت تبقى تشع منها ابعاد جديدة وتشرف منها مزيد من الانوار فتسطع على حياتنا.

محاور البحث في واقعة عاشوراء

هنالك فيما يتعلق بمباحث عاشوراء، ثلاثة محاور أساسية:

الاول: دراسة علل ودوافع ثورة الامام الحسين عليه السلام والاسباب التي حدت به الى الثورة اي تحليل الدوافع الدينية والعلمية والسياسية لهذه الثورة. وسبق لنا وان تحدثنا فيما مضى عن هذا الموضوع بالتفصيل، اضافة الى ماللفضلاء والاكابر من دراسات قيّمة فيه. ولهذا فلا أتحدث ـ اليوم ـ عن هذا الجانب.

الثاني: هو بحث الدروس المستقاة من عاشوراء. وهو طبعاً بحث حيّ وخالد على مرّ الزمن ولا يختص بزمن معيّن دون سواه. فدرس عاشوراء هو درس التضحية والشجاعة والمواساة، ودرس القيام لله والايثار والمحبة. وأحد دروس عاشوراء هي هذه الثورة الكبرى التي فجرتموها انتم ابناء الشعب الايراني امتثالاً لنداء حسين العصر وحفيد ابي عبد الله عليه السلام. وهذا بحد ذاته واحد من دروس عاشوراء. ولا أريد حالياً الدخول في أيّ حديث عن هذا الموضوع.

الثالث: هو العبر المستقاة من عاشوراء.

سبقت لنا إثارة هذا الموضوع قبل عدة سنوات واشرنا الى ان لعاشوراء ـ فضلاً عن الدروس المستفادة منه ـ عِبراً أيضاً.

والبحث في عبر عاشوراء يختص بالزمن الذي تكون فيه الحاكمية للاسلام. ويمكن القول ـ على أدنى الاحتمالات ـ ان مثل هذا البحث يختص

الجانب الاساسي منه بمثل هذا الزمن الذي يوجب علينا وعلى بلدنا أخذ العبرة.

ورأينا طرح هذه القضية وفقاً للصيغة التالية، وهي كيفية انحراف المجتمع الاسلامي الذي إلتف حول الرسول وأحبه وآمن به وامتلأ بالدين حباً وشغفاً، ونشأ وتنامى في ضوء الاحكام التي سنتحدث لاحقاً عن شيء منها، وفيه مَنْ ادرك عصر رسول الله ﷺ كيف وصل به الحال بعد خمسين سنة أن يجتمع ويقتل سبط الرسول أبشع قتلة؟ وهل هناك ارتداد ونكوص وانحراف أشد من هذا؟! ألقت زينب الكبرى عليها السلام في سوق الكوفة خطبة عصماء بليغة تمحورت حول هذا، قالت فيها: «**ألا يا أهل الكوفة يا أهل الختل والغدر، أتبكون**»[1] وذلك لانهم حينما شاهدوا رأس الحسين على الرمح، وبنتُ عليّ مسبيّة، ولمسوا عمق المأساة ضجّوا بالبكاء. «**فلا رقأت الدمعة ولا هدأت الرّنة،...**»[2].

ثم قالت: «**انما مثلكم كمثل التي نقضت غزلها من بعد قوّة انكاثاً تتخذون ايمانكم دخلاً بينكم**»[3].

وهذا هو النكوص والارتداد والتراجع القهقري. فانتم في الحقيقة كالمرأة التي غزلت الصوف ومن بعد ما أتمته نقضت الغزل وعادت الى ما كانت عليه، وانتم في حقيقة الامر نقضتم غزلكم واعدتموه صوفاً. وهذا هو التراجع. وهذه عبرة.

كل مجتمع إسلامي معرّض لمثل هذا الخطر. لقد كانت اكبر مفخرة لإمامنا الخميني رحمه الله أنه حفّز الامة على العمل باحاديث الرسول ﷺ. وهل يمكن مقارنة

---

(١) بحار الانوار: ج ٤٥، ص ١٠٩.

(٢) نفس المصدر.

(٣) نفس المصدر.

غير الانبياء وغير المعصومين بشخصية عظيمة كشخصية الرسولﷺ الذي بنى ذلك المجتمع؟! ولكن انتهى الحال بذلك المجتمع الى اقتراف تلك الجريمة. فهل كل مجمع إسلامي معرّض للانسياق لمثل هذه الخاتمة؟ من الطبيعي انه اذا استعبر لا ينتهي الى مثلها، ولكنه اذا لم يستعبر فمن الممكن أن يتسافل الى هذا الحد. فهذه عبر عاشوراء.

اما نحن فقد وفّقنا في هذا العصر بحمد الله وفضله لاقتفاء السبيل من جديد، واحياء اسم الاسلام في العالم، ورفع راية الاسلام والقرآن عالية. وكانت هذه المنقبة من نصيب الشعب الايراني الذي مّرت على ثورته عشرون سنة تقريباً وهو ما انفك مرابطاً وصامداً على هذا النهج. إلّا اننا اذا انتابتنا الغفلة، ولم نحترس أو نحاذر ونثبت على المسار كما ينبغي، فمن الممكن ان ننتهي الى نفس ذلك المصير. وهنا يتضح معنى العبرة من عاشوراء.

أُريد حالياً التوسع بالحديث في الموضوع الذي طرحته قبل سنوات، ولاحظت ـ والشكر لله ـ ان الفضلاء أفاضوا في دراسته وبحثه والكتابة فيه والقاء الكلمات حوله. ومن الطبيعي ان الاسترسال في شرح هذا الموضوع لا يستوعبه الوقت المخصص لخطبة صلاة الجمعة؛ فهو بحث مطوّل. وسأتناوله تفصيلياً وبكل خصائصه في غير اجتماع صلاة الجمعة اذا رزقني الله عمراً ووفقني لذلك. ولكن لابأس هنا بالقاء نظرة اجمالية عليه. واذا وفقني الله فساعمل على اخراجه في كتاب في قالب خطابي ليكون بين أيديكم.

يجب اولاً وقبل كل شيء ادراك مدى فداحة تلكا لواقعة حتى نتحرك ونتتبع اسبابها. لا يقصر نظر أحد على أن واقعة عاشوراء كانت ـ في نهاية ـ مذبحة قتل فيها مجموعة. كلا، بل انها وكما نقرأ في زيارة عاشوراء: «**لقد عظمت الرزية وجلّت وعظمت المصيبة**».

ثلاث مراحل من حياة الحسين عليه السلام

ولأجل ان يتضح مدى عظم تلك الفاجعة، أستعرض بصورة اجمالية ثلاث مراحل قصيرة من حياة ابي عبد الله الحسين عليه السلام، لنرى شخصية الحسين عليه السلام في هذه المراحل الثلاث، هل من الممكن أن يحتمل أحد أنه ينتهي بها المآل يوم عاشوراء الى أن تحاصره حشود من أمّة جدّه وتقتله اشنع قتلة هو وأصحابه وأهل بيته وتسبي عياله؟! تتلخص المراحل الثلاث في:

اولاً: مرحلة الطفولة وتبدأ منذ نعومة اظفاره الى تاريخ وفاة الرسول صلى الله عليه وآله.

ثانياً: مرحلة شبابه .. اي خمس وعشرون سنة من وفاة جدّه الى خلافة أمير المؤمنين عليه السلام.

ثالثاً: المرحلة التي استمرت عشرين سنة من بعد استشهاد أمير المؤمنين الى واقعة كربلاء.

ففي المرحلة الاولى، أي في عهد رسول الله صلى الله عليه وآله كان الحسين عليه السلام طفلاً مدللاً ومحبوباً عند رسول الله صلى الله عليه وآله فقد كان لرسول الله صلى الله عليه وآله بنت، وكان المسلمون يعلمون جميعاً آنذاك انه صلى الله عليه وآله قال: **«اني لأغضب لغضب فاطمة وأرضى لرضاها»**[1] فانظروا عظيم منزلة هذه البنت بحيث ان رسول الله صلى الله عليه وآله يبجلها بهذه الكلمة وامثالها في محضر المسلمين والملأ العام وليس هذا بالامر العادي.

وزوّجها الرسول الكريم صلى الله عليه وآله لشخص كان ذروة في المآثر، زوّجها علي بن

---

(١) بحار الانوار: ج ٤٣ ص ٤٤.

أبي طالبعليه السلام الذي كان شاباً شجاعاً شريفاً ومن أكثر الناس ايماناً واسبقهم الى الاسلام، واكثرهم مشاركة في كل ميادينه، عليّ... من قام الاسلام بسيفه.. هذا الصهر العزيز المحبوب الذي لم تكن محبته منطلقة من وازع القرابة وما شاكلها من الوشائج وانما كانت انطلاقاً من عظمة شخصيته، ولهذه الاسباب زوّجه ابنته، فكان من نسلهم الحسين و... وهذا الكلام يصدق كله أيضاً على الامام الحسينعليه السلام. إلّا أن كلامي هنا يدور حول الامام الحسينعليه السلام.. اعزّ عزيز عند الرسولصلى الله عليه وآله.. الذي كان زعيم العالم الاسلامي وحاكم المسلمين ومحبوب كل القلوب يضمه بين دراعيه ويصحبه الى المسجد. والمسلمون كانوا يعلمون ان هذا الطفل هو محبوب قلب الرسول الذي تذوب القلوب جميعاً في محبته. فحينما كان الرسولصلى الله عليه وآله يلقي خطبة من فوق المنبر علقت رجل هذا الطفل بعائق فسقط على الارض، فنزل الرسولصلى الله عليه وآله من فوق المنبر واحتضنه ولاطفه. لاحظوا، هكذا كانت محبة الحسينعليه السلام عند الرسولصلى الله عليه وآله.

قال رسول اللهصلى الله عليه وآله عن الحسن والحسين وهما آنذاك في السابعة والسادسة من عمريهما: «**الحسن والحسين سيدا شباب أهل الجنّة**»[1]. قال فيهما هذا القول وهما لازالا طفين، ايّ انهما حتى وان كانا في تلك السن إلاّ انهما يفهمان ويدركان ويعملان كمن هو في سن الشباب، ويفوح الادب والشرف من جنبيهما.

ولو قال قائل حينذاك ان هذا الطفل سيقتل على يد أمة هذا الرسول بلا جُرم أو جريرة، ما كان يصدّقه أحد. مثلما صرّح رسول الله نفسه بتلك الحقيقة المرّة وبكى لها. وتعجب في وقتها الجميع، مستنكرين إمكانية حدوث عمل كهذا.

المرحلة الثانية، هي الفترة التي استمرت خمساً وعشرين سنة من وفاة

---

(١) بحار الانوار: ج ١٠ ص ٣٥٣.

الرسول الى خلافة أمير المؤمنين‌عليه السلام. إذ كان‌عليه السلام شاباً متوثباً وعالماً وشجاعاً، شارك في الحروب وخاض شدائد الامور. كان معروفاً عند الجميع بالعظمة، وعندما يأتي ذكر الكرام تشخص إليه الابصار وتحوم حوله الاذهان. وأسمه يسطع بين جميع مسلمي مكة والمدينة وحيثما امتد الاسلام، بكل فضيلة ومكرمة. والكل ينظر اليه والى اخيه باحترام وتكريم. وحتى خلفاء ذلك العصر كانوا يبدون لهما التعظيم والإجلال وكان مثالاً ومقتدىً لشباب ذلك العهد. وهكذا لو أن شخصاً قال آنذاك ان هذا الشاب سيقتل على يد هذه الامة لما صدّقه أحد.

المرحلة الثالثة، هي تلك المرحلة التي حلّت من بعد شهادة أمير المؤمنين‌عليه السلام وكان دور غربة أهل البيت‌عليهم السلام. فكان الإمامان الحسن والحسين عليهما السلام يُقيمان خلال تلك المدة في مدينة الرسول‌صلى الله عليه وآله بعد مقتل أمير المؤمنين بعشرين سنة، انحصرت الإمامة في الحسين على جميع المسلمين ـ وان لم تكن الخلافة في يده ـ وبدى مفتياً كبيراً، وزاد احترامه عند الجميع، واضحى عُروة يتمسك بها كل من يريد التمسك بأهل البيت‌عليهم السلام. فكان ذا شخصية محبوبة ورجلاً شريفاً نجيباً اصيلاً عالماً. حتى أنه بعث في ذلك الوقت بكتاب الى معاوية لو كان غيره كتبه لأيّ حاكم لكان جزاؤه القتل. إلّا أن معاوية حينما وصله الكتاب تلقاه بكل تكريم وقرأه متغاضيا عما جاء فيه. ثم لو ان أحداً كان يقول في ذلك الوقت ان هذا الرجل الشريف الكريم العزيز النجيب الذي يجسّد الاسلام والقرآن في نظر كل ناظر، سيقتل عمّا قريب على يد أمة الاسلام والقرآن قتلة شنيعة، لم يكن أحد ليتصور صحة ذلك. إلّا أنّ هذه الواقعة العجيبة البعيدة عن التصور قد حصلات فعلاً!

ولكن مَن الذين فعلوا ذلك؟ فعله أُولئك الذين كانوا يترددون عليه ويوالونه

ويُعربون له عن محبتهم واخلاصهم! فما معنى هذا؟ معناه ان المجتمع الاسلامي أُفرغ طوال الخمسين سنة من قميه المعنوية وجُرّد من حقيقة الاسلام، فكان ظاهرهُ إسلامياً وباطنه خاوياً. وهنا هو مكمن الخطر. فالصلوات تُقام وصلاة الجماعة موجودة، والأمة توصف بالأمة المسلمة، وحتى أن البعض منها يوالي أهل البيت! أُؤكد لكم ان العالم لاسلامي كلّه كان ولازال يعتقد بأهل البيت عليهم السلام ولا أحد يشك في هذا. ان حب أهل البيت عليهم السلام ظاهرة مشتركة بين جميع المسلمين في الماضي والحاضر. واينما تذهب اليوم في أرجاء العالم الاسلامي تجد المسلمين يحبون أهل البيت عليهم السلام، فالمسجد المسمى باسم الحسين عليه السلام والمسجد الآخر المسمّى باسم السيدة زينب في القاهرة تجدهما حاشدين على الدوام بجموع الزوار حيث يرتادهما المسلمون ويزورون القبر ويُقبّلونه ويتوسلون به الى الله.

جاؤني في الفترة الاخيرة، أي قبل سنة او سنتين بكتاب جديد ـ الكتب القديمة مشحونة بهذا المعنى إنما ذكرته لكونه جديداً ـ عن أهل البيت عليهم السلام وحققه أحد الكتّاب الحاليين في الحجاز. يثبت هذا الكتاب أن اهل البيت عليهم السلام هم علي وفاطمة والحسن والحسين عليهم السلام. وهذا المعتقد جزء من ارواحنا نحن الشيعة إلّا أن هذا الاخ المسلم الذي لا ينتمي للشيعة، كتب هذا الكتاب ونشره. والكتاب موجود ولديّ نسخة منه، ولابد أن آلاف النسخ منه طبعت ووزعت. ومعنى هذا ان أهل البيت عليهم السلام يحظون بالإحترام والقبول لدى جميع المسلمين وكانوا في ذلك العصر يلقون غاية التكريم والمحبة. ولكن في الوقت نفسه حينما يصبح المجتمع خاوياً تقع مثل تلك الحادثة. ولكن أين العبرة من هذا؟ تكمن العبرة في ماينبغي عمله لكي لا ينزلق المجتمع الى مثل ذلك المآل. وهذا ما يوجب علينا فهم الظروف التي ساقت المجتمع الى تلك النهاية. وهذا هو البحث المطوّل الذي أُريد ان أقدم لكم موجزه.

ركائز بنية النظام النبوي

أُشير اولاً وكمقدمة للموضوع الى أن الرسول ﷺ أرسى أُسس نظام كانت بُناهُ الاساسية تقوم على عدة ركائز.. تعتبر اربعة منها الثقل في ذلك البناء وهي:

الأول: المعرفة المتقنة الخالية من الغموض في شؤون الدين، ومعرفة الاحكام، والمجتمع، والتكليف، ومعرفة الله ورسوله، ومعرفة الطبيعة. وهذه هي المعرفة التي انتهت الى تراكم العلوم وبلغت بالمجتمع الاسلامي في القرن الرابع للهجرة ذروة المدنية والحضارة العلمية. فالرسول الكريم ﷺ لم يترك أي ابهام وغموض. ولدينا في هذا الصدد آيات مدهشة من القرآن الكريم لا مجال هنا لذكرها. وحيثما كان هناك موضوع غموض أو التباس، كانت تنزل آية تجليه.

الثاني: العدالة المطلقة التي لا محاباة فيها سواء في حق القضاء، أم في حقل الاستحقاقات العامة ـ لا ما يتعلق بحقه الشخصي إذ كان ﷺ يعفو عن حقه ـ أي العدل التام فيما يتعلق بعامة الناس ويجب تقسيمه بينهم بالعدل. وكذا العدالة في تطبيق حدود الله، وفي توزيع المناصب وتفويض المسؤوليات، وتحمل المسؤولية.

ومن البديهي أن العدالة غير المساواة. لا يلتبس الامر عليكم، فقد يكون في المساواة ظلم احياناً. بينما العدالة تعني وضع كلّ شيء في نصابه، واعطاء كل شخص حقّه. فقد كان العدل حينذاك عدلاً مطلقاً لا تشوبه شائبة. ولم يكن في عهد الرسول ﷺ استثناء لأيّ شخص يجعله خارج اطار العدالة.

الثالث: العبودية الخالصة لله والخالية من أي شرك؛ أي العبودية لله في العمل

الفردي ... العبودية في الصلاة حيث يجب ان يكون فيها قصد التقرب إليه. وكذلك العبودية له في بناء المجتمع وفي النظام الحكومي وفي نظام الحياة، والعلاقات الاجتماعية بين الناس. وهذا موضوع يستلزم بحد ذاته شرحاً مستفيضاً.

الرابع: المحبة الغامرة والعاطفة الفياضة. وهذه من السمات الاساسية للمجتمع الاسلامي... حب الله، وحبه تعالى للناس ﴿**يحبهم ويحبونه**﴾[1]، ﴿**ان الله يحب التوابين ويحب المتطهرين**﴾[2]، ﴿**قل ان كنتم تُحبّون الله فاتّبعوني يُحببكم الله**﴾[3]، الحب.. حب الزوجة وحب الأولاد، من المستحب تقبيل الاولاد، وتستحب محبتهم، ويستحب حب الزوجة ويستحب حب الاخوة المسلمين والتحبب اليهم، والأعظم هو حبُّ الرسول وأهل بيته قال تعالى ﴿**إلّا المودّة في القربى**﴾[4].

لقد رسم الرسول هذه الخطوط العريضة وأرسى ركائز المجتمع على اساسها، ووضع معالم الحكومة عشر سنوات على هذا المنوال. ومن الواضح طبعاً ان تربية الناس تأتي على نحو تدريجي ولا تتحقق جملة واحدة. وبذل الرسول قصارى جهده على امتداد هذه السنوات العشرة لترسيخ تلك الاسس، والعمل على مد تلك الجذور في اعماق الارض إلّا أن فترة العشر سنوات تعتبر قصيرة جداً اذا ما أُريد بها تربية الناس على خلاف ما كانوا قد ترعرعوا عليه من سجايا وخصائص، فقد كان المجتمع الجاهلي في كل شؤونه على النقيض تماماً من مضامين هذه الركائز الأربعة؛ لانه كان فارغاً من أيّة معرفة وغارقاً في حيرة

---

(١) سورة المائدة: ٥٤.

(٢) سورة البقرة: ٢٢٢.

(٣) سورة آل عمران: ٣١.

(٤) سورة الشورى: ٢٣.

الجهل والضلال ولم تكن لديه أيّة عبودية لله، بل كان مجتمع تجبّرٍ وطغيان وكان مجتمعاً بعيداً عن العدالة ومليئاً بألوان الظلم والتمييز.

رسم أمير المؤمنين عليه السلام في الخطبة الثانية من نهج البلاغة صورة فنية رائعة عما كان سائداً في العصر الجاهلي من ظلم وتمييز، جاء فيها «**في فتن داستهم بأخفافها ووطأتهم بأظلافها**»[1] كان المجتمع آنذاك مجرداً من معاني المحبة، كانوا يئدون بناتهم وكانت كل قبيلة تثأر لقتيلها من أي رجل تجده من قبيلة القاتل، سواء كان مستحقاً للقتل أم غير مستحق وسواء كان مجرماً أم بريئاً، وسواء كان عالماً بتلك القضية أم لا.. كان يسودهم الاضطهاد والقسوة والغلظة والفضاضة المطلقة.

من نشأ في تلك الحالة يمكن ان يصلح ويهذّب على مدى عشر سنوات ـ إن تحققت شروط ذلك ـ ويمكن ادخاله في الاسلام، ولكن لا يمكن غرس هذه القيم والمفاهيم في اعماق نفسه الى الحد الذي يجعل لديه القدرة على ايجاد نفس هذا التأثير على الآخرين.

دخل الناس في الاسلام أفواجاً أفواجاً ودخل الاسلام أُناس لم يعايشوا الرسول صلى الله عليه وآله ولم يدركوا تلك السنوات العشرة مع النبي صلى الله عليه وآله وهنا تتجلى أهمية مسألة الوصية التي يعتقد بها الشيعة، ويكمن منشأ الوصية والنص الإلهي، من أجل ديمومة ذلك النهج التربوي، وإلّا فمن الواضح أنّها ليست من سنخ انواع الوصايا الاخرى المتداولة في هذا العالم، فكل انسان يوصي قبل وفاته لإبنه، إلّا ان القضية هناك تعني لزوم استمرارية نهج الرسول من بعده.

---

(١) نهج البلاغة الخطبة الثانية.

لا أُريد الدخول في المباحث الكلامية بل أُريد تناول التاريخ بشيء من التحليل ولتتناولوه أنتم أيضاً بمزيد من التحليل. لهذا البحث ـ طبعاً صلة بالجميع ولا يختص بالشيعة وحدهم، فهو للشيعة وللسنّة ولجميع الفرق الاسلامية على حد سواء. ونظراً لما يتصف به من الاهمية، يجب أن يحظى إذن باهتمام من قبل الجميع.

المجتمع الاسلامي بعد وفاة الرسول صلى الله عليه وآله

واما عن الوقائع التي جرت من بعد رحيل الرسول صلى الله عليه وآله، فما الذي حدى بالمجتمع الاسلامي خلال تلك الخمسين سنة للنكوص عن تلك الحالة الى هذه؟ وهذا هو أصلُ القضيّة.. ويجب ان يلاحظ متن التاريخ بشأنها. من البديهي ان البناء الذي بناه الرسول ما كان لينهار بهذه السهولة ولهذا نلاحظ ان من بعد رحيل الرسول صلى الله عليه وآله استمرت عامة الأمور ـ باستثناء قضية الوصية ـ على ما كانت عليه: فكانت العدالة في وضع حسن، والذكر في حالة حسنة، والعبادة على ما يرام. واذا نظر المرء الى الهيكل العام للمجتمع الاسلامي في سنواته الاولى يجد الامور كما كانت ولم يرجع شيء القهقري. نعم كانت تقع بعض الحوادث بين الفينة والاخرى إلّا أن ظواهر الامور كانت تعكس بقاء نفس الاسس والركائز التي وضعها الرسول صلى الله عليه وآله. بيد أن ذلك الوضع لم يدم طويلاً، فكلما كان الوقت يمضي كان المجتمع الاسلامي ينحدر تدريجياً صوب الضعف والخواء.

ثمة نقطة في سورة الحمد أشرتُ اليها عدة مرات في لقاءات مختلفة. فحينما يدعو الانسان ربّه: ﴿**اهدنا الصراط المستقيم**﴾ يُوضح بعدها معنى ذلك الصراط المستقيم في قوله: ﴿**صراط الذين انعمت عليهم**﴾ فهو تعالى قد أنعم على كثير من الاقوام والأُمم؛ فأنعم على بني اسرائيل ﴿**يا بني اسرائيل أذكروا**

نعمتي التي انعمت عليكم﴾[1] والنعمة الالهيّة لا تختص بالانبياء والصالحين والشهداء **﴿ولئك مع الذين انعم الله عليهم من النبيين والصدّيقين﴾** هؤلاء أيضاً نالوا النعمة وكذلك بنو اسرائيل نالوا النعمة. والذين يُنعم عليهم فريقان:

فريق حينما ينال النعمة لا يتعرض لغضب الله، ولا يحقق دواعي الغضب الإلهي ولا يضل سبيل الهداية، وهؤلاء هم الذين ندعوا الله ان يهدينا سبيلهم. وعبارة **﴿غير المغضوب عليهم﴾** تمثل في الحقيقة صفة **﴿الذين انعمت عليهم﴾** أي صفة **﴿الذين﴾** هي **﴿غير المغضوب عليهم﴾**.

اما الفريق الآخر فهم الذين حينما انعم الله عليهم، بدّلوا النعمة وتمرّدوا عليها، ولهذا حلّ عليهم غضبه، أو أنهم إئتموا بأُولئك فضلّوا السبيل. وتشير رواياتنا الى ان المراد من **﴿المغضوب عليهم﴾** هم اليهود، وهذا البيان مصداق لتلكالحقيقة. لأن اليهود وحتىزمن النبي عيسى كانوا يحاربون النبي موسى وأوصياءه عن علم وقصد. أمّا **﴿الضالين﴾** فهم النصارى.. انهم صلوا بادئ بدء أو ضل أكثرهم على ادنى الإحتمالات حينما انعم الله عليهم. امّا المسلمون فأنزل الله عليهم نعمته.. إلّا انّ النعمة تبدّلت ـ نيتجة لما اقترفوه ـ صوب المغضوب عليهم وصوب الضالين ولهذا ورد عن الامام الصادقعليه السلام انه قال: «**لما قُتل الحسين اشتدّ غضبُ الله على أهل الارض**»[2] وذلك لأنه إمام معصوم ويفهم من هذا ان المجتمع الذي ينال النعمة الإلهيّة قد يسير في اتجاه يجلب عليه غضب الله. ولهذا يجب توقّي اقصى درجات الدقة والحذر في المسير، وهو أمر عسير طبعاً ويستلزم الانتباه واليقظة.

---

(١) سورة البقرة: ٤٠.

(٢) اصول الكافي: ج ١ ص ٣٦٨.

أورد ما يلي بعض الامثلة. فالخواص والعوام أصبح لكل منهما وضعه الخاص به، فاذا ضل الخواص قد يدخلون في خانة ﴿المغضوب عليهم﴾، أما العوام قد يصبحون في فئة ﴿الضالين﴾. وكُتب التاريخ زاخرة طبعاً بالمصاديق والأمثلة. وسأنقل لكم ـ من هنا فصاعداً ـ مما جاء في تاريخ ابن الاثير، وأجتنبُ النقل من أيّ مصدر شيعي، بل ولا أنقل حتى من مصادر التاريخ السنيّة التي يشكك السنّة في رواياتها، مثل ابن قتيبة الدينوري؛ إذ جاء في كتابه (الامامة والسياسة) أمور وقضايا تُثير الحيرة والعجب، وحينما ينظرُ المرء الى مضامين كتاب ابن الأثير الموسوم بـ(الكامل في التاريخ) يشعر بوجود عصبية أُموية وعثمانيّة فيه، وأحتمل أنه انتهج ذلك الاسلوب مداراة لبعض الاعتبارات، فقد نقل هذا المؤرخ عن احداث مقتل عثمان، إنّ عثمان قتله أهل مصر والكوفة والبصرة والمدينة وغيرهم. وبعدما نقل نصوص وأخبار تأريخية مختلفة يقول:

وقد تركنا كثيراً من الاسباب التي جعلها الناس ذريعة الى قتل [عثمان] لعلل دعت الى ذلك.

وعند نقله لقصة ابي ذر وكيف ان معاوية حمله الى المدينة من الشام بغير وطاء، ونفاه عثمان من المدينة الى الربذة بصورة شنيعة، قال: وقد حصلت امور لا يصحُ نقلها. وعلى هذا فأمّا أن يكون هذا المؤرخ قد انتهج اسلوباً من الرقابة الشخصية ـ حسب التعبير المعاصر ـ وأما ان يكون متعصباً. وهو على كل الاحوال لم يكن شيعياً ولا يميل الى التشيع. بل يحتمل أنه كان اموي وعثماني الهوى. وأُوكد ثانيةً على أن كل ما سأورده بعد الآن انما عن ابن الاثير هذا. أنقل في ما يلي أمثلةً عن الخواص؛ كيف كان الخواص على امتداد هذه السنوات الخمسين

بحيث وصلت الامور الى هذا الحد؟ وحينما أُدقق النظر في احداث وظروف ذلك العصر الأحظ ان هذا الركائز الاربعة: العبودية، والمعرفة، والعدالة والمحبة.. قد تزعزعت. واضرب لكم بعض الامثلة كما وردت في التاريخ عيناً.

مزرعة النشاستج الكبيرة

كان سعيد بن العاص من بني أمية ومن أقارب عثمان. وقد تولى بعد الوليد بن عقبة بن أبي معيط ـ والوليد هو الشخص الذي شاهدتم مقتطفات من حياته في المسلسل التفلزيوني: الامام علي‍‌عليه‌السلام، والذي وقع مقتل الساحر في محضره ـ ليصلح ما كان قد أفسده الوليد. قال ذات يوم رجل في مجلسه: «ما أجود طلحة» ولابد ان طلحة كان قد وهب أحداً مالاً أو تكرّم على شخص: فقال سعيد: (ان مَن له مثل النشاستج لحقيق ان يكون جواداً) وكانت النشاستج ضيعة كبيرة قرب الكوفة يملكها صحابي الرسول طلحة بن عبد الله الذي كان يعيش حينذاك في المدينة. ثم أردف قائلاً: (والله لو أن لي مثله لاعاشكم الله عيشاً رغداً). قارنوا بين هذا الوضع وبين حالة الزهد في عهد رسول الله‌صلى‌الله‌عليه‌وآله والفترة الاولى من بعد رحيله ولاحظوا طبيعة الحياة التي كان يعيشها الأكابر والامراء والصحابة في تلك السنوات وكيف كانوا ينظرون الى الدنيا.

لقد وصلت الامور الى هذا الحد من بعد مضي عشر أو خمس عشرة سنة فقط!

أخرج ثقله من قصره على أربعين بغلاً

المثال الآخر هو أبو موسى الاشعري: والي البصرة ـ وهو الاشعري صاحب الموقف الشهير في قضية التحكيم ـ فقد صعد المنبر ذات يوم حينما كان

والياً على البصرة. كان الناس يستعدون لاحدى الغزوات.. فنادى في الناس وحثّهم على الجهاد وذكر شيئاً في فضل الجهاد ماشياً، فترك نفر دوابهم وأجمعوا ان يخرجوا رجّالة طمعاً في الثواب. (فحملوا على فرسهم) أي طردوها من امام عيونهم لانها تحرمهم من الثواب إلّا ان جماعة آخرين من العقلاء فضّلوا التأمل ومشاهدة حقائق الامور وقالوا لا نعجل في شيء حتى ننظر ما يصنع؛ فان أشبه قوله فعله، فعلنا كما يفعل.

جاء في نص عبارة ابن الاثير في هذا الصدد: (فلما خرج أخرج ثقله من قصره على اربعين بغلاً) كانت تلك ممتلكاته الثمينة وكان مضطراً الى اصطحابها حيثما حل وارتحل وحتى في ميادين الجهاد. وسبب ذلك انه لم تكن ثمة مصارف أو بنوك في ذلك العصر، اضف الى ان الحكومات لا اعتبار لها، فقد يأتيه الأمر من الخليفة وهو في ساحة الجهاد بعزله من منصبه. واذا حصل ذلك لا يمكنه الرجوع الى البصرة وأخذ تلك الاموال لذلك كان مضطراً لحملها معه. فحمل ممتلكاته الثمينة على أربعين بغلاً وأخذها معه الى ميدان الجهاد. فلما خرج جاءه قوم وتعلّقوا بعنانه وقالوا احملنا على بعض هذه الفضول وارغب في المشي كما رغّبتنا، فضرب القوم بسوطه، فتركوا دابته.. فمضى إلّا انهم طبعاً لم يتحمّلوا ذلك منه بل ذهبوا الى المدينة وشكوه الى عثمان فعزله.

ان أبا موسى الذي كان من صحابة الرسول ومن طبقة الخواص، كان على مثل هذا الحال.

امتنع عن اعادة الاموال التي اقترضها من بيت المال

المثال الثالث هو سعد بن بن أبي وقاص الذي عُيّن والياً على الكوفة.

اقترض سعد مالاً من بيت المال. لم يكن بيت المال بيد الوالي، لانهم كانوا في ذلك العصر ينصبّون الوالي للقيام بأمور الحكومة وادارة شؤون الناس، وينصّبون شخصاً غيره للشؤون المالية وهو مسؤول امام الخليفة مباشرة. وحينما عيّن سعد بن أبي وقاص والياً على الكوفة كان خازن بيت المال عبد الله بن مسعود وكان صحابياً جليلاً. بعدما اقترض سعد من عبد الله بن مسعود من بيت المال مالا، تقاضاه ابن مسعود بعد مدة، فلم يتيسر له قضاؤه. فارتفع بينهما الكلام، وأشتد النزاع وكان هاشم بن عتبة بن أبي وقاص حاضراً ـ وهو من اصحاب أمير المؤمنين وكان رجلاً شريفاً ـ فقال: انكما لصاحبا رسول الله ﷺ والناس ينظرون اليكما، لا تتنازعا وحاولا حل القضية بينكما على نحو ما فخرج ابن مسعود ـ وكان رجلاً أميناً ـ ثم استعان بأناس على استخراج المال من دار سعد، وهذا يعني ان المال كان موجوداً. ولما علم سعد استعان بأناس آخرين على منع اولئك. ونتجت عن مماطلة ابن ابي وقاص في رد الاموال منازعة شديدة فاذا كان سعد بن أبي وقاص وهو من اصحاب الشورى الستة قد وصل به الأمر الى هذا الحد بعد بضع سنوات بحيث وصف ابن الاثير تلك الحادثة بالقول: (فكان أول ما نزغ به بين أهل الكوفة) فاول نزاع يقع بين أهل الكوفة ـ بتعبير ابن الاثير ـ سببه رجل من الخواص تغلب عليه حب الدنيا الى هذا الحد.

اشتري جميع هذا الخُمس بخمسمائة درهم

المثال الآخر هو ان المسلمين لما فتحو بلاد افريقية وقسّموا الغنائم في الجيش، كان يجب عليهم ارسال خُمس تلك الاموال الى المدينة، وكان مقدارها هائلاً.

نقل ابن الاثير في موضع آخر ان هذا المبلغ (الخُمس) حينما أُرسل الى

المدينة اشتراه مروان بن الحكم بخمسمائة الف درهم، وكان هذا المبلغ ضخماً جداً اضافة الى ان قيمة ذلك الخُمس كانت اكبر من ذلك المبلغ بكثير. وكان هذا مما أُخذ على الخليفة عثمان فيما بعد. وكان عثمان يعتذر عن ذاك طبعاً ويقول: أنه رحمي، وأنا أصلُ به رحمي لأنه يعيش في ضنك وأنا أريد مساعدته! وخلاصة القول هي أن الخواص كانوا يتهافتون على جمع الاموال.

انظروا الى تغيّر المعايير والموازين وتبدل أحوال الناس

والقضية الاخرى هي انه عزل (عثمان) سعد بن أبي وقاص عن الكوفة واستعمل الوليد بن عقبة بن أبي معيط، وكان الأخير من أقارب الخليفة. ولما دخلها تعجب اهلها من تولية هذا الشخص عليهم لانه كان معروفاً بالحماقة والفساد، وفيه نزلت الآية الشريفة: ﴿**إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا**﴾[1] اي ان القرآن وصفه بالفسق، لانه جاء بخبر عاد بالضرر على البعض في عهد الرسول. انظروا الى المعايير وتبدّل احوال الناس. فهذا الشخص الذي سماه القرآن الذي كان الناس يقرؤونه يومياً ـ فاسقاً اصبح والياً. وحتى ان سعد بن أبي وقاص نفسه، وعبدالله بن مسعود تعجّبا حين شاهداه قادماً الى الكوفة والياً، وقال له عبد الله بن مسعود لما وقع بصرهُ عليه: (ما أدري اصلحت بعدنا أم فسد الناس؟). وكان دهشة سعد بن أبي وقاص من بُعد آخر، حيث قال له: «أكست بعدنا أم حمقنا بعدك؟» فقال له الوليد: «لا تجرعنَّ ابا اسحاق، كل ذلك لم يكن انما هو الملك يتغداه قوم ويتعشاه آخرون». فتألم سعد بن أبي وقاص من هذا الكلام؛ فهو من صحابة الرسول ﷺ وقال له: «أراكم جعلتموها ملكاً». كان عمر سأل سلمان ذات مرة:

---

(١) سورة الحجرات: ٦.

(أملكٌ أنا أم خليفة؟). وكان سلمان شخصية كبيرة ومحترمة وهو من الصحابة الكبار ولرأيه وزن كبير. فقال له سلمان: إن انت جَبيتَ من ارض المسلمين درهماً أو أقل أو أكثر ووضعته في غير حقّه فانت ملك لا خليفة. لقد بيّن له المعيار. قال ابن الاثير: فبكى عمر. فقد كانت موعظة عميقة المغزى حقاً. فالقضية قضية خلافة، والولاية والخلافة معناها الحكومة المقرونة بالمحبة وبالتلاحم مع الجماهير، ويواكبها عطف وحنو على ابناء الشعب، وهي ليست تسلط أو تحكم، في حين لا تحمل الملكيّة مثل هذا المعنى ولا شأن لها بشؤون الناس؛ فالملك حاكم متسلط يفعل ما يشاء. هكذا كان حال الخواص، والى هذا الحد انتهى بهم المآل خلال تلك السنوات. وهذا ما حصل طبعاً في عهد الخلفاء الراشدين الذين كانوا يولون اهمية للتمسك بالاحكام، بسبب معايشتهم فترة طويلة لعهد الرسول الذي لازال صداهﷺ يُدّوي في المدينة حتى ذلك الحين، وكان شخص كعلي بن أبي طالب حاضراً في ذلك المجتمع. ولكن بعد انتقال مركز الخلافة الى دمشق تجاوزت القضية تلك الحدود كثيراً. كانت هذه امثلة بسيطة لما كانت عليه احوال الخواص. ولو نقّب شخص في تاريخ ابن الاثير أو المصادر التأريخية الاخرى المعتبرة لدى الاخوة المسلمين لعثر على آلاف ـ وليس مئات ـ الأمثلة من هذا القبيل.

عندما تضيع المعايير

من الطبيعي حينما تضيع العدالة، وحينما تزول عبودية الله، يصبح المجتمع مجتمعاً خاوياً وتفسد النفوس. فذلك المجتمع حين يصل به التهافت على حطام الدنيا واكتناز الثروة الى ذلك الحد، والشخص الذي ينقل فيه المعارف للناس هو كعب الاحبار اليهودي الذي أسلم لاحقاً ولم يدرك عهد الرسولﷺ؛ فهو لم يدخل

الاسلام في عهد الرسول ﷺ ولا في عهد أبي بكر وأنما في عهد عمر، وتوفي في عهد عثمان.. ما بالك بذلك المجتمع؟! يقول البعض ان تسمية هذا الرجل بكعب الاخبار خطأ، وانما هو (كعب الاحبار) والاحبار جمع حَبر والحبر هو عالم اليهود فهـذا الرجل كان قطب علماء اليهود ... وثب فدخل في الاسلام، ثم أخذ يتحدث في مسائل الاسلام، وكان ذات يوم جالساً في مجلس عثمان اذ دخل أبـو ذر، فقال قولاً أغضب أبا ذر، فقال أبو ذر: مالك ههنا؟ أتـعلّمنا الاسـلام وأحكـامه ونحن سمعناها من رسـول الله ﷺ؟ حـينما تـفتقد المـعايير وتـضيع المـقاييس وتتقوّض القيم، وتفرغ القضايا من المحتوى.. وتقتصر على الظواهـر، وحـينما يستولي حب الدنيا وجمع المال على أُناس قضوا عـمراً مـديداً بـالعزة والزهـد والابتعاد عن زخارف الدنيا وقيّض لهم نشر تلك الراية عـالياً، حـينها يـتصدى لشؤون الثقافة والمعرفة مثل ذلك الشخص الذي اعتنق الإسلام لاحقاً ويـطرح باسم الاسلام ما يراه هو شخصياً لا ما يقوله الإسلام، ثم يريد البعض تقديم قوله على قول مُسلمٍ له سابقة في الايمان!

انحراف الخواص في المجتمع يؤدي الى انحراف العوام

هذا حال الخواص. ثم ان العوام يتبعون الخواص ويسيرون وراءهم حيثما ساروا. ولهذا فانّ من اكبر الجرائم التي ترتكبها الشخصيات البارزة المتميّزة في المجتمع هو انحرافها؛ لان انحرافها ينتهي الى انحراف الكثير من الناس الذين إذا رأوا القيم قد خُرقت وان الاعمال تناقض الاقوال وتناقض مـا جـاء فـي سـنة الرسول ﷺ، تجدهم يسيرون هم أيضاً في هذا المسار أسوة بالخواص. وانقل لكم مثلاً عن عامة الناس.. كتب والي البصرة الى الخليفة يذكر له كثر أهـل البـصرة وعجز خراجهم عن المصارف، وسأله ان يزيد أهل البصرة خراج مدينتين. ولما

بلغ أهل الكوفة ذلك سألوا واليهم عمار بن ياسر ـ الرجل النبيل الذي بقي صامداً كالطود الشامخ .. ولا شك في انه كان هناك اشخاص لم تهزهم الهزاهز إلّا أن عددهم كان قليلاً ـ ان يكتب للخليفة يطلب منه ان يزيدهم خراج مدينتين. إلّا أنه رفض تلبية طلبهم فأبغضوه لذلك وشكوه الى الخليفة، فعزله عن الولاية. ووقع مثل هذا لأبي ذر ولآخرين، ولعل عبد الله بن مسعود كان أحدهم. فحينما لا تراعى مثل هذه الجوانب يتجرد المجتمع حينها من القيم. وهنا تكمن واحدة من تلك العِبر.

خلو المجتمع من القيم مسؤولية في اعناق الجميع

إعلموا يا اعزائي ان المرء لا يقف على حقيقة مثل هذه التطورات الاجتماعية إلّا بعد مرور وقت طويل. وهذا ما يوجب علينا الانتباه والحذر والمراقبة، وهو معنى التقوى.. فالتقوى معناها ان يتحرّز على نفسه من ليس له سلطان إلّا على نفسه، وان يتحرز على نفسه وعلى غيره من له سلطان على غيره أيضاً. أمّا الذين يقفون على رأس السلطة فيجب عليهم التحرز على أنفسهم وعلى المجتمع كلّه لكي لا ينزلق نحو التهافت على الدنيا والتعلق بزخارفها، ولا يسقط في هاوية حب الذات.

وهذا لا يعني طبعاً الإنصراف عن بناء المجتمع، بل يجب بناء المجتمع والاستكثار من الثروة، ولكن لا لأنفسهم، فهذا مستقبح. كل من لديه قدرة على زيادة ثروة المجتمع والقيام بأنجازات كبرى، يكسب ثواباً عظيماً. لقد استطاع البعض خلال هذه السنوات بناء البلد ورفع راية الإعمار عالياً وانجاز أعمال كبرى، وهذه مفخرة لهم، ولا يدخل عملهم هذا في اطار حب الدنيا. وانما يصدق حب الدنيا فيما لو كان المرء يطلب النفع لذاته ويعمل لنفسه أو يفكر في جمع

الثروة لنفسه من بيت مال المسلمين أو من غيره. وهذا هو التصرف القبيح. يجب اذن الحذر من الوقوع في مثل هذه المنزلقات وإذا إنعدم الحذر ينحدر المجتمع تدريجياً نحو التخلي عن القيم ويبلغ مرحلة لا تبقى له فيها سوى القشرة الخارجية وقد ياتيه على حين غرّة ويفاجئهُ ابتلاء شديد ـ كالإبتلاء الذي تعرض له ذلك المجتمع حين اندلاع ثورة أبي عبد الله ـ فلا يخرج منه ظافراً. عُرضت على عمر بن سعد ولاية الري وكانت الري في ذلك الوقت شاسعة وغنيّة. ولم يكن منصب الامارة [على عهد بني امية] كمنصب المحافظ في الوقت الحاضر؛ فالمحافظون اليوم موظفون حكوميون يتقاضون مرتّبات ويبذلون جهوداً شاقة. ولم يكن الأمير حينذاك على هذا النحو الشخص الذي ينصّب والياً كان مطلق اليد في التصرف بجميع الثروات الموجودة في تلك المدينة يتصرف فيها كيف يشاء بعد ان يرسل مقداراً منها الى عاصمة الخلافة ولهذا كان لمنصب الوالي أهميّة عُظمى. ثم شرطوا تولية الري بمحاربة الحسينعليه السلام من الطبيعي ان الانسان النبيل وصاحب القيم لا يتردد لحظة في رفض مثل هذا العرض، ما قيمة الري وغير الري؛ لو وضعت الدنيا بين يديه فلا يعبس بوجه الحسينعليه السلام.. لا يكفهر بوجه الحسين؛ فما بالك بالنهوض لمحاربة عزيز الزهراءعليها السلام وقتله هو وأطفاله. هكذا يقف الانسان الذي يحمل قيماً. ولكن حينما يكون المجتمع خاوياً ومجرداً من القيم، وحينما تضعف هذه المبادئ الأساسية بين أفراد المجتمع، ترتعد الفرائص عند ذاك وأكثر ما يستطيع المرء عمله في مثل هذا الموقف هو انه يستمهلهم ليلة واحدة للتفكير في الأمر. وحتى لو أنه فكر سنة كاملة لوصل الى نفس النتيجة ولأتخذ نفس القرار؛ اذ لا قيمة لمثل هذا النمط من التفكير إلّا أن الرجل فكر في الأمر ليلة وأعلن في اليوم التالي عن موافقته على ذلك العرض. إلّا ان الله تعالى لم يمكنه من بلوغ تلك الغاية. وكانت نتيجة ذلك ان وقعت

فاجعة كربلاء.

الحسين عليه السلام ابقى الاسلام حياً في النفوس

اشير هنا بكلمة في تحليل واقعة عاشوراء.. شخص كالحسين عليه السلام - والحسين تجسيد لكل القيم الالهيّة والإنسانية - ينهض بالثورة حتى يقف بوجه استثراء الانحطاط الذي أخذ يتفشى في أوصال المجتمع وأوشك أن يأتي على كل شيء فيه. بلغ الانحطاط أن لو شاء الناس العيش حياة اسلامية كريمة، فانهم يجدون ايديهم خالية من كل شيء وفي ظرف كهذا يثبت الامام الحسين عليه السلام ويقف بكل وجوده امام ذلك الخواء والفساد المتصاعد، ويضحّي من أجل القيم الالهيّة بنفسه وبأحبائه وبأبنيه: علي الاصغر وعلي الاكبر، وبأخيه العباس.. ثم يصل الى النتيجة المطلوبة.

أحيى الحسين جدّه رسول الله وهو معنى قول النبي صلى الله عليه وآله: **«وأنا من حسين»**. هذا هو الوجه الآخر للقضيّة. فواقعة كربلاء الزاخرة بالحماسة، وهذه الملحمة الخالدة لا يمكن ادراك كنهها إلّا بمنطق العشق وبمنظار الحب، فهي واقعة لا يتيسير النظر اليها إلّا بعين العشق ليفهم ما الذي صنعه الحسين بن علي من بطولة ومجد خلال يوم وليلة اي منذ عصر يوم التاسع من المحرم وحتى عصر العاشر منه.. بحيث خلّده في هذه الدنيا وسيخلّده الى الأبد، ولهذا أخفقت جميع الجهود التي بذلت لمحو حادثة الطف من الأذهان وطيّها في ادراج النسيان.

صورة من واقعة الطف

أقرأ عليكم مقتطفات من كتاب المقتل - المعروف باللهوف - لابن طاووس.. نمر على بعض تلك المشاهد العظيمة لذكر مصيبة الحسين عليه السلام وكتاب

المقتل هذا، كتاب معتبر جداً، ومؤلفه السيد علي بن طاووس عالم فقيه وعارف كبير، وصدوق موثق، وموضع احترام لدى الجميع، واستاذ فقهاء كبار، وكان أديباً وشاعراً وذا شخصية بارزة، كتب أول مقتل معتبر وموجز. وقبل كتاب اللهوف كتب الكثير في مقتل الحسين‌عليه‌السلام وحتى استاذه ـ ابن نما ـ له كتاب في المقتل، والشيخ الطوسي أيضاً له كتاب في المقتل وغيرهما، إلّا انه حينما كتب «اللهوف» غطى على جميع الكتب الاخرى في المقتل لأنه كتاب قيّم إختيرت عباراته بدقة وايجاز. من جملة المشاهد التي يصورها في كتابه هذا هو بروز القاسم بن الحسن الى الميدان وكان فتىً لم يبلغ الحُلم. ليلة عاشوراء أعلم الحسين أصحابه بأن المعركة ستقع وأنهم سيُقتلون جميعاً، فأحلّهم وأذنَ لهم بالإنصراف، فأبوا إلّا أن يكونوا الى جنبه. وفي تلك الليلة سأل هذا الفتى عمّه الإمام الحسين‌عليه‌السلام هل سيُقتل هو أيضاً في ساحة المعركة؟ فأراد الامام الحسين اختباره ـ على حد تعبيرنا ـ فقال له: كيف ترى الموت؟ قال: أحلى من العسل.

لاحظوا، هذا مؤشر على طبيعة القيم التي كان يحملها أهل بيت الرسول ومن تربى في حجور أهل البيت‌عليهم‌السلام فقد ترعرع هذا الفتى منذ نعومة اظفاره في حجر الامام الحسين‌عليه‌السلام. فكان عمره حين شهادة ابيه ثلاث أو أربع سنوات. فتكفل الإمام الحسين تربيته. وفي يوم عاشوراء وقف هذا الفتى الى جانب عمّه. وجاء في هذا المقتل ذكر هذه الواقعة على النحو التالي: «قال الراوي: وخرج غلام كأن وجهه شقة القمر وجعل يقاتل».

وقد دوّن الرواة أحداث ووقائع عاشوراء بتفاصيلها؛ فذكروا اسم الضارب والمضروب ومَنْ ضرب أولاً وأسم أول مَنْ رمى، ومن سلب، ومن سرق. فالشخص الذي سرق قطيفة أبي عبد الله ذكروا اسمه، وكان يطلق عليه فيما بعد لقب (سارق القطيفة). ومن الواضح أن أهل البيت ومحبيهم لم يتركوا هذه الحادثة

تضيع في مجاهيل التاريخ. «فضَرَبَهُ ابن فضيل الازدي على رأسه ففلقه، فوقع الغلام لوجهه وصاح: يا عماه، فجلى الحسين عليه السلام كما يجلي الصقر، وشدّ شدة ليث أغضب، فضرب ابن فضيل بالسيف فاتقاها بساعده فأطنّها من لدن المرفق، فصاح صيحة سمعه أهل العسكر، فحمل أهل الكوفة لينقذوه فوطأته الخيل حتى هلك». دارت معركة عند مصرع القاسم.. هزمهم الحسين عليه السلام بعد أن قاتلهم. قال الراوي: «وانجلت الغبرة فرأيت الحسين عليه السلام قائماً على رأس الغلام وهو يفحص برجله، والحسين يقول: بعداً لقومٍ قتلوك». ياله من مشهد مؤثّر يعكس رقة الحسين وحبّه لهذا الفتى، من جهة، وصلابته اذ اذن له في القتال والتضحية من جهة اخرى. كما ويدّل أيضاً على مالهذا الفتى من عظمة روحية، وما يتصف به الاعداء من قسوة تجعلهم يتصرفون مع هذا الفتى بمثل هذا السلوك. ويصوّر كتاب اللهوف مشهداً آخر من مشاهد تلك الواقعة وهو بروز علي الاكبر للقتال، وكان مشهداً مثيراً حقاً من جميع ابعاده وجوانبه. فهو مثير من جهة الإمام الحسين، ومثير من جهة هذا الشباب ـ علي الاكبر ـ ومثير من جهة النساء وخاصة عمّته زينب الكبرى. وذكروا أن علياً كان بين الثامنة عشر من عمره على أقل التقادير أو مابينها وبين الخامسة والعشرين أو في الخامسة والعشرين على اعلى التقادير. قال الراوي: «خرج علي بن الحسين، وكان اصبحُ الناسُ وجهاً وأحسنهم خلقاً، فاستأذن أباه في القتال فأذن له».

لما جاءه القاسم بن الحسن واستأذنه، لم يأذن له في بداية الأمر، وبعد أن ألحّ الغلام أذن له.

أما بالنسبة لعلي بن الحسين، فبما انه ابنه، فما ان استأذن حتى اذن له. «ثم نظر اليه نظرة آيس منه وأرخى عليه السلام عينيه وبكى».

هذه هي احدى الخصائص العاطفية التي يتميز بها المسلمون، وهي البكاء

عند المواقف والاحداث المثيرة للعواطف. فأنتم تلاحظون انهﷺ بكى في مواقف متعددة، وليس بكاؤه عن جزع ولكنه لشدة العاطفة، والإسلام يُنمي هذه العاطفة لدى الفرد المسلم، ثم قال: «**اللّهمّ إشهد فقد برز إليهم غلام أشبه الناس خلقاً وخُلقاً ومنطقاً برسولك**».

أريد أن أُبيّن لكم هنا مسألة وهي أن فترة الطفولة التي عاشها الحسين الى جنب جدّه، كان النبي يحبه كثيراً، وكان هو بدوره أيضاً شديد الحب لرسول الله. وكان تقريباً في السادسة أوا لسابعة من عمره عند وفاة الرسولﷺ وبقيت صورته عالقة في ذهنه، وحب الرسول متجذراً في اعماق قلبه. ثم رزقه الله فيما بعد ولداً، هو علي الأكبر..

مضت الأيام وشب هذا الفتى واذا به يشبه في خلقه رسول الله تمام الشبه، فترسّخ حبهُ في قلب الحسين كحبه للنبي، فكان هذا الفتى يشبه النبي في شكله وشمائله وفي صوته وكلامه وفي اخلاقه، ويحمل نفس ذلك الكرم وشرف المحتد ثم قالعليه السلام: «**وكنّا اذا اشتقنا الى نبيك نظرنا إليه**»، ثم صاح الحسينعليه السلام: (يا ابن سعد قطع الله رحمك كما قطعت رحمي). فتقدم علي الاكبر نحو القوم فقاتل قتالاً شديداً وقتل جمعاً كثيراً، ثم رجع الى أبيه وقال: «**يا أبة العطش قد قتلني وثقل الحديد قد أجهدني، فهل الى شربة ماء من سبيل**»؟

فقال له الحسين عليه السلام: «**قاتل قليلاً فما أسرع ما تلقى جدك محمداًﷺ فيسقيك بكأسه الأوفى شربة لا تظمأ بعدها**»، فرجع الى موقف النزال وقاتل اعظم القتال، وبعد أن ضُرب نادى: (يا أبتاه عليك السلام، هذا جدي يقرؤك السلام ويقول لك عجل القدوم الينا).

هذه مشاهد مروّعة من تلك الواقعة الخالدة.

وجرت في مثل هذا اليوم ـ الحادي عشر من المحرم ـ الذي يعتبر يوم

زينب الكبرى ـ سلام الله عليها ـ مصائب مفجعة؛ فهي قد أخذت على عاتقها منذ لحظة استشهاد الحسين عليه السلام ثقل الامانة. وقطعت ذلك الشوط بكل شجاعة واقتدار وكما هو خليق ببنت أمير المؤمنين؛ وهم الذين استطاعوا تخليد الاسلام وصيانة معالم الدين. ولم تكن واقعة الطفوف هذه استنقاذاً لحياة شعب أو حياة أمة فحسب، وانّما كانت استنقاذاً لتاريخ بأكلمه. فالامام الحسين، وأخته زينب، واصحابه وأهل بيته أنقذوا التأريخ بموقفهم البطولي ذاك.

السلام عليك يا أبا عبد الله الحسين وعلى الأرواح التي حلّت بفنائك.. عليك منّي سلام الله أبداً مابقيت وبقي الليل والنهار ولاجعله الله آخر العهد منّي لزيارتك.. السلام على الحسين وعلى علي بن الحسين وعلى أولاد الحسين وعلى أصحاب الحسين.

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿قل هو الله أحد* الله الصمد* لم يلد ولم يولد* ولم يكن له كفواً أحد﴾

اللهم نقسم عليك بمحمد وآل محمد أن تثبّت أقدامنا على دينك ونهج كتابك. اللهمّ اجعل مجتمعنا مجتمعاً إسلامياً.. اللهمّ ولا تفرق بيننا وبين الاسلام. اللهمّ انصر الاسلام والمسلمين في كل أرجاء المعمورة. اللهمّ انشر بيننا قيم الاسلام وأواصر الإخوة والمحبّة والعاطفة، والعبودية لك، والعدل الشامل. اللهمّ أبعد عن رحمتك كل مَنْ يسعى من الاعداء لعزل مجتمعنا عن الاسلام. اللهمّ اجعل القلب المقدس لولي العصر أرواحنا فداه مسروراً بنا، واجعلنا من انصاره واعوانه. اللهمّ استجب دعاءنا لشعبنا، وتلطّف برحمتك على شهدائنا الأعزاء وعلى امام الشهداء (رضوان الله عليه) وعلى جميع المعوّقين.

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته

الفصل الثاني

الخواص الذين ثبتوا على الحق

الخواص الذين ثبتوا على الحق

يقول السيد القائد الخامنئي:

اعزائي! ان المرء لا يقف على حقيقة مثل هذه التطورات الإجتماعية إلّا بعد مرور وقت طويل. وهذا ما يوجب علينا الحذر والمراقبة وهذا هو معنى التقوى، فالتقوى معناها أن يتحرز على نفسه من ليس له سلطان إلّا على نفسه وأن يتحرز على نفسه وعلى غيره من له سلطان على غيره أيضاً، اما الذين يقفون على رأس السلطة فيجب عليهم التحرز على انفسهم وعلى المجتمع كله لكي لا ينزلق نحو التهافت على الدنيا والتعلق بزخارفها، ولا يسقط في هاوية حب الذات.

لك سلطان العراقين

سنتعرف في السطور القليلة القادمة على شخصية فذة يمكن اتخاذها قدوة في الايمان والاستقامة والصبر والبصيرة لكي نتابع بحثنا حول موضوع الخواص واثر مواقفهم المصيرية في تحديد مسار التاريخ. هذه الشخصية هي من صحابة رسول الله ﷺ وأمير المؤمنين والامام الحسن عليهما السلام، وتعتبر من الشخصيات السياسية في التاريخ العربي وكان صمودها في الكثير من الحوادث التي جرت آنذاك ان تكوّن منه نموذجاً من خواص أهل الحق. هذه الشخصية هي: قيس بن سعد الانصاري كان أبوه سعد بن عبادة رئيساً لقبيلة الخزرج وهو أحد الذين دعوا رسول الله ﷺ الى القدوم للمدينة وبذل أمواله في سبيل نصرة النبي ﷺ والذين هاجروا معه، واصبح هو وابنه قيس فيما بعد من صحابة النبي ﷺ البارزين وقد

اثنى الرسولﷺ عليهما في مناسبات متعددة. وبعد أن ارتحل النبيﷺ الى الرفيق الاعلى واستلام ابي بكر للخلافة امتنع سعد بن عبادة عن مبايعته وهاجر الى بلاد الشام، وفي أحدى الليالي وهو في طريقه الى الشام قُتل سراً من قبل مجهولين وأشيع فيما بعد بأن سعداً قتلته (الجن). واستمر تعلق هذه العائلة بأهل البيتعليهم السلام بعد حادثة القتل المدبّرة. وكانت المواقف المصيرية لابنه قيس خلال الحوادث التي جرت في زمن خلافة الامام عليعليه السلام وابنه الحسنعليه السلام الأثر الكبير في تحديد مسار الاحداث وكان أحد الذين اشتركوا مع جيش الامامعليه السلام الذي خرج من المدينة المنوّرة صوب البصرة للقضاء على الفتنة التي أحدثها الناكثون هناك، وبعد انتهاء حرب الجمل عاد قيس الى الكوفة مع الجيش وعند وصوله الى الكوفة عيّنه الامام حاكماً على ولاية مصر وطلب منه أن يأخذ معه مجموعة مسلحة تقوم بحمايته في الطريق الى‌مصر ولان مصر كانت تعيش في تلك الايام فتنة اشعلها انصار عثمان. وقبل ان يشد الرحال رأى بأن الامام يستعد للذهاب الى صفين لحرب جيش معاوية في الشام فابدى‌عدم استعداده على أخذ تلك المجموعة المسلحة معه ولهذا قال للامام: «... قد فهمت ماذكرت... فامّا الجند فأني ادعه لك فاذا احتجت اليهم كانوا قريباً منك، وان اردت بعثهم الى وجه من وجوهك كان لك عدة... لكي اسيرُ الى مصر بنفسي وأهل بيتي...»[1].

فذهب مع عائلته الى مصر بلا جيش وبدون حراسة ووصل بأقرب فرصة متجشماً صعاب السفر واخطاره. ان هذه التضحيات بحد ذاتها ان دلت على شيء فانما تدل على‌صدق ايمان هذا الرجل وثباته على المبدأ وعدم تعلقه بمغريات الدنيا من مالٍ أو جاهٍ أو طمع. وقد دخل مصر وليس معه إلّا سبعة اشخاص

---

(١) الامام علي بن أبي طالب / عبد الفتاح عبد المقصود.

وكتاب الامامعليه السلام الذي جلبه معه يدعو به الناس الى بيعته، وبعد بضعة أيام من وصوله ذهب الى المسجد الجامع (مسجد الفسطاط) وصعد المنبر وقال: (الحمد لله الذي جاء بالحق وأمات الباطل وكبت الظالمين... ايّها الناس إنا قد بايعنا خير مَنْ نعلم بعد محمد نبينا فقوموا فبايعوا على كتاب الله وسنّة رسوله فان نحن لم نعمل لكم بذلك فلا بيعة لنا عليكم...)[1].

وقد اشار قيس بن سعد في خطبته هذه الى أمر مهم وهو ان علياًعليه السلام أفضل الناس بعد رسول الله صلى الله عليه وآله وهذه الاشارة بحد ذاتها تدل على أنّه من انصاره والحاكمين بحكمه. ان كلام قيس قد سحر الحاضرين وكذلك وقاره وسكينته، امّا ذكاؤه اللامحدود فقد جعله بمصاف السياسيين في عصره، إلّا أن وصوله الى مصر كان مصدر قلق لمعاوية ولرفيقه في التآمر عمرو بن العاص. وأخيراً لجأ معاوية الى الحيلة والخداع لغرض استمالة قيس فكتب اليه:

(من معاوية بن أبي سفيان الى قيس بن سعد: سلام عليك. اما بعد... فان استطعت ان تكون ممن يطلب بدم عثمان فافعل. تابعنا على أمرنا ولك سلطان العراقين (الكوفة والبصرة) إن أنا ظفرت مابقيت... ولمن أحببت من أهل بيتك سلطان الحجاز ما دام لي سلطان وسلني غير هذا ما تحب فانك لا تسألني عن شيء إلّا أوتيته... والسلام»[2].

وخلاصة الرسالة التي بعثها معاوية الى قيس تدور حول أمرين الاول: حثه على المطالبة بدم عثمان والثاني: لوّح له بالمال والجاه وأنه سيعطيه ملك العراقين الذي كان يشمل آنذاك العراق ونصف ايران وفي حالة عدم الاكتفاء يعطيه ملك

---

(١) المصدر السابق.

(٢) المصدر السابق.

الحجاز ان اراد، كل ذلك وضعه معاوية تحت تصرّف قيس لغرض شراء ذمته وابعاده عن علي عليه السلام.

لم يرد قيس على رسالة معاوية بسرعة وانما ترك معاوية في قلق واضطراب مدة من الزمن موجهاً أنظاره تجاه مصر في انتظار الجواب وفي يوم من الايام وصلت رسالة قيس المغلقة الى يد معاوية وجاء فيها (... العجب من اغترارك بي والطمع فيّ! أتسومني الخروج من طاعة اولى الناس بالإمرة وأقولهم للحق وأهداهم سبيلاً، وأقربهم من رسول الله وسيلة وتأمرني بالدخول في طاعتك ـ طاعة أبعد الناس من هذا الأمر وأقولهم للزور وأضلهم سبيلاً من الله ورسوله وسيلة: طاغوت من طواغيت ابليس!؟)[1].

لقد اعربت هذة الرسالة عن الفشل الذريع لمعاوية في ابعاد قيس عن إمامه، فعاد معاوية الى التفكير بحيلة اخرى وقد استعان هذه المرة برفيقه في التآمر عمروبن العاص وتوصلا الى حيلة جديدة وهي الاساءة الى سمعة قيس والتشكيك به عند علي عليه السلام إلّا ان الإمام لم يكن يشك بايمانه ووفائه فقد امتحنه بمواقف كثيرة فوجده ثابتاً لا تهزه الهزائز ولا تغويه المطامع وقد ظل قيس متمسكاً بمواقفه حتى ذهب عليه السلام شهيداً مظلوماً.

وبعد شهادة أمير المؤمنين عليه السلام بقي على موقفه ولازم الامام الحسن عليه السلام وأخذ يشد الناس نحو قيادته ولما أعلن الامام الحسن عليه السلام عن عزمه للخروج الى حرب معاوية ودعا الناس الى الاستعداد وجد قيس بن سعد وانصاره انّ الغالبية من الناس قد سكتت وتخاذلت فأخذوا يلومونهم على تخاذلهم وبعثوا فيهم روح النشاط الى حرب عدوهم ثم اظهروا للامام عليه السلام الطاعة والانقياد لإمره فشكر

---

(١) المصدر السابق.

الامام مواقفهم المشرّفة وأعدّ الامام جيشاً في معسكر النخيلة واختار الى قيادته عبيد الله بن عباس ورشّح قيس بن سعد لقيادة الجيش من بعده، وقبل ان يلتقي الجيشان حاول معاوية شراء ضمائر بعض قادة جيش الامام عن طريق الأموال الضخمة التي بذلها لهم، ولما رأى معاوية ان عملية الرشوة قد نـجحت والتـحق الكثير من معسكر الامام الى معسكره حاول استمالة عبيد الله بن عباس فأرسل اليه رسالة اغراه بها وعرض عليه مبلغ مليون درهم فلما وصلت رسالة معاوية الى عبيد الله ظل ساهراً ليله يفكر بالمغريات الضخمة التي عرضها عليه معاوية وأخيراً سوّلت له نفسه الاثيمة بالغدر ونكث العهد فاستجاب لمعاوية وانحرف عن الطريق المستقيم وخان الله ورسوله والتحق بمعسكر الظلم والجور ليلاً ومعه ثمانية آلاف من جيشه البالغ اثنى عشر ألفاً فاضطربت البـقية البـاقية مـن الجـيش بـالنزاع والخلاف ولما رأى قيس بن سعد ان الفتنة قد ضربت اطنابها على جيش الامام قام فصلى بهم صلاة الصبح وبعد الفراغ منها قام خطيباً وقال لهم (إن هذا (عبيد الله بن عباس) وأباه وأخاه لم يأتوا بيوم خيراً قط، إن أباه عمّ رسول الله ﷺ خـرج يقاتله ببدر، فأسره أبو اليسر كعب بن عمرو الانصاري فاتى بـه رسـول الله ﷺ فأخذ فداءه، فقسمه بين المسلمين وان اخاه ولاّه عليّ على البصرة فسرق ماله ومال المسلمين فاشترى به الجواري، وزعم أن ذلك له حلال وان هذا ولاّه عليّ على اليمن فهـرب مـن بسـر بن أرطأة، وترك ولده حتى قتلوا، وصنع الآن هذا الذي صنع)[1].

وانبرى الجيش بجميع كتائبه معلناً التأييد لخطاب قـيس وهـم يـهتفون:

---

(١) حياة الامام الحسن بن علي عليه السلام / باقر شريف القرشي ج ٢ ص ٩٦.

(الحمد لله الذي أخرجه من بيننا، فانهض بنا الى عدّونا)[1].

وبقي قيس بن سعد مع أربعة آلاف مقاتل في مواجهة جيش الشام البالغ ستين الفاً وبعد أن وجد معاوية ان عملية شراء الضمائر الرخيصة لقادة جيش الامام وزعمائه من امثال عبيد الله بن عباس قد نجحت حاول هذه المرة شراء ذمة قيس بن سعد فكتب له وعرض عليه مبلغ مليون درهم وهو نفس المبلغ الذي اشترى به ذمة عبيد الله بن عباس فرد عليه وقال: (لا والله لا تلقاني أبداً إلّا بيني وبينك الرمح)، وظل قيس مرابطاً مع جيشه وارسل تقريراً عن الاوضاع الى الامام الحسن عليه السلام الذي كان يتخذ من منطقة «ساباط» قرب المدائن معسكراً له. ولما يئس معاوية من استمالة قيس عن طريق شراء ذمته كتب اليه رسالة جوابية تضمّنت كثير من السب والشتم جاء فيها (أمّا بعد فانك يهودي ابن يهودي تشقي نفسك وتقتلها فيما ليس لك فان ظهر احب الفريقين اليك نبذك وعزلك وان ظهر أبغضهما اليك نكل بك وقتلك...)[2].

فكتب اليه قيس بن سعد (أما بعد فانما أنت وثن ابن وثن، دخلت في الاسلام كرهاً، وأقمت فيه فرقاً، وخرجت منه طوعاً، ولم يجعل الله لك فيه نصيباً، لم يقدم اسلامك، ولم يحدث نفاقك، ولم تزل حرباً لله ولرسوله وحزباً من احزاب المشركين وعدواً لله ونبيه...).

بهذة اللهجة خاطب قيس معاوية بالرغم مما كان يعانيه من مصاعب في جيشه المتزلزل الذي فرّ قائده والتحق بجيش العدو ولكنه ظل محافظاً على روحيته وصلابته وحتى بعد أن تم الصلح بين الامام الحسن عليه السلام ومعاوية كان قيس

---

(١) المصدر السابق ص ٩٧.

(٢) بحار الانوار: ج ٤٤ ص ٥٢.

من العقبات التي يفكر بها معاوية حيث لم تتم بيعته لمعاوية بشكل سهل وبقي فيما بعد واقفاً بمفرده يواجه اكاذيب بني أمية يُشهّر بهم وبعدم صلاحيتهم لتولي أمور المسلمين.

ان مطالعة بسيطة لخصائص شخصية قيس بن سعد نجد أن هناك خصلتين مهمتين لصمود هذه الشخصية أمام الصعاب وهاتين الخصلتين (الصبر والبصيرة) وقد اعتبرها الامام عليعليه السلام من شروط الاستقامة والثبات على الطريق المستقيم واشار اليهما السيد القائد الخامئني في خطاباته واعتبرهما من شروط الصمود على الصراط المستقيم. وخلاصة القول: ان اي انسان يريد الاستقامة والبقاء في الصراط المستقيم يحتاج الى ثلاثة عناصر مهمة لتغذية مسيرته وهي الصبر والبصيرة والتقوى.

هو ناصحٌ لكم شديد على عدوّكم

لا يزال صوته يرن في اعماق التاريخ بالرغم من مرور أربعة عشر قرناً، كان فارساً شجاعاً ذا بصيرة حامل راية الاسلام في جيش عليعليه السلام ألا وهو مالك الاشتررضي الله عنه من بني مذحج اذا أردت التعرف عليه فاسمع ما قاله أمير المؤمنين فيه «... **لا ينامُ أيام الخوف و لا ينكُلُ عن الاعداء ساعات الرّوع، أشد على الكفّارِ من حريقِ النارِ وهو مالكُ بن الحارثِ أخو مَذْحجٍ ...**»[1].

كان هذا الوصف من قبل الامامعليه السلام لمالك الاشتر أيام كانت مصر تعيش الفتنة وقد كتب الامام رسالة لاهل مصر جاء فيها وصف هذا البطل. وقد وصفه امير المؤمنينعليه السلام في مكانٍ آخر: «**مالك بن الحارث الاشتر... فانّهُ ممّن لا**

---

(١) نهج البلاغة / صبحي الصالح / (الكتاب ٣٨).

يخافُ وهنُهُ ولا سقطتُهُ ولا بطؤُهُ عما الاسراعُ إليه احزمُ ولا إسراعُهُ الى ما البطءُ عنه أمثلُ»[1].

وقد وصفه عليه السلام في مكان ثالث وقال «... **فانّه سيف من سُيوفِ الله لاكليلُ الظُبةِ، ولانابي الضريبة: فان أمرَكم أن تنفروا فانِفروا وإن أمـرَكـم أن تُـقيموا فأقيموا فانّه لا يُقدم ولا يحجم، ولا يؤخر ولا يقدّم إلّا عن أمري وقد آثرتكم به على نفسي لنصيحته لكم وشدة شكيمته على عدُوّكم»**[2].

واذا اردت المزيد من التعرف على منزلته فراجع الكتاب الذي كتبه امـير المؤمنين له عندما ولاه وهو من الكتب الطويلة تحت رقم (٥٣) من نهج البلاغة. كان مالك الأشتر من الذين خالفوا الاعمال التي قام بها عثمان ايام خلافته ومن ابرز هذه الاعمال استغلاله بيت مال المسلمين بالبذخ عـلى عشـيرته ومـقربيه وقيامه بتنصيب الولاة الغير الصالحين للإدارة والذين ليس لهم سابقة في الاسلام، واهانته للصحابة المؤمنين واصدار الأوامر بابعادهم عن المدينة المنورة. وقصة اعتراض أبي ذر على سياسته معروفة حيث قام بابعاده عن مركز الخلافة (المدينة المنورة) الى الشام ليكون تحت ضغط معاوية وبعد أن فشل معاوية بشراء ديـنه بالاموال اعاده الى المدينة المنورة ولما ضاق به عثمان من كثرة اعتراضه عـلى السياسة الظالمة أبعده الى صحراء (الربذة) المقفرة من السكان وفـي اللـحظات الاخيرة من حياة هذا الصحابي الجليل المظلوم تحيّرت زوجته وأصابها الذهول من هول الموقف وأخذت تفكر في تغسيله ودفنه فقال لهـا أبـو ذر رضي الله عنه قـال لي رسول الله صلى الله عليه وآله: «**يا أبا ذر تعيش وحدك وتدفن وحدك وتحشر وحدك ويسعد فيك**

---

(١) نهج البلاغة / صبحي الصالح / الكتاب (١٣).
(٢) نهج البلاغة / صبحي الصالح / (الكتاب ٣٨).

أُناس من أهل العراق يتولون غسلك ومواراتك في قبرك»[١].

ويسّر الله له وفداً من أهل العراق كانوا في طريقهم لحج بيت الله الحـرام، فلوّحت لهم زوجة أبي ذر فمالوا اليها، واصيبوا بالذهول والدهشة حينما علموا ان الميت هو ذلك الصحابي الجليل الذي كان رسول الله يُجلّه ويفضله على الكثير من اصحابه فتولّوا تغسيله ودفنه وحملوا زوجته وابنته الى المدينة وكان من ضـمن هؤلاء مالك الاشتر وحجر بن عدي[٢] اللذان اشاد بهما رسول الله واعتبرهما من ثابتي الايمان، نعم ان مالكاً قد عرف الحق وأهله وعرف الباطل واعترض على أهله وحمل سيفه في سبيل نصرة الحق الى آخر لحظه من عمره الشريف. وفـي أيام خلافة علي عليه السلام كانت منزلة الاشتر بالنسبة للامام كمنزلة علي عليه السلام الى رسول الله صلى الله عليه وآله. وعندما أرسل معاوية رسالة الى الامام علي عليه السلام هدده فيها بامتلاكه جيش جرار لا بداية له ولا نهاية اجابه الامام عليه السلام برسالة قال فيها: لدي رجل (ويقصد مالك الاشتر) سيحصد ذلك الجيش ويلتقطهم كما يلتقط الديك حبات القمح ولما قرأ معاوية هذه الرسالة قال لمن حوله: حقاً كما قال علي انه مالك الاشتر.

وفي الوقت الذي كان فيه أبو موسى الأشعري والياً على الكوفة كـتب له أمير المؤمنين عليه السلام وقد بلغه عنه تثبيطه الناس عن الخروج لقتال اصحاب الجمل اذ كان يقول لاهل الكوفة ان علياً امام هدى وبيعته صحيحة إلّا أنه لا يجوز القتال معه لأهل القبلة وطبيعي أن هذا القول بعضه حق وبعضه باطل، وبهذا الكلام شجّع أهل الكوفة على التخاذل والجلوس في البيوت وظل مالك الاشتر يتابع الرسائل التي تصل من الكوفة والتي كانت تحمل أخبار تمرد ووقاحة أبي موسى فازداد

---

(١) شرح النهج: ج ٢ ص ٤٠٤.

(٢) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ج ١٥ ص ١٠٠.

غضباً وطلب من الامام عليعليه السلام ان يجعله على ولاية الكوفة لإصلاح أوضاعها المتدهورة فوافق الامام على ذلك وأرسله الى الكوفة ومنذ وصوله أخذ يفكر بالمهمة التي جاء من أجلها فتفقد نواحي المدينة والتقى بأهلها موضّحاً لهم الاهداف التي ارسله الامام من اجل تحقيقها وهي فضح الدور النفاقي والانتهازي الذي لعبه ابو موسى في الكوفة وبعد فترة قليلة استطاع مالك الاشتر ان يكوّن جيشاً مختصراً من اهالي الكوفة بعد أن فهموا الحقائق التي كان قد زوّرها عليهم أبو موسى الاشعري، وعندما كان ابو موسى يُلقي كلمته في مسجد المدينة بحضور مجموعة من الناس، كان مالك قد دخل قصر أبي موسى (دار الامارة) وانتزعه من الحراس فوصلت الاخبار لابي موسى وهو في المسجد فاضطرب لسماعه هذه الاخبار، فأسرع مهرولاً الى القصر فوجد هناك مالكاً وجماعته فاخذته الحيرة والدهشة، فنظر اليه الناس نظرة استنكار واحتقار فصرخ به مالك قائلاً:

«اخرج من هنا، اخرج الله روحك، والله أنت من المنافقين».

وفي تلك اللحظات طلب ابو موسى الامان من مالك الاشتر مضطراً فاعطاه ذلك ومنع الناس من التعرض له. بهذه التدابير استطاع مالك من تغيير اوضاع الكوفة لصالح الامامعليه السلام وانخرط الكثير من اهاليها معه واعلنوا عن استعداداتهم للذهاب الى معسكر الامام في «ذي قار» لغرض تعبئتهم لحرب أصحاب الجمل.

لقد كان مالك الاشتر أحد الذين لم تستطع الفتن آنذاك ان تحيد بهم الى الباطل ومن هذه الفتن حرب الجمل تلك الحرب التي اشعلتها عائشة بدفع من طلحة والزبير رافعين شعار المطالبة بدم عثمان وقد قاموا باعداد جيش كبير من المغرر بهم استعداداً للوقوف بوجه جيش الامام عليعليه السلام في البصرة ناكثين بذلك العهود التي قطعوها. وفي الايام التي سبقت حرب الجمل وعندما كانت عائشة

تعد العدة لاشعال نار الفتنة سمع مالك الاشتر بتلك لاخبار فقام بكتابة رسالة الى عائشة في مكة المكرمة جاء فيها (أما بعد، فانك ظعينة رسول الله ﷺ وقد أمرك أن تقرّي في بيتك فان فعلتِ فهو خير لك وان أبيت إلاّ أن تأخذي منسأتك وتُلقي جلبابك وتُبدي للناس شعيراتك قاتلتُك حتى أردك الى بيتك والموضع الذي يرضاه لك ربك).

لم تستجب عائشة لنصيحة مالك وأعرضت عنها مثلما اعرضت عن نصائح الباقين ولمالك في ميدان الحرب بطولات كثيرة وكان في حرب الجمل أحد الاقطاب التي اعتمد عليها الامام عليه السلام في اخماد نار الفتنة وقطع دابرها وفوّت الفرصة على المنتفعين منها. بعد انتهاء حرب الجمل بانتصار جيش الامام عليه السلام واندحار جيش اصحاب الجمل التقت عائشة في البصرة بعمار بن ياسر وكان معه مالك الاشتر فسالت عمار عن رفيقه فقال لها هذا مالك الاشتر وبعد أن عرفته سالته عن العلة التي من اجلها لم يقتل عبد الله بن الزبير رغم تمكنه من ذلك فكان جوابه بيان لمدى اعتقاده بعلي عليه السلام وعمق ايمانه بأن علي مع الحق والحق مع علي فقال لها: لولا كوني شيخاً كبيراً وطاوياً لقتلته وأرحت المسلمين منه)[1].

قالت عائشة: أو ما سمعت قول النبي ﷺ: ان المسلم لا يُقتل إلاّ من كفر بعد ايمان أو زنا بعد إحصان أو قتل النفس التي حرّم الله قتلها؟

فقال لها مالك: يا أم المؤمنين على أحد الثلاثة قاتلناه[2].

---

(١) كان عبد الله بن الزبير من الذين شهدوا معركة الجمل في البصرة ولما جاء لمبارزة مالك الاشتر ضربه مالك ضربة قوية سقط على اثرها على الارض فنزل مالك من فرسه وجلس على صدره ليقتله فصاح عبد الله بصوت عال اقتلوني ومالك فاسرع اليهما المقاتلون فنهض مالك بسرعة وركب فرسه واستمر على القتال تاركاً عبد الله بن الزبير.

(٢) بحار الانوار ج ٣٢ ص ١٩١.

والسؤال المطروح هنا هو: لماذا اعُتبر اصحاب الجمل من البُغاة؟

الجواب: لانهم اعلنوا بيعتهم للامام علي‎عليه السلام وسرعان ما نكثوا هذه البيعة ووقفوا بوجه الامام‎عليه السلام واعدوا جيشاً من المغرر بهم وهجموا ليلاً على مدينة البصرة وبشكل وحشي أخذوا يسفكون دماء الابرياء والعزل بغير جرم ولا ذنب. ان البصيرة والوعي اللتان تحلاً بهما مالك الاشتر في ميدان الحرب بدت واضحة في شعره، وكان «يوم الهرير» من اصعب واشد أيام معركة صفين حيث كانت القتلى بالآلاف وكاد الامام‎عليه السلام ينتصر على جيش معاوية نجد الاشتر راكباً فرسه خلف الامام‎عليه السلام وهو يحمل على الاعداء ويقول: (الحمد لله الذي جعل فينا ابن عمّ نبيه أقدمهم هجرة وأوّلهم إسلاماً سيف من سيوف الله صبّه الله على اعدائه فانظروا إذا حمي الوطيس وثار القتام وتكسّر المرّان وجالت الخيل بالابطال فلا أسمع إلّا غمغمة أو همهمة فاتبعوني وكونوا في اثري...)[1] وعندما رفع اهل الشام المصاحف على الرماح يدعون اهل العراق الى حكم القرآن قال علي‎عليه السلام لاهل العراق انها كلمة حق يراد بها باطل انما أقاتلهم ليدينوا بحكم القرآن فقالوا له: يا علي أجب القوم الى كتاب الله وقد كان الاشتر قد اشرف على عسكر معاوية ليدخله فقالوا للامام: لترسلن الى الاشتر فليأتينك او لنقتلك بأسيافنا أو لنُسلمنّك الى عدوك فاقبل الاشتر حتى انتهى اليهم فصاح قائلاً: (يا أهل الذُّل والوهن، أحين علوتم القوم فظنوا أنكم لهم قاهرون ورفعوا المصاحف يدعونكم الى مافيها؟ وقد والله تركوا ما أمر الله به فيها وسنة من أُنزلت عليه فلا تجيبوهم. أمهلوني فواقاً فاني قد أحسست بالفتح... قالوا: دعنا منك يا أشتر، قاتلناهم في الله وندعُ قتالهم في الله. انا لسنا نُطيعك فاجتنبنا. قال: خُدعتم والله فانخذعتم...

---

(١) وقعة صفين لنصر بن مزاحم ص ٤٧٤.

يا أصحاب الجباه السود كنا نظن أن صلاتكم زهادةٌ في الدنيا وشوق الى لقاء الله فلا أرى فراركم إلّا الى الدنيا من الموت... فابعدوا كما بعدَ القوم الظالمون..)[1].
نعم لقد مزج مالك الايمان والبصيرة والشجاعة وجعل منها درعاً يصد بهم الضلالة طيلة حياته وبالاحتماء بهذا الدرع كان يميز الصديق عن العدو والمكر والخدع الخبيثة، فعندما غرز رمحه في صدر فتى قريش المنحرف المغرور ـ محمد بن طلحة ـ يوم الجمل كان ينشد قائلاً: (اصبته برمح فوقع على يديه وفمه، طعنته لانه لم يكن من اصحاب علي، ومن لا ينقاد للحق يندم)[2].

نعم برأي مالك كل من لا يتبع علي فهو ضالّ، ويجب أن يمرّغ أنفه بالتراب كان مالكاً سيفاً من سيوف الله يحطم علي عليه السلام به غرور الضالين.

«يامالك، انت من الذين استعين بهم على إقامة الدين والقضاء على عجرفة المنحرفين وقطع الطرق الخطرة»[3].

لقد حافظ مالك على ايمانه ولم يتنازل قيد شعرة رغم الظروف الصعبة التي مرّ بها وأكياس الذهب والعروض السخيّة التي كانت تنهال من معاوية على اصحاب الامام عليه السلام وانصار الحق والتي سرقت الايمان من قلوب الكثير واستهوتهم، امّا هو فقد خبر الدنيا بما فيها من مكر بشكل جيد ونبذها، وعرف الحق بكل ما يحوي من عظمة وبهاء وتمسك به.

كان لصمود مالك وصلابته في مواجهة الباطل في اللحظات التاريخية للامة الاسلامية اثر عظيم بحيث أنه أرعب العدو الماكر معاوية عندما سمع بتوجهه نحو

---

(١) وقعة صفين لنصر من مزاحم ص ٤٩١.
(٢) بحار الانوار ج ٣٢ ص ٨٩.
(٣) المصدر السابق ص ١٠٣.

مصر بعدما عُيّن عاملاً عليها. فتملكه الخوف وأحس بتزلزل قوائم عرشه الفرعوني فأوعز الى جاسوسه (جايستار) بأنه ان تمكن من التخلص من مالك فسيعفيه من دفع الخراج طوال حياته. هذا من جهة ومن جهة اخرى اجتمع بالناس في الشام وقال لهم: هلموا جميعاً ندعوا الاّ يصل مالك الى مصر! لان بوصوله الى مصر سيقضي علينا جميعاً.

فما كان من (جايستار) إلاّ أن استقبل مالك وهو في طريقه الى مصر وقدّم له عسلاً مسموماً، وباع ايمانه مقابل اعفائه من دفع الخراج طول حياته.

وكان استشهاد مالك قد أبهج معاوية وأهل الشام في حين اغرق الامامعليه السلام واصحابه في بحر عميق من الحزن. وكانت المهمة التي توجه من اجلها مالك الى مصر هي اطفاء نار الفتنة التي اندلعت هناك بعد حرب صفين ومسألة التحكيم ضد محمد بن ابي بكر عامل الامامعليه السلام وأخذ المعارضون للامام المدعومون من الشام في مصر بالتجرأ علىاعلان معارضتهم فما كان من الامامعليه السلام إلاّ اختيار مالكاً باعتبار ان سيفه البتار هو الوسيلة الوحيدة للحفاظ على الامن والاستقرار في مصر وبعد ان عمّت الفرحة بلاد الشام جمع معاوية الناس وخطب فيهم قائلاً:

«كانت لعلي يمينان، قطعت احداهما يوم صفين (ويقصد به عمار بن ياسر) وقُطعت الاخرى اليوم» وكان تأريخ شهادة مالك الأشتر في سنة ٣٨ هجرية وقد نعاه الامامعليه السلام بأسى كبير قائلاً: «**رحم الله مالك، كان لي، كما كنت أنا لرسول الله**صلى الله عليه وآله»، مالك الأشتر ذلك الذي سعى في معرفة الحق والباطل ولم يهدأ لحظة واحدة في جهاده، هكذا يصفه امامه ومولاه بعد استشهاده «**لله درّ مالك! وما مالك! لو كان من جبل لكان فِنْداً** (جبلاً عظيماً) **ولو كان من حجر لكان صلداً، أما والله ليهدّن موتُك عالماً، وليفرحنّ عالماً، على مثل مالكٍ فلتبك البواكي! وهل**

مرجوٌّ كمالك! وهل موجود كمالك».

لقد بكاه الامام عليه السلام كثيراً وعندما سأله اصحابه عن ذلك قال: «**والله، لقد أعزّ استشهاده اهل المغرب (الشام) وأذلّ أهل المشرق (العراق)**»[1].

ثم استطرد قائلاً: «... **هل موجودٌ كمالك!**» وها نحن امام هـذا السـؤال الذي طرحه الامام عليه السلام. هل هناك أحد مثل مالك؟

وهل يمكن لنا حقاً ان نكون مثل مالك؟ أو ان نسلك الطريق الذي سلكه؟ وهل يمكن الصمود والثبات في ميادين الحق ضد الباطل حتى النهاية مثل مالك؟

هل يمكن لنا ان نكون مثل مالك الذي لم تغمض عينه ولو لحظة في الدفاع عن الحق أو أن نكون مثله في مقارعة الاعداء والظالمين؟

هل يمكن ان نكون كما كان مالك في اتباعه الامام والقائد؟

هل يمكننا ان نحيا ونموت كما عاش مالك ومات وان نحظى برضى امامنا كما فعل مالك؟

نعم، يمكننا ذلك بشرط أن نمتلك الصفات الثلاث التي كان مالك الاشـتر يمتلكها وهي: الايمان والبصيرة والثبات حتى النهاية.

ففي ظل الايمان والتقوى نستطيع التمييز بين الضلال والهداية وبالبصيرة والوعي يمكن أن نبتعد عن طريق الضلال، وبالصبر والشجاعة يمكننا الصـمود والمقاومة امام انواع الاختبارات والابتلاءات التي نتعرض لها بسـبب التـزامـنا لجهة الحق.

---

(١) نفس المصدر السابق، نهج السعادة، وأمالي المفيد، وتاريخ الطبري.

نعم في ظل تلك الصفات فقط لا يمكن للدنيا بما فيها ابتلاع الصفوة المنتخبة من امثال مالك الاشتر الذين ظلوا كواكب مضيئة خالدة لنبي البشر.

لقد كان إبناً باراً وسيفاً بتاراً وعموداً متيناً

وُلد محمد بن أبي بكر في عام حجة الوداع في البيداء، أمه اسماء بنت عميس زوجة جعفر بن أبي طالب، وكانت سيدة فاضلة هاجرت مع زوجها جعفر بن أبي طالب من مكة المكرمة الى الحبشة، وقد رزقت بثلاثة أولاد هم: محمد، عبد الله، عون، وقد رجعت من الحبشة الى المدينة برفقة زوجها جعفر سنة ٧ للهجرة. وبعد استشهاد زوجها جعفر في معركة مؤتة، تزوجت ابا بكر ورزقت منه محمد بن أبي بكر. بعد وفاة أبي بكر تزوجها علي عليه السلام وكانت حصيلة هذا الزواج يحيى بن علي.

لقد ترعرع محمد بن أبي بكر في حضن هكذا أم ونهل من النبع الصافي للامام أمير المؤمنين عليه السلام فعشق الولاية بحيث انه ثبت على موقفه في نصرة علي عليه السلام في جميع الاختبارات والابتلاءات الصعبة التي مرّت بها الثلة المؤمنة بعد رحلة الرسول الاكرم صلى الله عليه وآله.

لقد جرت عليه صعاب ومشاق نفسيّة لكونه ابناً لأبي بكر وأخاً لعائشة ومن اب واحد ومن اشد تلك الصعاب كانت وقعة الجمل. لكنه ضرب كل تلك الاحاسيس والعواطف عرض الحائط بفضل بصيرته النافذة بالحق والولاية فوقف بوجه اخته عائشة بصلابة عندما حملت لواء العداء للامام عليه السلام في حرب الجمل، واختار حميّه الدفاع عن الحق في عصرٍ كانت فيه روابط القرابة والعشيرة فوق كل شيء ولم يخضع للتقاليد الجاهلية وانبرى لمحاربة كل من وقف في طريق الحق

وهذه الصفات لا تجتمع إلّا لمن اضاء الله قلبه بنور الايمان.

لقد ذهب الى عائشة موفداً من قبل الامام عليه السلام ليثنيها عن الاستمرار بالعصيان لكنه لم ينجح في ذلك وبعد انتهاء المعركة بانتصار الامام عليه السلام وجيشه على الناكثين تحدث مع اخته عائشة بلين ورفق عندما وجدها منكسرة وقال لها: «ألم تسمعي رسول الله وهو يقول: **علي مع الحق والحق مع علي؟**» ثم أرجعها الى المدينة المنورة معززة مُكرّمة بأمر علي عليه السلام. وقد قام هذا الصحابي بارسال رسالة تاريخية إلى معاوية اليكم نصّها: (بسم الله الرحمن الرحيم من محمد بن أبي بكر الى الغاوي معاوية بن صخر، سلام على أهل طاعة الله ممن هو سلم لاهل ولاية الله... وقد رأيتك تُساميه (يقصد علي عليه السلام) وأنت أنت (يقصد مساوئ معاوية في الاسلام) وهو هو (الامام عليه السلام) السابق المبرّز في كل خير، أول الناس اسلاماً، وأصدق الناس نيّة وأطيب الناس ذرية وأفضل الناس زوجة وخير الناس ابن عم. وانت اللعين ابن اللعين، لم تزل انت وابوك تبغيان لدين الله الغوائل، وتجتهدان على اطفاء نور الله؛ وتجمعان على ذلك الجموع، وتبذلان فيه المال، وتحالفان في ذلك القبائل؛ على هذا مات أبوك، وعلى ذلك خلفته، والشاهدُ عليك بذلك من يأوى ويلجأ اليك؛ من بقية الاحزاب ورؤس النفاق والشقاق لرسول الله صلى الله عليه وآله؛ والشاهد لعلي مع فضله وسابقته القديمة انصاره الذين ذكرهم الله تعالى في القرآن، ففضّلهم واثنى عليهم من المهاجرين والانصار؛ فهم معه كتائب وعصائب؛ يجالدون حوله بأسيافهم، ويُهريقون دماءهم دونه؛ يرون الفضل في اتّباعه، والشّقاق والعصيان في خلافه؛ فكيف ـ يا لك الويل ـ تعدل نفسك بعليّ)[1].

---

(١) شرح النهج لإبن ابي الحديد: ج ٣ ص ١٨٨ ـ ١٨٩/ طبع قم، من منشورات مكتبة آية الله المرعشي.

لقد احتوت هذه الرسالة فصول من الرؤية العميقة والبصيرة الواعية وهي بمثابة دورس للخواص لعصرنا الحاضر، ان محمد بن أبي بكر هذا الفتى الغرّ كما يصفه الامام عليه السلام قد تمكن من سبر اغوار الحقيقة بشكل اتاح له استحضار الماضي وتمييز خيره من شره وكذلك تمييز اتباع الباطل من امثال ابي سفيان وابنه.

نعم لقد كان محمد بن أبي بكر على رأس المعترضين على عامل عثمان على مصر عبد الله بن سعد بن أبي سرح. ووصلت شكاوى الناس حداً اجبرت عثمان على كتابة رسالة اليه (عبد الله) هدّده فيها بوجوب تغيير اسلوبه في معاملة الناس لكنه على العكس قام بضرب أحد المشتكين ضرباً مبرحاً حتى الموت. فقام على أثر ذلك ٧٠٠ من المصريين يصحبهم محمد بن أبي بكر بالسفر الى المدينة المنورة ليشكوا الى عثمان مام قام به عاملة (عبد الله بن سعد بن أبي سرح).

فقام طلحة خطيباً بالمتظاهرين وتهجم على عثمان فأرسلت عائشة الى عثمان تحثه على الاستجابة لمطاليب المتظاهرين والنظر في شكاواهم. أمّا دور أمير المؤمنين عليه السلام في هذه الاضطرابات فقد ذهب الى عثمان وتحدث معه باسم المتظاهرين وخاطبه قائلاً: ان الناس يطالبونك برجل مقابل رجل سفك دماً، فاعزله وأقض بين الناس بالعدل. فاضطر عثمان تحت هذه الضغوط أن ينصب محمد بن أبي بكر وانتهت البلبلة بفضل مبادرة الامام عليه السلام ورجع المتظاهرون الى مصر وبعد ثلاث أيام من مغادرتهم المدينة المنورة لحق بهم عبد اسود ممتطياً ناقة وقد انطلق بها مسرعاً نحو مصر فلحق به اصحاب محمد بن أبي بكر وجاءوا به الى ابن أبي بكر بعدما عرفوا أنه غلام عثمان متوجهاً نحو مصر ويحمل رسالة من عثمان وهو ينكر أمرها فأخذوا منه الرسالة وفتحوها وقد كتب فيها: «اذا وصل

إليك محمد بن أبي بكر وباقي الثائرين فاقتلهم ومزق رسالتهم وابق في منصبك حتى تصلك أوامري لاحقاً».

رجع محمد واصحابه الى المدينة غاضبين وكان ذلك بداية المحاصرة لبيت عثمان وبالرغم من أن الاخير قد القى باللائمة على مروان بن الحكم في أمر الرسالة باعتبار أساء الاستفادة من ختمه وقام بتزوير تلك الرسالة إلّا أن الاوضاع ازدادت سوءاً وانتهت بمقتل عثمان على أيدي الجماهير الغاضبة حينما كان ابناء علي عليه السلام يتولون حماية بيته.

وبعد استلام الامام عليه السلام لمقاليد الخلافة عيّنه (محمد بن أبي بكر) حاكماً على مصر بعد معركة الجمل محملاً إياه خطابه المعروف له ولاهل مصر حيث قرأه على اهل مصر عند وصوله الى هناك جاء فيه:

«بسم الله الرحمن الرحيم... فاخفض لهم جناحك وألن لهم جانبك، وأبسط لهم وجهك وآس بينهم في اللمظة والنظرة، حتى لا يطمع العظماءُ في حيفك لهم، ولا ييأس الضعفاء من عدلك عليهم؛ فإن الله تعالى يُسائلكم معشر عباده عن الصغيرة من اعمالكم والكبيرة، والظاهرة والمستورة: فإن يُعذب فانتم أظلم؛ وان يعف فهو أكرم...».

انشغل محمد بن أبي بكر منذ وصوله الى مصر باصلاح مافسد من امورها وقد واجه في سنّي حكمه الاولى مشكلة الإجابة على الأسئلة الفقهية والعلميّة لمختلف الجماعات في مصر لذا فقد بعث بهذه الاسئلة الى علي عليه السلام حيث أجابه عليها في خطاب طويل.

وبعد أن انتهت حرب صفين ووضعت أوزارها بمسألة التحكيم توترت الاوضاع السياسية في العراق وبرزت الاختلافات بين الناس وفي خضم تلك

الاجواء تجرأ اتباع معاوية على معارضة سياسة عامل مصر محمد بن أبي بكر وأخذوا يُشعلون نار الفتنة هناك قام الامامعليه السلام بارسال مالك الاشتر الى مصر لكي يطفئ نار الفتنة بحنكته لكن مالك استشهد مسموماً في طريقه اليها بخدعة من معاوية.

لقد صمد محمد بن أبي بكر وانصاره امام جيش عمرو بن العاص الذي بلغ تعداده ستة آلاف رجل بكامل عدتهم عندما جاءوا لفتح مصر. ان معاوية كان على علم بأن الناس من بعد استلام محمد بن أبي بكر لزمام الامور لم يكونوا متحدين وقد زاد من اختلافهم وفرقتهم سوء أوضاعهم فكتب اليه رسالة يتوعده فيها بالحرب والتمثيل به إن هو لم يستسلم قبل وقوعها وان يسلمه مصر. فما كان منه إلّا أن بعث رسالة الى أمير المؤمنينعليه السلام يطلب منه العون وقد قوّت رسالة أمير المؤمنينعليه السلام الجوابية من عزيمة محمد بن أبي بكر وثبتت أقدامه:

«أما بعد... ذكرت انك قد رأيت ممن قبلك فشلاً فلا تفشل وان فشلوا حصن قريتك واضمم اليك شيعتك، واذكِ الحرس في عسكرك واندب الى القوم (كنانة بن بشر) المعروف بالنصيحة والتجربة والبأس... فاصبر لعدوّك وامضِ على بصيرتك، وقاتلهم على نيتك...».

وباستلامه جواب الامامعليه السلام بادر الى ارسال رسالة لمعاوية مذكراً إياه بما يأتي: «اما بعد، فقد اتاني كتابك... وتأمرني بالتنحي عنك كأنك لي ناصح، وتخوّفني بالحرب كأنك عليّ شفيق؛ وأنا أرجو أن تكون الدائرة عليكم، وان يهلككم الله في الوقعة وأن ينزل بكم الذل وان تولوا الدُّبُر».

لقد استبسل محمد بن أبي بكر وقائده الوفي كنانة بن بُشر والقلة من اصحابه وقاتلوا قتال الابطال في المعركة الغير المتكافئة التي دارت بينهم وبين جيش

معاوية، وبسبب تباطؤ أهل الكوفة عن نصرتهم اندحروا وتفرق اصحاب ابن أبي بكر من حوله وبقي وحيداً في ميدان المعركة الى ان آوى الى خربة حيث أُسر **وهو** مثخن بالجراح.

وبعد وقوعه بأسر الاعداء ظل محافظاً على عزمه وأيمانه متيقظاً ومنتبهاً لم يطأطى رأسه ولم يهن أبداً، وفي طريقه الى الفسطاط أخذت الشمس والرمضاء تحرقانه بلهيبهما لكنه لم يحن رأسه ليرى قدميه وبقي شامخاً ثابتاً على ولاية سيده ومولاه متغلباً على آلامه وضعفه وبعد مسيرة طويلة دخل المدينة وسط سُخرية الاهالي واهانتهم ولما اشتد به العطش وأخذ يحس بان لسانه لصق بفمه التفت الى من حوله وقال لهم بشموخ واباء: اسقوني ماءاً، في هذه الاثناء ضاع صوته بين الضجيج والهمهمة وقال: (قطرة واحدة من الماء) فرد عليه ابن حديج (وهو القائد الذي انضم بجيشه لمناصرة عمرو بن العاص) بوحشية قائلاً: «لا سقاني الله أن سقيتك قطرة واحدة» ... اقسم بالله يا ابن ابي بكر سأقتلك عطشاناً حتى يسقيك الله من الحميم والغسلين (ماء يُسقى به سكنة جهنم)، أما محمد بن أبي بكر فقد بقي صامداً رغم الحالة التي كان عليها وأجابه بحزم: أيّها الحائك يا ابن اليهودية بل هي ارادتك انت وهؤلاء، انما هو الله الذي يروي أوليائه ويعطّش اعداءه، انت وامثالك ومن تحب ومن يحبك كلكم اعداء الله. والله لو كنت أمسك بسيفي ما سمحت لكم ان تجعلوني على هذه الحالة» فاجابه معاوية بن حديج: (اتعلم ماذا سأفعل بك؟ سأُدخلك في جوف بغل ميت وأحرّقك) فقال ابن أبي بكر: (أن كنت تريد تفعل بي هذا فقد فعلت ذلك بأولياء الله قبل ذلك، ادعو الله أن يحرقك أنت وخليفتك معاوية بن أبي سفيان وهذا (بشير الى عمرو بن العاص) بنار كلما خمدت اشعلها الله) فاستنشاط ابن حديج غضباً واستل سيفه وفصل رأس محمد بن ابي بكر عن جسده وادخل جثته في جوف بغل ميّت واشعل فيه النار!

وارسل برأسه الى معاوية وكان أول رأس لمسلم يُطاف به في اسواق الشام وبعد استشهاد محمد بن أبي بكر جاء عبد الرحمن الفزاري الى الامام والذي كان بمثابة عين الامامعليه السلام في الشام ونقل إليه الخبر وقال: يا أمير المؤمنين أني لم أرا فرحاً وسروراً كالذي رأيت عندما اذيع خبر استشهاد محمد بن أبي بكر في الشام، فاجابه الامام قائلاً:

«أمّا إنّ حزننا على قتله، على قدر سرورهم به؛ لا بل يزيد أضعافاً»[1].

واستناداً الى ما نقله المسعودي: لما علم الامامعليه السلام بسرور معاوية واتباعه باستشهاد محمد بن أبي بكر قال:

«جزعنا عليه على قدر سرورهم، فما جزعت على هالك منذ دخلت هذه الحروب جزعي عليه، كان لي ربيباً (يقصد اسماء بنت عميس) وكنت أعدّه ولداً، وكان بي براً، وكان ابن اخي (ويقصد عبد الله بن جعفر، فعلى مثل هذا نحزن وعند الله نحتسبه»[2].

لقد تعلم محمد البصيرة والصبر من امامه وواظب على هاتين الدرتين الثمينتين الى آخر عمره واحتضن الشهادة برحابة صدر حتى قال فيه مولاه أمير المؤمنينعليه السلام: بعد استشهاده:

«... اما والله لقد كان ـ ما علمت ـ ينتظر القضاء، ويعمل للجزاء ويبغض شكل الفاجر، ويحبُّ سمْت المؤمن»[3].

---

(١) شرح النهج لابن أبي الحديد: ج ٦ ص ٩١.

(٢) مروج الذهب للمسعودي: ج ٢ ص ٤٠٩.

(٣) شرح النهج لابن أبي الحديد: ج ٦ ص ٩٢.

ما أجمل النهاية التي انتهى اليها محمد الذي نشأ وترعرع في احضان الولاية وصمد ببسالة للدفاع عن حياضها حتى استشهد على ايد أعدى أعداء الله، فهنيئاً له رضوان لله عليه ولعنة الله على اعداء الولاية.

لقد تناول الامام عليه السلام في الرسالة التي ارسلها الى ابن عباس عامله على البصرة اهل الكوفة بالذم لتقاعسهم عن نصرة محمد بن أبي بكر قائلاً:

«اما بعد، فان مصر قد افتتحت، وقد استُشهد محمد بن أبي بكر، فعند الله عز وجل نحتسبه. وقد كنت كتبتُ الى الناس، وتقدمت اليهم في بدء الامر، وآمرتهم باغاثته قبل الوقعة ودعوتهم سراً وجهراً، وعوداً وبدءاً، فمنهم الآتي كارها، ومنهم المتعلل كاذباً ومنهم القاعد خاذلاً (اهل الكوفة) اسأل الله ان يجعل لي منهم فرجاً، وان يُريحني منهم عاجلاً؛ فوالله لولا طمعي عند لقاء عدوي في الشهادة، وتوطيني نفسي عند ذلك، لأحببت إلّا أبقى مع هؤلاء يوماً واحداً»[1].

ان الامة التي لا تستجيب لدعوة أمامها تصبح أسيرة الأهواء والظالمين كما هو الحال مع أهل العراق.

لقد ظل محمد بن أبي بكر طوال حياته ملازماً لإمامه ولم يفترق عنه لحظة واحدة ولم يؤثر فيه مكر الماكرين، ولم تغيّر مواقفه علاقات القرابة والنسب نسأله تعالى ان يجعل عاقبتنا هكذا إن شاء الله.

قرار اسطوري

ان الجهاد في جبهة الحق، هو أروع صور عزوف الانسان عن الدنيا وطلاّبها وتوجهه الى الله والى أوليائه.

---

(١) شرح النهج لابن ابي الحديد: ج ٦ ص ٩٢ ـ ٩٣.

فعندما يرى المجاهد ان النصر بعيد كل البعد عنه، وان مآل اوضاعة نحو الهزيمة، عند ذاك تتوضح له عظمة جهاده. وفي التاريخ امثلة كثيرة عن استبسال اصحاب جبهة الحق في مقارعة الباطل وابتعادهم عن كل أحلام الدنيا ونعيمها مع علمهم التام بهزيمتهم الظاهرية والاستشهاد في سوح الوغى.

وأعظم من ذلك كله في تاريخ البشر ـ على حسب ما وصلنا ـ تضحية اهل بيت النبوة عليهم السلام في بداية عام ٦١ هجري في صحراء الطف. تلك الثلة من الاخيار التي نهضت من بين المجتمع الاسلامي العريض في ذلك الوقت وتحملت عناء المسير من المدينة المنورة الى مكة المكرّمة ومنها الى العراق حيث كان جميعهم نموذجاً لخواص اهل الحق الذين أقدموا على اتخاذ اصعب القرارات في صعب اللحظات، تلك القرارات وبكل ابعادها لم ولن تتكر في التاريخ.

سنوضّح لكم في السطور الآتية شخصية واحد من خواص أهل الحق ألا وهو (الحر بن يزيد الرياحي)، فهذا الانسان العظيم وفي أدق اللحظات المصيرية في تاريخ المسلمين احدث تحولاً عجيباً في مسيرته الفكرية، وقدّم اروع صورة لأسمى قرار في جو عصيب متلاطم. قلّما خضع قرار الحر الرياحي للبحث والتقييم بشكل شامل ومن جميع جوانبه. واذا تسنى رسم صورة واضحة لابعاد التحول الفكري الذي حصل له في اللحظات الاخيرة التي همّ بها لتسجيل صفحة أُخرى في التاريخ، فان ذلك سيكون انجاز مهم لكل الخواص المناصرين للحق لا بل للبشرية جمعاء.

ينتمي الحر الرياحي إلى قبيلة (بني رياح) من القبائل المعروفة التي سكنت البصرة. بايع يزيد عن طريق (زياد بن أبيه)، حاكم البصرة آنذاك، وأدرج اسمه في قائمة المبايعين الرواد من اهل البصرة والتي أرسلت للشام، ومنذ ذلك الحين

أصبح موضع اهتمام وعطف البيت الاموي فارتقى سلّم المناصب حتى أصبح له من المال والجاه الحظ الأوفر، وقد تزوج بنساء كثيرات وانجب منهن عدّة أولاد وكان من القادة الكبار في عهد عبيد الله بن زياد الذي أصبح حاكماً للبصرة بعد ابيه مما جعل عبيد الله يسند إليه قيادة فوج الفرسان المؤلّف من حوالي ٣٠٠ ـ ١٠٠٠ فارس والذي خرج من الكوفة لمواجهة قافلة الامام الحسينعليه السلام المتجهة نحو العراق وذلك في أواخر عام ٦٠ هجرية.

لقد أُسندت إليه مهمة قيادة فوج الفرسان وذلك لمهارته في الفروسية وقدراته البدنية وقوة ارادته ورباطة جأشه.

تتضح اهمية اختيار الحر بالنسبة الى حاكم العراقين (البصرة والكوفة) وذلك أنه عندما اختاره لذلك المنصب كان في القائمة اسماء قادة آخرين أمثال: شمر بن ذي الجوشن، خولي بن زيد الاصبحي، كعب بن طلحة الدارمي، نصر بن خرثمة التميمي، يزيد بن ركاب الكلبي، سنان بن أنس النخعي، عروة بن قيس و... في الكوفة، وكان عبيد الله قد وجد في كل هؤلاء بعض العيوب وهو ما أوضحه في حديثه مع عمر بن سعد.

وما كان من حاكم الكوفة الجديد إلّا أن بعث الحر ليعجّل بالمواجهة مع الامام الحسينعليه السلام بصورة لم يتمكن معها من تجهيز قواته بشكل كامل. فقال ابن زياد للحر: (وصلني خبر بأن الحسين في موضع زباله وأنه في طريقه الى الكوفة، ان التباطؤ ولو لساعة واحدة هو أمر خطير). فأسرع الحر بمغادرة الكوفة وفي موضع (ذو خشب) استعدّ لمواجهة قافلة الامامعليه السلام وأوقعها في حصاره. لسنا بصدد البحث في احداث المجابهة التاريخية لكلا الجيشين، لكننا نريد أن نبحث في الأبعاد التاريخية المهمة لهذا القرار ونشير الى أن الحر قد انضمّ الى معسكر

الامامعليه السلام في الوقت الذي تأكد فيه هجوم جيش الكوفة على قافلة الامامعليه السلام مساء التاسع أو صباح العاشر من المحرم، ان الخوض في ظروف الحر بن الرياحي والمعسكرين في تلك الظروف سيعيننا على بيان أهمية هذا القرار.

من الوهلة الأولى ندرك أن في الوقت الذي اتخذ الحر قراره باللحاق بالامام الحسينعليه السلام اذا أخذنا بنظر الاعتبار علمه ببطش حاكم الكوفة (ابن زياد) وأوضاع ساحة القتال الغير المتكافئة، حيث تقف مجموعة لا يبلغ عددها المئة في مواجهة آلاف مؤلفة، فهو كقائد عسكري كان يعلم علم اليقين بأنه لا أمل بالنصر مطلقاً بالنسبة لمعسكر الامامعليه السلام وانهم سيُقتلون لامحالة. من هنا يكون قراره بالانفصال عن كل الالقاب والمناصب التي كان يشغلها وهو على رأس معسكر الكوفة باعتباره قائداً للفرسان والتوجه نحو المعسكر الذي هو محكوم بالهزيمة والفناء طبقاً للقواعد العسكرية، إن هذا هو أهم ما يميّز القرار الذي اتخذه.

والمسألة الاخرى، هي أن في اتخاذه لهذا القرار الشجاع بعد إطاعة أوامر الحكام وترك أفراده واللحاق بالعدو عقوبة الموت. من هنا فأنه ان لم يُقتل في ساحة المعركة، فمن المؤكد أنه سيقتل من قبل حكومة يزيد بعد أن تضع الحرب أوزارها. فهذه سُنّة كانت تتبع في تقاليد الحروب عند العرب وباقي الامم، ولا تزال الى يومنا هذا.

الميزة الثالثة في التحوّل العقائدي لدى الحرّ هو أنه كان يحظى بالرئاسة والجاه والمقام الاجتماعي الرفيع لدى حكومة الشام والكوفة وهذه الامور من اهم الغرائز الطبيعية لدى الانسان ومع هذا كله اعرض عن حب الرئاسة والمقام الرفيع وعن وعي تام معرّضاً نفسه لسيوف المقاتلين الذين كان هو قائداً لبعض منهم.

بالاضافة الى المنزلة الرفيعة التي كان يحتلها الحر في جيش الكوفة، فانه كان يعد من اغنياء العراق أيضاً حيث كان يملك الاراضي الزراعية والبساتين كذلك كان يعلم جيداً أنه بالتحاقه بجيش ابن الزهراء عليها السلام المحاصر ليس فقط لن يبقى له مال، بل ان جميع امواله المنقولة وغير المنقولة ستُصادر هذا اذا فرضنا بقاءه حياً، كما هي عادة الحكام الامويين.

كذلك، فأنه كان على يقين ان بانضمامه الى جيش الامام عليه السلام سيُحرم من كل حقوقه الاجتماعية وكذلك اسرته، لا بل ان قبيلة بني رياح كلها ستتعرض للملاحقة والسجن، وهو باعتباره أحد رموز حكومة معاوية ويزيد كان يعلم جيداً سلوك آل أبي سفيان في هذا المضمار.

لم يفكر الحرّ بجعل نفسه بطلاً اسطورياً؛ لأنه حتى ذلك الوقت لم يكن تدوين الحوادث التاريخية متعارفاً عند العرب عدا رسائل اهل البيت عليهم السلام. فقد شرع العرب بكتابة التاريخ منذ القرن الثاني للهجرة وذلك بواسطة الموالي غير العرب وان السبب الرئيس في اختلاف وجهات النظر حول احداث القرن الاول الهجري هو عدم التدوين للحوادث التاريخية الذي ذكرناه.

لقد اختار الحرّ طريق الحق من غير أن يتوقع من أحد أن يذكر اسمه ويثني على فعلته لان أمير المؤمنين عليه السلام نفسه كان يُسب بصورة رسمية من قبل الامويين فكيف بشخص ينهض لنصرة ولده المحاصر في صحراء بأرض العراق.

والنقطة المهمة أيضاً هي أن في ذلك الوقت كان جماعة من اصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله لا يزالون على قيد الحياة ومع ذلك فأنهم قد انعزلوا عن الحياة السياسية، كذلك بعض نساء النبي صلى الله عليه وآله اعتزلن الاحداث رغم علمهن بعدم صلاحية يزيد للخلافة في حين إنهن وقفن بوجه الامام علي عليه السلام يوماً ما. وكان كذلك معظم

ابناء الصحابة في اوج عظمتهم وقد اختاروا الانضمام الى (القاعدين) مع موالاتهم القلبية للامامعليه السلام، وكان بامكان الحر أيضاً أن يفعل ما فعلوه ويعتزل كلا الفريقين، ويسلم بماله في أرض الله الواسعة، حتى لا تتطلخ يداه بالدماء الزكية لابن رسول الله واهل بيته لكنه لم يفعل ذلك، ولم يستطع أن يختار الحياد أمام بقاء أهل بيت الرسالة وحيدين بلا مناصر. في تلك الليلة جمع الامام الحسينعليه السلام اصحابه وخاطبهم قائلاً: (غداً كل مَنْ يبقى هنا سيُقتل، لقد أخذت عهداً من ابن سعد بالأمان لكل من يريد الفرار هذه الليلة وينجو بنفسه من طوق الحصار المضروب حولنا. انهضوا وخذوا بيد اخواني كذلك واذهبوا). ان مبادرة قائد عسكري في مثل هذه الاوضاع بالالتحاق بمعسكر القلّة العطاشى المحاصرين والمحكوم عليهم بالهزيمة هو عمل قلّما نجد له نظير في تاريخ البشرية.

حتى ان (كورت فرشيلر) الالماني يقول في كتابه «الإمام الحسين والايرانيين»: (لا أعتقد ان بامكاننا العثور على حادثة في الغرب مشابهة لحادثة لحاق الحرّ بن يزيد الرياحي بالحسينعليه السلام)، ويقول في مكان آخر: (هكذا التحاق لا نجد له نظير سوى في الاساطير). حسبما تنقل الروايات: فان الحرّ لم يكن يتصور بأن الاوضاع ستؤول الى الصِدام بين جيش عبيد الله بن زياد وابناء رسول اللهصلى الله عليه وآله، فهو كان يعتقد أن آل أبي سفيان سيقومون بمناورات أمام الحسينعليه السلام لصرفه عن المجيء الى الكوفة لاستلام زمان الامور، ولكنهم لن يجرؤا على قتلهِ أبداً. لكنه بعد أن رأى تصميم قادة جيش الكوفة على اشعال نار الحرب ونتائج نشوب نار الحرب معلومة تماماً أقدم على اتخاذ أخطر قرار في التاريخ خلال بضع ساعات، ان اتخاذ الحر لذلك القرار في تلك الليلة الحبُلى بالاحداث يستدعي اراده قوية وصلبة لأنه (الحرّ) كان موفداً من قبل حاكم العراقين لمواجهة الحسينعليه السلام واذا به يفعل العكس تماماً وينضم للمعسكر الآخر

فهل من الممكن فعل هذا؟ نعم! فضميره يومن بذلك، لكن دنياه كانت تقف بالضد من ذلك.

نقل «كورت فرشيلر» في كتابه (الامام الحسين والايرانيين) عن القاضي سعد الدين ابو القاسم عبد العزيز المعروف بـ (ابن البراج) صراع وحوار الحرّ مع ضميره في تلك الليلة العصيبة بقوله:

يتساءل ضمير الحرّ بن يزيد الرياحي منه، هل حقاً تريد محاربة الحسين عليه السلام غداً؟ فيجيب الحرّ بـ (نعم)، فيعود الضمير، الذي يصفه ابن البراج بـ (النفس الناطقة)، ليتساءل من الحرّ، ألّا ترى عِدّة وعدد الحسين عليه السلام الضئيل، هل تسطيع اقناع نفسك بالانضمام الى هؤلاء الافراد القليلين في محاربة ذلك الجيش العظيم؟ يجيب الحرّ بأني قد تلقيت الأوامر بمحاربة الحسين عليه السلام وسأحاربه بغض النظر عن تعداد اتباعه فان ذلك لن يؤثر في مأموريتي. فيستطرد ضميره أو نفسه الناطقة كما يقول ابن البراج ألا تعلم بان الحسين عليه السلام هو سبط الرسول صلى الله عليه وآله، فيجيب الحر بن يزيد الرياحي بلى، اعلم ذلك فتقول النفس الناطقة ان كنت تعلم بأن الحسين عليه السلام هو سبط الرسول صلى الله عليه وآله، فكيف تحاربه؟ فيجيب الحرّ بأني قد أمرتُ بذلك ولا حيلة لي سوى قتاله؟ فتعود النفس الناطقة لتسأل هل ترى ان الحسين عليه السلام يستحق القتل؟ فيجيب الحر بـ (لا)، فتسأل النفس الناطقة، هل ترى بأنه بريء ام مذنب؟ يقول الحرّ: أراه بريئاً، تقول النفس الناطقة: وكيف يطيب لك ان تلطخ يديك بدم بريء؟ ليس انا الذي أفعل ذلك بل هو حاكم العراقين، وهذا الاخير أيضاً لا يفعل ذلك بل هو مأمور بذلك فيزيد بن معاوية هو الذي يفعل ذلك، واني لست سوى سيفاً بيد حاكم العراقين فهل يكون للسيف ذنب عندما يقطع راس أحد ما أم أن الذنب ذنب من يمسك به. فقالت النفس الناطقة، ليس للسيف

روح أو إحساس وليس له رأي يُسمع له، لكنك تملك روحاً وإحساساً ومـخيّر فيما تعمل، فلا يُلام السيف على قتل أحد لأنه جماد بل أنت الملام لأنك انسان وتملك عقل وإحساس فالسيف بيد صاحبه يكون مجبراً وليس مخيّراً وانت مخيّر وليس مجبوراً وهل تستطيع القول بأنك مجبور على قتل الحسينعليه السلام؟ فقال الحرّ: من زاوية معيّنة (نعم) فتقول النفس الناطقة: أي زاوية تلك؟ سأفقد منصبي إن لم ابادر الى قتله، وسأحرم من الصلات التي تصلني. فتجيب النـفس النـاطقة انت تكذب فأن لم تكن ترغب بالمجيء الى هنا لمحاربة الحسينعليه السلام، لم يعزلك أحد من منصبك ولم يحرمك أحد من صلاتك ففي اليوم الذي عُيّنت لمواجهة الامام الحسينعليه السلام الم يكن بأمكانك الاعتذار عن ذلك وان يبحثوا عن غيرك لاداء هذه المهمة؟ فقال الحرّ: بلى كنت استطيع ذلك لكني حينها كنتُ سأُحرم من الجائزة. فتسال النفس الناطقة اذا وكل أحد ما بقتلك، وقبض جائزة على فعله هذا فـهل تعتبره برئياً؟ واذا قيل لك بأنه يريد قتلك من اجل الحصول على الجائزة، فـهل تعتبره بريئاً أم لا؟ فقال الحرّ، لا بل اعتبره مذنباً. فقالت النـفس النـاطقة، فـان عملك مطابق لذلك فأنت لم تكن مجبراً علىقتال الحسينعليه السلام ولكنك جـئت الى هنا من أجل الحصول على الجائزة، فان حرمت النظر عن الجائزة فـلن يكـون لديك دافع لقتل الحسينعليه السلام فأنت مسؤول عن التهيؤ لقتل الحسينعليه السلام من أجـل الجائزة فيسأل الحر: مسؤول امام مَنْ؟ فتجيبه النفس الناطقة مسؤول امام الله. ألا هل تؤمن بالمعاد؟ يقول الحرّ بلى أومن بالمعاد. وتسأل النفس الناطقة هل تؤمن بأن عقاب المذنبين بعد المعاد هو أبدي؟ فيقول الحرّ، بلى فهو كـذلك.. وتـقول النفس، هل تستطيع تحمل ذلك العذاب؟ وهنا سكت الحرّ وبعد لحظات أجاب، على أيّة حال، فات الأوان ولن استطيع تغيير قراري. فتقول النفس الناطقة: بل الآن أيضاً تستطيع فعل ذلك فانك لم تعد قائد وليس عليك مسؤولية قادة رجالك،

فعمر بن سعد قد عزلك عن منصبك ولم يعد لك عمل تقوم به هنا فاذهب من هنا. فقال الحرّ، لا استطيع الذهاب، لأني لو فعلت ذلك سيعتبرونني هارباً فهل تعرف ما عقوبة الهارب من القتال؟

اخيراً، اتخذ الحرّ بن يزيد الرياحي قراره النهائي والتحق بمعسكر الحق لقد جاء في احدى الروايات: أنّه في صباح العاشر من المحرم رأى (قرة بن قيس) وهو من خواص جيش الكوفة، أن الحرّ مشغول البال متغيّر الحال، فسأله: (ماذا جرى؟) فأجاب الحرّ: (أرى نفسي على مفترق طريقين، احدهما يؤدي الى الحق والآخر الى الباطل، الاول ينتهي الى الجنة والآخر يقود الى جهنم، فقال قرة بن قيس: والآن أيّهما ستختار؟ فقال الحرّ: أُريد أن أختار طريق الجنة. فقال ابن قيس: ولكنك بأختيارك هذا ستضع أقاربك في جهنم الدنيا. فتحيلهم الى الضياع فقال الحر: هل سيبقون احياء الى الأبد؟ الن يموتوا؟ فأنطلق الحر نحو طريق الهداية وانظم الى موكب النور، لا شك أن هناك الكثير من بين قادة جيش الكوفة ممن يعلمون جيداً البون الشاسع بين الامام الحسين عليه السلام هو سيدا الشهداء وسيد شباب اهل الجنة وبين يزيد السكّير، كما هو الحال مع الحرّ، لكنّهم لم يقووا على التخلص من حب الدنيا ومتاعها لان بريقها سلب عقولهم بالدرجة الاولى اما الله والحقيقة فيأتيان بالدرجة الثانية أو الثالثة. فقد لاحت لهم صورة الموت المرعب في مخيّلتهم، وكانوا على استعداد ان يديروا ظهورهم للحقيقة في مقابل ايام قليلة في الدنيا. ولو حذا قادة جيش الكوفة حذو الحرّ في اللحظات المصيرية واتبعوا الحق الذي كان ساطعاً وانفصلوا عن الجيش اليزيدي فهل كانت تقع حادثة كربلاء؟ نعم، ان قرار الخواص في الوقت المناسب يمكن أن يغيّر مجرى التاريخ في حين أن الحرّ بن يزيد الرياحي باتخاذه ذلك القرار المتأخر استطاع ان ينجو بنفسه فقط.

الموت بعز

منذ اللحظات الأولى لقدوم جيش الناكثين المشؤوم الى البصرة أراد (حكم بن جبلة) أن يُضيّق الخناق على هذه الفئة الضالّة، لما كان يغلي في وجوده من غيرة وبصيرة، لكنه في الوقت نفسه كان ملتزماً برأي ممثل امامه على مدينة البصرة (عثمان بن حنيف).

لقد ذهب بمعيّته للقاء طلحة والزبير وعائشة وطلب التزام الهدوء ريثما يصل حكم الامام امير المؤمنينعليه السلام، وعلى هذا الاساس خيّم على البصرة هدوء مؤقت، لكن العهد الذي يكون أحد أطرافه مروان بن الحكم، ابن عامر (يعني طلحة)، والزبير الناكث للعهد، هو عهد لا قيمة له بالمرة، وهذا بالفعل ما كان يعتقد به (حكيم بن جبلة) رئيس قبيلة (بني عبد القيس)، اعتقاداً راسخاً. فهل نستطيع بعد أربعة عشر قرناً أن نصف جانباً من تضحيات حكيم بن جبلة؟ ذلك الذي عرف من قبل العظام، بأنه بطلاً من الابطال واسطورة المضحين في سبيل اهدافهم المقدّسة، اننا في هذه العُجالة لا يمكننا ان نستوعب جميع تضحيات هذا البطل لكن من لا يستطيع ان يحتوي ماء البحر فعلى الأقل يغرف منه غُرفةً يطفئ بها عطشه، وبالخصوص حياة هؤلاء العظام صحابة رسول اللهصلى الله عليه وآله الذي نعتبرهم قدوة بارزة لنا ولكل مَنْ أراد أن يُضحي في سبيل المبادئ الاسلامية لينشر مبادئ الحق والحرية.

سنتطرق في السطور القادمة عن صفحات حياته المشرقة وجانب من جوانب صموده بوجه طلحة والزبير وبقية الناكثين الذين جعلوا من البصرة ساحة للعب بمقدرات المسلمين.

يُعتبر حكيم بن جبلة أحد عرفاء زمانه ووتداً راسخاً في عصره، وهو أحد اصحاب الرسولﷺ وكانت له زعامة قبيلة (عبد القيس). كان على علم تام بحق الامام عليعليه السلام وأهل بيته. وبعد مبايعة امامه اتجه الى البصرة مع عاملها المنصّب من قبل امير المؤمنينعليه السلام. لم تمض سوى عدة اشهر على سطوع شمس عدالة الاسلام في سماء البصرة حتى وصل الناكثون الى أبوابها كغربان مشؤومة البصرة.

يقول عبد الفتاح عبد المقصود في وصف هذه الجماعة في كتابه «الواقعة» عن لسان اهل البصرة:

أفهل عاد الماضي المشؤوم مرة اخرى ورجعت الظلمة من جديد اينما يرمون ببصرهم على هذا الجيش الذي جاء ليوقع بهم الهزيمة يرون وجوهاً حقودة كالحة، اشباح بهيئة بشر، فهذا ابن عامر، حاكمهم السابق الذي طردوه وهذا ابن عقبة الفاسق الفاجر يرجع ثانية ومروان أيضاً حاضر مع الجمع ابن ذلك المطرود من قبل رسول اللهﷺ. هو نفسه مروان الطاغية الهتاك الذي اشعل بحماقته البلاد وانهى حياة عثمان. هؤلاء واشباههم عندما يقع بصر المرء عليهم تكاد العبرة والالم تخنقانه. الم تجد عائشة انصاراً لدعوتها افضل من هؤلاء لكي تعتمد عليهم؟ ان قدوم جيش الناكثين الى البصرة كان بمثابة شوكة في عين حكيم وكل العقلاء من اهل البصرة، لان الزيف والنفاق لهما الاثر البالغ في تضليل العوام من الناس فهم يتأثرون بالالقاب والمناصب والاشخاص وعندهم هذه الامور مقدمة على الحق والعدالة فهم ينظرون الى ماضي طلحة والزبير وعائشة لفقدانهم القدرة على تحليل الاحداث وادراك المعايير وتقييم الاشخاص. أمّا الخواص من اهل الحق من أمثال (حكيم بن جبلة)، فقد كانوا على علم بنواياهم الباطلة وعطشهم للرئاسة والزعامة الجاهلية والرعب من عدالة أمير المؤمنينعليه السلام كل ذلك

دفعهم وراء زوجة رسول الله ﷺ المخدوعة للتوجه الى البصرة.

وكما تنبأ حكيم وكل ذي بصيرة من أهل البصرة، فان الاسلوب الوحشي الذي اتبعه مروان وزمرته الانتهازية أوصلت الامور الى مرحلة جعلت دماء الاحرار تغلي في عروقهم وادّت بحكيم ذلك الصحابي الشجاع الغيور على دينه الى عمل اسطوري عظيم وملحمة تصدر من أحد مناصري أهل البيت عليهم السلام. سيبقى هذا البطل على طول التاريخ قدوة حسنة لكل المجاهدين والخيّرين.

نعم، لقد هجم جيش الناكثين على الحراس في البصرة وعلى المسجد ولطخوه بدماء الأحرار ليلاً وبهذا العمل الجبان يكونون قد انقضوا العهد الذي ابرموه مع والي المدينة من قبل الامام عليه السلام ولم يكتفوا بذلك بل دهبوا الى بيت الوالي عثمان بن حنيف بتقدمهم طلحة والزبير وهجموا على الحرس على حين غرّة وسفكوا دماءهم ظلماً واضافوا الى سجلّهم الاسود اربعين ضحية اخرى في تلك الليلة وبعد أن بقي (ابن حنيف) وحيداً لا ناصر له أسروه، حيث انهال عليه مروان بالسياط ثم أخذ يهلس شعر رأسه ولحيته وحاجبيه حتى رموشه ليثبت وحشية اصحاب الجمل للباحثين عن الحقيقة على مدى التاريخ. وذهبوا به (ابن حنيف) الى معسكرهم عند أم المؤمنين حيث أمرت بقتله ولم ترض بسجنه حتى استجدّت أمور ليس هنا مجال ذكرها.

ثم اغار اصحاب الجمل بعد ذلك على بيت المال ونهبوا كل مافيه، ولم يطلع الصباح حتى كانت البصرة بأيديهم ووالي المدينة رهينة عندهم.

لم يَنم ابن جبلة قط في تلك الليلة ولم يهدأ له بال فمجرد سماعه أخبار

الغارة حتى انتفض من مكانه كالاسد وثار بشدة لخيانة ذلك الجمع ونقضهم للعهد. لقد استشهدت جماعة من قبيلة (عبد القيس) في المواجهات التي جرت فقد كان عددهم لا يتجاوز ثلاثمائة نفر وقفوا امام جيش الناكثين الذي بلغ بضعة آلاف رجل ان الذي حدى بهؤلاء القِلّة للوقوف امام ذلك الجيش وكأنه الحصى في البراري هو معرفتهم للحق وحميتهم الدينية.

ان الهجوم الشجاع الذي قام به حكيم بن جبلة ومجموعته القليلة ضد تلك الجموع الضالة بقيادة طلحة والزبير وأخبارهم المذكورة في المصادر التأريخية الإسلامية تعتبر بحق من البطولات النادرة، لقد اجاد الكتّاب المسلمون الحاذقون في وصف تلك الملحمة لذك الرجل العظيم (حكيم) في الدفاع عن امامه ومن بين الذين قاموا بوصف تلك الملحمة هو الكاتب (عبد الفتاح عبد المقصود)، نورد لكم في السطور القادمة خلاصة ما قاله هذا الاديب القدير:

(خرج على رأس مجموعة صغيرة حتى وصل الى مقر الاعداء وهناك التقى بجنود عائشة وعدّتهم المخيفة، هناك واذا بعبد الله بن الزبير يُقبل نحوهم، فوقفوا وسط الميدان كنموذج بارز للغرور والعداء والتعدي وقال بغضب موجهاً كلامه لزعيم الثوار: (ماذا تريد يا حكيم) فقال بدهاء وهدوء: (نريد نصيبنا من هذا المال).

الم يعلم ان هذا اللص البخيل سيرفض طلبه؟ فلو لم يردعه أبوه (الزبير) لمنع حتى اتباعه من المال.

فاجابه ابن الزبير بجواب متوقع في مثل هذه الحالات: (لا نعطيكم شيئاً) لقد اثلج هذا الجواب صدر جبلة، فلعله كان يريد أن يُمسك بهذه الحجة فأُعطيت

له، في هذه الاثناء يغيّر حديثه مع ابن الزبير ويدخل الى صُلب الموضع الذي جاء من أجله: (... واطلقوا سراح عثمان بن حنيف حسب المعاهدة التي ابرمتموها، وليحكم في دار الإمارة حتى يأتي الامامعليه السلام.

فكان جوب العدو ينمّ عن احساس بالتكبر والاستعلاء واللامبالاة وبلهجة الأمر: (لن نطلق سراح عثمان بن حنيف حتى يخلع عنه بيعة عليّ).

هكذا اذن؟ لقد اتضحت النيّات وانكشفت السرائر. اذن كانت مسألة اطلاق سراحه حيلة وخدعة ليس إلّا، لغرض تشتيت صفوف المعارضين وتفريق الناس؟ فانكم تبادلون اطلاق سراحه (ابن حنيف) مقابل خيانة مولاة (عليعليه السلام)؟ كان غرضهم من هذه المعارضة نزع زمام الامور من يد ابن ابي طالبعليه السلام وان كانوا قد اخفوا ذلك تحت غطاء الانتقام لدم عثمان، في هذه الاثناء رأى حكيم انهم يدفعون اهل مدينته من خيانة الى اخرى بالمال تارة والتهديد والارهاب تارة أخرى؟ ويحرضونهم على نقض عهودهم وبيعتهم تحت تلك السياط، فصاح بهم غاضباً: «والله لو توفر لي اتباعاً سأحاربكم، ولن أكتفي بهذا بل اني سأقتلكم».

فنظر الى من حوله نطرة تحريض، كأنه يريد أن يجعل دماءهم تغلي في عروقهم ويشحذ هممهم ليقولوا له: (نحن الاتباع الذين تبحث عنهم). فلما رأى انهم استثاروا غضباً ولبّوا نداء حميتهم وغيرتهم، فتوجه ببصره نحو عبد الله وعيناه تقدحان ناراً وقال متحدياً «... والله، لقد استبيحت دماؤكم بقتلكم اخواننا! الا تخافون الله؟ بأي عذر استبحتم دماءهم؟

ـ من أجل دم عثمان.

ـ وهل الذين قتلتموهم كانوا هم قتلة عثمان؟

كان هذا الدليل القاطع قد أخرس لسان المراء والمجادلة! فهل يستطيع ابن الزبير ان يدّعي بأن مذبحة المسجد ودار الإمارة وقتلى «عبد القيس» كلهم كانوا من أجل الانتقام لدم عثمان؟ ان الزبير وطلحة وعائشة وجميع اتباعهم كانوا يبحثون عن قاتل واحد لكنهم وبسهامهم قتلوا المئات، في حين لم يكن قاتل الخليفة من بين كل هؤلاء، فهل هذا برأيهم قصاص عادل؟

فرفع ابن جبلة عيناه الى السماء ليسأل الله الشهادة:

ـ «اللهم انت الحكم العدل، اللهم فاشهد!...».

والتفت الى المجموعة التي وقفت وراءه وقال «أيّها الناس... أما أنا فليس عندي ادنى شك في قتال هؤلاء، فمن كان منكم على شك فليرجع».

لقد اشعلت هذه الكلمات نار الحرب، ولم يضع ابن جبلة في حسابه عدم التكافؤ بين الفريقين، فهو لم يراجع عدد وعدّة المعسكرين، واستل سيفه ليخترق الصفوف المحتشدة ويبيدها. لقد استل سيفه وهو في (بيت المال) وظن أن بيده المنجل وان عليه حصد رؤوس الفتنة، تلك الرؤوس التي جاءت من صحراء مكة الى سواد البصرة لمحاصرة دار خلافة الامام عليه السلام. أفهل بايعو علي عليه السلام من أجل مرضاة الله، وان الدفاع عن حكومته ليس في رضا الله؟

لم يضع حكيم في حسبانه مطلقاً أنه يواجه آلاف مؤلفة من الجند المجهزين بأفضل الاسلحة والتجهيزات في حين أنه يقود ثلثمئة محارب فقط. كان سلاحة الحق والإيمان، اشتبكت الحراب، واصبح كل فرد من اصحاب الجمل يتقدم نحو تلك المجموعة الصغيرة ليُغرس رمحه فيها، وتقدم طلحة نحوهم وكذلك الزبير كما

لو انهم يقاتلون جيشاً معتدياً. نظموا صفوفهم وعيّنوا قادتهم، فهجم أربعة قادة بشكل منظّم على تلك المجموعة القليلة العدد القوية الارادة. كان طلحة أحد هؤلاء القادة، حيث قاد مجموعته نحو حكيم. فوقف امامهم بثبات ورباطة جأش وهو ممسك بسيفه، يردد أُرجوزته:

اضربُهم باليابس ضربَ غلامٍ عابس

من الحياةِ آيس

لقد ضحّى بدمه مقابل وفائه، وقدم حياته رخيصة فداءً لايمانه.

كان يعلم منذ البداية بأن هذه المعركة غير متكافئة وكان على علم بنوايا اعداءه وان القطب الذي تدور عليه الرحى هو بيرق عائشة بنت الصدّيق، فاذا نكس هذا البيرق في بداية الحرب سيتملكهم الرعب ويفقدون رباطة جأشهم ولم يبق لهم شيء يدافعون عنه. فقد كانت عائشة رمزاً لوحدتهم فهي التي تثير فيهم الحميّة وتحرضهم على القتال. والله وحده هوالعالم بان ابن حكيم كان يريد قتل عائشة أم انه كان يريد أخذها كرهينة حتى يساوم بها على صلح مشرّف له ولقومه، ويعيد هيبة وسطوة الخلافة للامام في البصرة ويستعيد سلطته المغتصبة. وما أن اشتعلت الحرب حتى سارع جماعة من اصحابه الى بيت أم المؤمنين القريب من مكان بيت المال لكي يقتحموه، هذا العمل بلا شك هو آخر ما تبقى لهم من أمل لإعادة الاستقرار الى المدينة والامة، لكن هذه المجموعة لم تستطع من اقتحام بيت عائشة بسبب كثرة المدافعين من قبائل قيس والازد ورباب الذين اصطفوا امام الدار مدافعين عن عائشة لانهم كانوا يعتقدون بقدسية هذه المرأة باعتبارها عايشت الرسولﷺ، لقد كان باب منزلها شاهداً على الاجساد المقطعة

بالرماح.

لقد كان للمواقف الشجاعة التي وقفها ابـن جـبلة ان تـرفعه الى مـصاف الابطال الاسطوريين لكن تلك المواقف لم تجلب له النصر المطلوب فقد امطروه بوابل من الحراب وكذلك بالحجارة والتراب لكنه ظل صامداً حتى اقـترب اليـه رجل من اصحاب الجمل وباغته وضربه بسيفه فقطع احدى رجـليه، فـي هـذه اللحظات الصعبة التي يفقد فيها الشخص زمام المبادرة ويعتصر وجوده الالم، لم يتأثر حكيم ذلك البطل الاسطوري ولما خارت قواه من شدة نزف الدم نظر اليه الرجل الضارب نظرة شماتة وهو يشرف على السقوط من شدة الالم وعدم وجود الناصر. هل حقاً سيُدفن ذلك الانسان العظيم تحت هذه الأجساد المقطّعة؟ رغم كل هذا لم يستسلم حكيم أو انه في هذه اللحظات بالذات التي كان يغط فيها بنوم الموت رأى حُلم الشجاعة فأخذ يردد بفخر واعتزاز: «أنا لستُ ممن يموت بذل، والفرار عار، إن الموت لا يثقله المجد والأباء».

لم تبق إلّا لحظات من عمر حكيم، حتى وصل اليه أحد فرسانه وصاح به:

ـ «حكيم! ماذا حدث يا حكيم؟».

ـ «لقد قُضي عليه...».

ـ «ومن الذي قتلك؟».

وحتى في اللحظات الحرجة. لم يسمح له كبريائه وفخره أن يـهن فـقال مبتسماً: (هذا متكئي هذا). فقام ذلك الفارس بحمل حكيم وذهب به الى مكـان آمن، فتحلّق اصحابه حوله بشكـل الدائـرة فـارتفعت مـعنوياته عـندما رآهـم مجتمعين حوله، ومع أن السيوف لم تتوقف عن الحركة من حولهم فانهم لم يهتزوا

قيد انملة ولم يعيروها أي اهتمام... فقال حكيم:

«أيّها الناس، نحن خالفنا هذين الاثنين وبايعنا علياً وألزمنا انفسنا طاعته، والآن قد جاء ليطالبا حسب زعمهما بدم عثمان عن طريق العناد والحرب، يريدون ان يفرقوا بيننا وبين جيراننا، والله يشهد انهم لا يريدون الثأر لدم عثمان».

ولم يستطيع مواصلة حديثه لانقطاع نفسه ولم تعد كلماته تصل الى الاسماع، وانحبست بقية الكلمات في صدره حيث أطبق الموت عليه!

لا يمكن انكار هذه الحقيقة، وهي أنه بلا شك كان نموذجاً خارقاً للتضحية والدفاع عن العقيدة، بشكل يصعب معه ايجاد قرين له بين الرجال أو شبيه بين الابطال، يكفيه فخراً أنه رجح الموت بشرف على حياة العار والاستسلام. لقد ذهب الى بارئه بقرار صلب وقناعة كاملة بالموقف الذي اتخذه، مسروراً في الدفاع عن الحرية وعدم استعداده لتحمل طغيان الاعداء، والرضوخ لعقيدةٍ لا يؤمن بها. وكان يرى في عائشة واصحابها جيشاً معتدياً وظالماً يريد بقوة السلاح وفي عصر سطوع شمس العدالة والنور ان يرجع اهل البصرة القهقري، الى عصور الظلام والجاهلية، لذا فهو انتفض ليمحو آثار المحنة والعذاب بلسانه ثم بدمه. وكانت كلماته المختصرة تلك الكلمات التي بيّنت شخصيته بوضوح وطرحت العقيدة الحقة التي آمن بها وضحى بنفسه من أجلها رافضاً كل انواع الذل والهوان حتى اصبح علماً يسير خلفه اتباعه ومحبيه وشركاؤه في العقيدة. والحق أنهم قد دافعوا عنه وحاربوا اعداءه وبذلوا آخر قطرة من دمائهم. وستظل كلماته ترن في الاسماع، ما دامت هناك آذان صاغية لنداء التقوى والحرية في هذا العالم.

الفصل الثالث

الخواص الذين باعوا دينهم بدنياهم في اللحظات المصيرية

الخواص الذين باعوا دينهم بدنياهم
في اللحظات المصيرية

قال السيد الخامنئي:

حب الدنيا هو ان يطلب الانسان لنفسه، ويتحرك لنفسه، أن يجمع لنفسه سواء كان من بيت المال أو غيره، وهذا عمل سيء. يجب أن ننتبه جميعاً ألّا يقع مثل هذا الامر. اذا اصابتنا الغفلة عندها سيفرغ المجتمع، ويصل الى مرحلة لا يبقى له سوى هيكل أجوف وفجأة يأتي الامتحان العظيم، امتحان ثورة أبي عبد الله عليه السلام عندها يفشل المجتمع في ذلك الامتحان.

وسوسة المليون درهم!

مما لا شك فيه أن من اهم العوامل التي ادت الى انحراف البشر عن الطريق الذي اختاروه على طول التاريخ هو حب المال والثروة ومتاع الدنيا الزائلة.

فكم من الحروب أُشعلت بين بني البشر بسبب الذهب والفضة، وكم من المجتمعات شتتها وكم من الارادات الحرّة أذلها وقهرها.

في الصفحات القادمة سنرى كيف أن خزانة البصرة المليئة بالجواهر قد أغرت الصحابي (عبد الله بن عباس) ابن عم الرسول صلى الله عليه وآله وأمير المؤمنين عليه السلام وبعد ان فرّغ تلك الاموال والجواهر في رَحْله سلك طريق مكة المكرّمة وترك مولاه

وامامه في احرج اللحظات في خضم الاعاصير التي احاطت تلك الفترة من التاريخ، وفي الوقت الذي كان معسكر الامام عليه السلام احوج ما يكون الى رجال بارزين مشهورين ثابتي الاقدام لغرض تعبئة الناس لمحاربة الدجل والنفاق من الداخل. حقاً، ان حياة هذا الصحابي الجليل الذي يعتبر من كبار رجال صدر الإسلام، هي قصة عجيبة مليئة بالعبر للخواص في تاريخ الامم والمجتمعات كما وتعتبر سيرته تراثاً من العبر والتجارب لا مثيل له في تحليل عوامل الثبات والصمود للخواص المناصرين للحق. كما أن قصة أخيه الاصغر (عبيد الله) هي من الصفحات الخطيرة المليئة بالالغاز في التاريخ.

عبيد الله، هو الأخ الأصغر لعبد الله بن عباس بن عبد المطلب بن هاشم، وهو ابن عم الرسول صلى الله عليه وآله وفارس من الفرسان الذين ناصروا الامام علي عليه السلام والامام الحسن المجتبى عليه السلام، ولد عبيد الله بن عباس بعد سنة أو سنتين من هجرة النبي صلى الله عليه وآله للمدينة المنوّرة. وبقي ابوه العباس في مكة وحارب الى جانب المشركين في معركة بدر وقد أُسر فيها واطلق سراحه بعد أن افتدى نفسه كباقي الاسرى. كان عبيد الله في التاسعة من عمره عند وفاة الرسول صلى الله عليه وآله، وشهد الظلم الذي لحق بآل بيت النبوة، وقد اتجه كسائر اهل بيته نحو مولاة بيت علي عليه السلام وعيّن والياً على اليمن من قبل الامام عليه السلام بعد أن تعرضت اليمن الى خطر هجوم (بُسر بن ارطاة) على الثغور الغربية للدولة الاسلامية وكان عبيد الله يسمع بانتصاراته فقد آثر الفرار من اليمن على مواجة جيش بسر بن أرطاة ومن شدة خوفه وانشغاله بنفسه ترك ولديه الصغيرين في اليمن واتجه نحو الكوفة مرعوباً، ولما دخل بُسر المدينة ذبح ولديه بوحشية وبدون رحمة ليحرق بهما قلب عبيد الله. شهد عبيد الله استشهاد أمير المؤمنين عليه السلام في الكوفة وبعدها بايع الامام

الحسن عليه السلام. وعلى اقوى الاحتمالات فان (ابن عباس) الذي ذكر التاريخ بأنه طرح على الناس فكرة مبايعة الامام الحسن عليه السلام كخليفة للمسلمين هو عبيدالله بن عباس لأنّ عبدالله بن عباس كان آنذاك في مكة ولم يتسنى له ذلك.

في فترة خلافة الامام الحسن عليه السلام القصيرة، كان عبيد الله من خُلص اتباعه واصحابه من هنا وبعد مراسلات طويلة، ومستمرة رأى الامام الحسن عليه السلام أن ابن أبي سفيان اللجوج مصمم على اشعال نار الحرب، جهز جيشاً بقيادة عبيد الله وارسله لمواجهة معاوية وكان عمره حينذاك ٣٩ سنة وكان في احسن حالاته البدنية والروحية. وكذلك كانت جمرة الغضب على جريمة قتل ولديه لم تنطفئ بعد، وهو ابن عم الرسول صلى الله عليه وآله وأمير المؤمنين عليه السلام وموضع تأييد القريب والبعيد في الجيش، لذا كان تعينه كقائد لمقدمة الجند أفضل اختيار من وجهة نظر الامام الحسن عليه السلام.

وقام الامام عليه السلام بمرافقة الجيش الذي جهزه الى منطقة (دير رحمن). فعسكر هناك ثلاثة أيام حيث إنشغل باعداد الجند وتعبئتهم من الجوانب كافة، ومن ثم قال لعبيد الله:

«يابن العم! ارسل معك اثنا عشر الفاً من مقاتلي العرب وقراء المدينة، الذين يعادل أحدهم صفاً طويلاً من الاعداء، فألِن لهم وارفق بهم وتواضع لهم، وقرّبهم اليك لأنّهم البقية الباقية من اولئك الرجال الذين كانوا موضع ثقة أمير المؤمنين علي عليه السلام والزم نهر الفرات في تقدمك نحوهم ليكون رجوعكم من نفس المسير.

ثم تصل الى منطقة (مسكن) ومن هناك تنطلق نحو معاوية، واذا اشتبكت

معه فاشغله هناك حتى الحق بك، واطلعني على احوالك وأوضاعك يومياً وشاور هذين الرجلين (قيس بن سعد وسعيد بن قيس)، واذا وقفت حيال معاوية فلا تبدأه القتال واذا بدأك القتال فردّ عليه، واذا أصابك مكروه فقيس بن سعد أمير وقائد الجند واذا قُضي عليه فالإمارة لسعيد بن قيس، ثم اوصاه بامور أخرى».

انطلق عبيد الله حسب المهمة التي كُلّف بها ووصل منازل (شنيوز) و (شاهي) و (فلوجة) التي تقع بمحاذاة نهر الفرات واستمر في مسيره حتى وصل (مسكن) حسب وصية الامامعليه السلام. وكذلك وصل معاوية بجيشه البالغ ٦٠ ألف مقاتل الى المنطقة نفسها، وفي اليوم الثاني من استقراره أرسل معاوية جيشه للمواجهة مع جيش عبيد الله، وهذا الاخير شرع بقتالهم ورد جيش الشام الى الوراء حتى وصل الى مقر قيادة الجيش. الى هنا يكون عبيد الله قد نفّذ ما أوصى به امام المسلمين ما عدا شيئاً واحداً وهو عدم ارساله التقارير المفصّلة عن نشاطات جيشه وهذا ما تضمنته رسالة (قيس بن سعد) للامامعليه السلام في الايام التالية واذا كان كذلك فهو خطأ جسيم بالنسبة للقائد وعلامة على التهاون وعدم الانقياد للامامعليه السلام. رجع عبيد الله عند الغروب الى خيمته بعد أن هزم جيش ابن أبي سفيان المعتدي في النهار، وشكّل مجلساً حربياً وشرع بدراسة أوضاع الجيش والجبهة، ثم خلا بعد دلك بنفسه. أرخى الليل سدوله فاصبح حاجزاً بين المقاتلين وبين نهارهم المضطرب المشحون، ينزعون عن اجسامهم ملابس الحرب الخشنة الملمس، ويلقون بأسيافهم ودروعهم، وينصرفون في داخل معكسرهم الى ممارسة حياتهم العادية ولكن ليس بالحد الذي اعتادوا عليه في مدنهم، فمن المحتمل أن يتجدد القتال في اي لحظة. لذا تشاور القادة الادنى مع القادة الاعلى في جوف تلك الليلة وهذه مسألة عادية في كل جيش ولم يشذ عبيد الله في تلك

الليلة المصيرية عن هذه القاعدة.

وفجأة دخل حارس خيمة عبيد الله بن العباس وابلغه عن وجـود رجـل يطلب مقابلته وكان يحمل رسالة من ابن أبي سفيان بن حرب يُريد ابـلاغها الى عبيد الله بن العباس بن عبد المطلب. ان بني عبد شمس وبني هاشم هم ابناء «عبد مناف» المعروفين بقبيلة عبد مناف وكانا يمثلان الذراعين القويتين لقريش، لكن مع هذا، وككل القبائل كانا يحملان لبعضهما الحسد والضغينة آنذاك. كان احدهما مناطاً به سقاية الكعبة والآخر كان بيده مفتاحها.

ولما اصطفى الله عز وجل محمداًﷺ للرسالة وهو من بني هام وشرّفهم بهذا المقام الرفيع، امتلأت قلوب بني عبد شمس غيظاً اكثر من باقي القبائل الاخرى، بهذا التشريف الالهي، لأنهم فجأة قد تخلفوا عـن مـنافسيهم الرئـيسيين (ابـناء عمومتهم) بمسافة طويلة لا يمكن طيّها. لذلك سـعوا الى زرع شـتى العـراقـيل والعقبات في طريق النبي الهاشميﷺ، وقاد ابو سفيان خط المعارضة للنبيﷺ واصحابه وبقي على ذلك حتى فتحت مكة المكرمة على يد جيش الاسلام وفي الليلة التي حاصر بها النبيﷺ المشركين في مكة على رأس جيش قوامه عشرة آلاف مقاتل، امتطى العباس بن عبد المطلب فرساً ابيضاً حاملاً معه ابي سـفيان ومخترقاً صفوف الجيش وقد اعطاه الأمان حتى وصل الى خيمة رسول اللهﷺ، ليبعث حياة جديدة لزعيم المشركين في آخر لحظة، وهاهم ابناء هذين الرجلين المشؤومين يواصلان طريق آبائهما كقائدين لجيشين متنازعين بالقرب من قرية (حيوضية) في أرض (مسكن). عبيدالله ممثلاً لجيش الاسلام ومـعاوية مـمثلاً لجيش المشركين، الوجوه فقط هي التي تبدّلت. فلا نتوقع من معاوية خيراً ولا من عبيد الله حقاً، ان العباس بن عبد المطلب في اسلامه ليس كأبي طالب ذلك الرجل

الذي تولّى حماية النبيﷺ ولا كأخيه حمزة بن عبد المطلب الذي ضحى بنفسه في سبيل ابن أخيه، وليس إبناه (عبد الله وعبيد الله) كعليّ وجعفر عليهما السلام اللذان استشهدا في سبيل الاسلام ففي الوقت الذي كان جميع ابناء عبد المطلب يفدون ارواحهم في سبيل نصرة الدين الحنيف والدفاع عن حرمة رسول اللهﷺ، كان العباس في مكة غارقاً بالمعاملات الربوية ولم يكفه ذلك، بل وصم على جبينه ختم الأسر مثل بقية المشركين في معركة (بدر). وآلت الامور بالتالي الى ان يرتكب أحفاده مركب الدفاع عن استعادة حق اهل البيت عليهم السلام واللعب بعواطف المسلمين وايجاد الدولة العباسيّة الغاصبة.

والآن نبحث في قضية المقايضة التي قام بها ابنه (عبيد الله) على حساب الاسلام في تلك الليلة الظلماء من ليالي سنة ٤٠ هـ، في ارض شمال العراق بمحاذاة نهر الفرات تلك المقايضة التي لم تكن متوقعة من رجل هاشمي حتى بعد مرور ١٤٠٠ سنة على تلك الليلة، نعم ان لقاء مبعوث معاوية بعبيد الله تعيد للأذهان لقاء الآباء ليلة فتح مكة. لقد جاء المبعوث قادماً من منبع المكر والخداع (معاوية) وكعادة آل ابي سفيان في معاملاتهم المشبوهة، فقد حمل المبعوث اقتراحاً قذراً ومشبوهاً كان بمثابة الطُعم لتلك المعاملة. وفيمايلي نص رسالة معاوية الى عبيد الله: «لقد عرض الحسن بن علي عليٍّ الصلح وسيتنازل لي عن الخلافة، لذا فان اصبحت أحد قوادي واطعت أمري، سابقيك في منصبك وإلاّ ستكون منفداً لأوامري وطائفاً لي عندما تكون مغلوب على أمرك! واعلم انك لو أطعتني الآن، فسأعطيك الف الف درهم، نصفها الآن ونصفها الآخر عند دخولي الكوفة» ماذا تعتقد؟ هل أن عبيد الله سيساوم على ابن رسول اللهﷺ بعرض المليون درهم؟ هل سيعرض عن طريق الاسلام الحق ويوم القيامة؟ هل سيعرّض

جبهة العراق المبتلاة الى مزيد الاضطراب؟ هل سيترك امامه في (ساباط) ويلتحق بعدو الاسلام وقاتل طفليه؟ هل سيوصم جبهة ابناء العباس بالعار؟ وهل سيخبر امامه بعرض معاوية؟ وهل سيتحقق في صدق دعوى معاوية؟ وهل يتشاور مع مشاوريه قيس بن سعد وسعيد بن قيس حول ادعاء معاوية كلا، لم يفعل أيّا من هذه الامور. فحُلُم المليون درهم قد سلب عقله، إنه يؤمن بالله، لكن بريق الاموال قد اعمى بَصره. كان يحفظ آيات القرآن الكريم وصورة القيامة مطبوعة في ذهنه، لكن زخارف الدنيا واغرائها أقوى.

كان يميز جيداً بين الحق والباطل، ولكن بالتحاقه بمعاوية سيُمسك بمتاع الدنيا. الثروة، الخيل، النساء الحسناوات، القصور العديدة كانت في انتظاره. كان يعرف جيداً من هو الامام الحسنعليه السلام وكذلك من هو معاوية، لكن حان موعد الامتحان العسير، فالإنصراف عن المليون درهم والمقام والجاه في حكومة الشام أمرٌ صعب.

نعم، ما أن تسلّم عبيد الله دراهم ابن ابي سفيان في تلك الليلة، ترك خيمة العز والشرف، لعلّه كان يشعر بكل خطوة يخطوها نحو معاوية بتأنيب الضمير في كل خطوة يخطوها وهو ينظر الى خيمة القيادة، والى الجند الذين كانوا يحيطون به والى ما كانوا يتوقعونه من ابن عم النبيصلى الله عليه وآله، ومن ابن عمه الغريب في «ساباط» وجميع ابناء بني هاشم. من يدري لعلّه كان يسلي النفس بأن لا أحد مطلع على فعلته سوى الله سبحانه وتعالى.

وبتركه جبهة الاسلام يكون قد لبس ثوب الذل والعار، ولا نعلم انه عندما ذهب الى معاوية كان قد حمل معه درعه وخوذته وسيفه أم أنه ذهب اليه بلباس النوم فهو الأنسب لحالة الاستسلام.

على أيه حال، فقد ذهب والتحق به ٨ آلاف مقاتل واستناداً الى ما نقله المؤرخ العربي اليعقوبي في تاريخه: «لم يردعه من السقوط في الهاوية دين، او انتقام، أو تفاخر قبلي، أو قرابته لرسول الله ﷺ، أو قيادته للجيش، أو العهد الذي قطعه على نفسه امام الله يوم بيعه الحسن بن علي عليه السلام، ولا مخافة من ألسن الناس وانتقام التاريخ. فقد تسللّ في جُنح الظلام هارباً كالذليل الذي يعرف بفداحة الخطأ الذي يرتكبه، ودخل الى معسكر معاوية مديراً مديراً ظهره للتاريخ، ليُسجل اسمه في القائمة السوداء.

ان فراره قد قلب أوضاع جيش العراق، وجرّ اليأس وانعدام الأمن الى «المدائن» وهي محل استقرار الامام الحسن عليه السلام... وتوالت الاحداث والنكبات بعد هذه المصيبة الكبرى التي يتحمل مسؤوليتها عبيد الله أمام الله عز وجل وحكم التاريخ»[1]

في الفجر، اصطف الجند في مكان الصلاة منتظرين عبيد الله أن يؤمّهم ولكن طال انتظارهم حتى كادت الشمس تشرف ولم يحضر الصلاة، فاضطروا للذهاب الى خيمته عندها علموا أنه قد التحق بمعاوية. فما كان من قيس بن سعد القائد الثاني للجند إلّا أن أمّ المصلين، وبعد الصلاة خطب في الجند خطبة أوردها هنا لأنهي هذه القصة المريرة:

«يا معشر القوم، لا يضرّكم الفعل القبيح الذيقام به هذا الجبان، ويعني به عبيد الله بن العباس، فهو وأبوه وأخوه، لم يعملوا عملاً صالحاً في سبيل الاسلام

---

(١) آل ياسين، صلح الامام الحسن من أروع المرونة في التاريخ، ترجمة السيد علي الخامنئي.

ولو ليومٍ واحد، فأبوه هو نفسه الذي حضر بدراً لمحاربة رسول الله ﷺ وقد أسره ابو اليسر كعب بن عمرو الانصاري، وجاء به النبي ﷺ. وقد أُطلق سراحه مقابل فدية دُفعت عنه. وقُسمّ مبلغ الفدية على المسلمين. أما أخوه هو نفسه الذي عيّنه أمير المؤمنين عليه السلام عاملاً على البصرة، فقام بسرقة مال الله والمسلمين ليشتري به الجواري لنفسه. وحسب أن ذلك حلالاً ومباحاً له، وهذا (أي عبيد الله) نفسه عيّنه أمير المؤمنين عليه السلام عاملاً على اليمن، حيث بمجرد هجوم بُسر بن ارطاة على اليمن بأمر من معاوية فرّ من أمامه وترك طفليه ليُذبحا. وأما اليوم فقد فعل الذي علمتم.

اذا لم أحصل على السلطة اليوم، فلن أنالها أبداً بعد ذلك

المغيرة بن شعبة ينتمي الى قبيلة «بني ثقيف» في الطائف بالحجاز. يعتبر أحد صانعي الأحداث في النصف الأول من القرن الأول الهجري، وودّع الدنيا في آخر القرن المذكور، الى دار الجزاء.

يعتبر المغيرة من دُهاة العرب. حضر عند الرسول ﷺ في المدينة وأعلن اسلامه، لكن المؤرخين يعتبرون اسلامه سطحياً، حياته مليئة بالغرائب والقبائح، وعلى رأي (طه حسين) كانت حياته مشكلة من المشاكل. في أيّام شبابه كان مع مجموعة من أهل الطائف عددها ١٢ أو ١٣ نفر فسقاهم خمراً حتى أسكرهم ثم قتلهم جميعاً. ولما لم يتمكن من العودة الى مسقط رأسه الطائف. شدّ رحاله مع الدواب والبضائع التي كان اولئك المغدورين قد جاؤوا بها من مصر ورحل الى المدينة وحضر عند النبي ﷺ وأعلن اسلامه.

فعرض أمواله كلّها على رسول الله ﷺ لكنه رفضها بسبب حصوله عليها عن طريق الخيانة.

شارك المغيرة في حروب الردة ضد المرتدين، وذلك بعد وفاة الرسول ﷺ، وقد كان حاضراً في جهاد الشام، وقد فقد احدى عينيه في حرب اليرموك، كان والياً على البصرة اثناء خلافة عمر، لكنه انغمس في الفسق والفجور فشكاه الناس الى الخليفة، وشهدوا على ارتكابه الزنا، فطلب الخليفة شاهداً وأربعة اشخاص، من جملتهم (زياد بن أبيه) حيث تحركوا من البصرة لأداء الشهادة، اثناء اداء الشهادة، اكدّ ثلاثة من الشهود على رؤيته حين ارتكابه الزنا، لكنّ زياد بن ابيه أدلى بشهادته بشكل جعلت الخليفة لم يقتنع، فأقام الحدّ على الشهود بتهمة شهادة الزور في حين نجا المغيرة بنفسه.

إن قصة تغيير إداء الشهادة من قبل زياد مع الاحداث التي وقعت بين هذين الأثنين بعد ذلك، تشير الى وجود صفقات سياسية بينهما. كما أوضح اخو زياد، الذي كان من جملة الشهود، بعد ذلك في خطابه الى زياد «والله أنّ ما رأيناه قد رأيته أنت أيضاً» على أية حال، فقد ردّ المغيرة الجميل الى زياد في الحاق نسب هذا الأخير بأبي سفيان.

بعد افتضاح أمر المغيرة في البصرة عيّنه الخليفة والياً على الكوفة، مفسراً ذلك بأن أهل الكوفة لا يستقيمون مع الولاة الصالحين، كعمار بن ياسر، بل أن فاجراً مثل المغيرة قد يقوّمهم.

بقي المغيرة والياً على الكوفة حتى تولي عثمان الخلافة فعزله عنها.

لم يبايع المغيرة أمير المؤمنين عليه السلام يوم تولّيه الخلافة، وقد أعتزل في داره في معركتي الجمل وصفين. وكان حاضراً في قضيه التحكيم ولا شك أنه أبدى خبثاً فيها، وانتظر ليرى إلام تؤول الأُمور.

بعد استشهاد الامام علي عليه السلام أسرع الى معاوية وحارب الى جانبه ضد

الامام الحسن عليه السلام ودخل مع الخليفة الجديد الى الكوفة، وسرق ولاية الكوفة بدهاء وخبث. يُذكر أن معاوية كان ينوي تعيين عبد الله بن عمر بن العاص والياً على الكوفة، لكنه تراجع عن ذلك وعيّن المغيرة بدلاً منه عندما قال له هذا الأخير بأنّه لو عيّن عبد الله عاملاً على الكوفة وأبوه عاملاً على مصر فسيكون الخليفة بين فكّي الاسد.

أنكح المغيرة نساءاً كثيرات. «وعلى قول المعتدلين. قد يصل عددهن على أقل تقدير الى ٣٠٠ امرأة وعلى الأكثر ١٠٠٠، وحسب ما روي فأنه كان يعقد على أربعة نساء وفي نفس الوقت يطلق أربعاً. وكانت وسيلته في أرضائهن لقبول الطلاق هي المال»[1].

نورد هنا اثنتين من جملة الحوادث التي صنعها المغيرة، لنشرحهما باختصار، ونذكر حدثاً ثالثاً أيضاً ساهم في صنعه وهي قضية الحاق نسب زياد بأبي سفيان والتي سنأتي على ذكرها في هذا الكتاب:

الحدث الأول بعد استشهاد الامام علي عليه السلام الحق زياد بمعاوية، حيث ندع القراء يحكمون في ذلك، ومن ثم سعيه في مسألة ولاية العهد ليزيد بن معاوية.

كان زياد مشاوراً لعبد الله بن عباس عامل الامام علي عليه السلام على البصرة، وقد أدّى عمله بأتقان في الولايات الجنوبية لايران، وبعد قضية انفصال عبد الله بن عباس المريرة عن الامام عليه السلام، استخلفه في ولاية البصرة، وبعث اليه معاوية برسائل عديدة، وبالتهديد والترغيب دعاه الى الشام، فكان زياد، وحسب ارشادات الامام علي عليه السلام، كان يرد على معاوية بعنف.

---

(١) الدكتور طه حسين، علي وابناؤه، ترجمة أحمد آرام، ص ١٩٣.

كان معاوية يخاف زياداً لعدّة اسباب: أوّلها: كان زياد يعتبر من دُهاة العرب، وبانضمامه الى معاوية سيُكمل المثلث المقيت: (عمرو بن العاص، المغيرة، زياد). وثانياً: أنه كان والياً على الولايات الجنوبية للدولة الاسلامية لذا فأنه كان يتمتع بنفوذ كبير لدى الموالى، وبالتالي يمكن أن يشكلّ خطراً جدياً. وثالثاً: أن زياد كان يؤدي عمله بأحسن وجه بفضل دهائه وكياسته، وان وجوده في الولايات الواسعة من جنوب ايران. كان يمكن أن تشكل دعماً قوياً لجبهة اهل البيت في الكوفة من حيث العدّة والرجال.

بعد استشهاد الامام علي عليه السلام سعى معاوية كثيراً في استمالة زياد ومعاونيه وجلبهم الى الشام، لكن هذا الأخير واصل امتناعه ولم يكن يرى مجالاً للمقارنة بين ابن هند وابن الزهراء عليها السلام الذي استخلفه والده في الكوفة حديثاً، وفيما يلي الرسالة الجوابية التي بعث بها زياد أيّام خلافة الامام الحسن عليه السلام على احدى رسائل معاوية الخدّاعة.

«ابن آكلة الأكباد ـ يشير الى هند التي التهمت كبد حمزة سيّد الشهداء بأسنانها بعد ما مزّقت صدره رمز النفاق وبقية الاحزاب قد بعث اليّ برسالة يتوعدني فيها ويُطمعني في حين أن بيني وبين ابناء رسول الله صلى الله عليه وآله ـ اشارة منه الى الحسن والحسين عليهما السلام وجيش من ٩٠ الف (وفي رواية أخرى ٧٠ ألف) من الرجال رهن الاشارة وحاملين ارواحهم على أكفهم حتى الشهادة. والله، لو جاءني معاوية فسيراني أصلد واصعب مراساً»[1].

---

(١) آل ياسين، صلح الامام الحسن عليه السلام من اروع المرونة في التاريخ، ترجمة آية الله السيد علي الخامنئي، ص ١٦١ نقلاً عن اليعقوبي، ج ٢ ص ١٩٤، وابن الاثير، ج ٣، ص ١٦٦.

يستند زياد في رسالته هذه على ثلاثة محاور: المحور الاول، عدم أهلية معاوية بأعتباره رأس النفاق والفرع المتبقي من مشركي الاحزاب وابن هند آكلة الاكباد، وأبوه (ابو سفيان) كان زعيماً للمشركين.

الثاني، يشير الى قداسة وصلاحية الامام الحسن عليه السلام كخليفة للمسلمين، وعدم امكانية مقارنة هذين الاثنين.

والثالث، يشير الى قوة الاسلام العسكرية بقيادة الامام الحسن عليه السلام. كان رأي زياد في القسم الاول والثاني من رسالته رأياً سديداً، أمّا القسم الثالث:

(صلابة الموقف العسكري للأمام الحسن عليه السلام واستحالة هزيمته) والتي كانت احدى العوامل في عدم التحاقه بمعاوية فمستبعداً بسبب الحس السياسي الذي يمتلكه زياد واطلاعه على اوضاع العراق المضطربة آنذاك وقد عزف زياد على هذا الوتر حتى تمّ الصلح بين الامام الحسن عليه السلام ومعاوية، وهرب هو الى ايران واختار احدى القلاع المستحكمة في «ماواي»، وذلك خوفاً من ردّة فعل معاوية بسبب رسائله اللاذعة اليه.

ولكن معاوية بما عُرف من خداع وحيلة لم يأبه لرسائل زياد بن ابيه إليه واستمرّ في استمالته ودعوته اليه فجرّب كل السُبل كالماكر الذي يسعى الى النيل من فريسته، كان يعلم جيّداً ان امتناع زياد، وبعد الصلح مع الامام الحسن عليه السلام، لن يدوم طويلاً وسنتهي بخدعة ما، واختار لهذه المهمة الاعور الماكر، الذي كانت حياته مبنية على الحيلة والخدعة منذ البداية، أي «المغيرة بن شعبة الثقفي» توجه المغيرة الى بلاد فارس ـ حيث تحصّن زياد في قعلته وهو يوعد معاوية بالحاق زياد اليه. حاملاً معه رسالة من معاوية مليئة بالترغيب والترهيب، فكان

كالشيطان، يأتي زياد عن يمينه وعن شماله ، وعن امامه وعن خلفه، حاصره بوعوده الساحرة الخدّاعة، حتى وقع زياد في الفخ، فاصطحبه المغيرة الى دمشق في الشام، حيث وضع يده بيد معاوية العدو القديم للاسلام. ان سمسرة المغيرة في إلحاق زياد بمعاوية هي في الواقع ردّ لجميل زياد في شهادته اثناء عمل الزنا الذي قام به المغيرة، وانقاذه من الرجم، وقد كان الامام علي عليه السلام قبل هذا يحذّر زياد من الالتحاق بمعاوية، وفي رسالة بعثها اليه يصف فيها معاوية على النحو التالي:

«وقد عرفتُ أنّ معاوية كتب اليك يستنزلُّ لُبّك ويستفلُّ غربك، فأحذرهُ، فإنما هو الشيطان: يأتي المرء من بين يديه ومن خلفه، وعن يمينه، وعن شماله، ليقتحم غفلته ويستلب غرّته..»[1].

لكن زياد لم يكن ذو ايمان راسخ ليصون نفسه من اغراء المغيرة ومعاوية، ويضع نصائح امام المتقين دائماً نصب عينه، لقد راح والتحق بقافلة آل قابيل، وكان المغيرة سمساراً لهذا العقد الغير مبارك. لقد قام المغيرة بالجمع بين زياد ومعاوية، لأرضاء الاخير ومن ثم ابقاءه على ولاية الكوفة، هكذا هو الولع بالسلطة والرئاسة، فقد ادى به الى ارتكاب جُرم عظيم، في حين اقترح ولاية العهد ليزيد في وقت كانت قد تزلزلت من جديد أركان حكومته في الكوفة، وهو الجزء الثاني الذي نستعرضه واياكم.

ينقل المؤرخون، أنه بسبب طول مدّة ولاية المغيرة على الكوفة، رأى معاوية ان يعزله، ويعيّن سعيد بن العاص الأُموي مكانه، ولما تناهى الخبر الى

---

(١) نهج البلاغة، الرسالة ٤٤، حسب ترتيب صبحي صالح.

المغيرة، ارتأى أن يتظاهر بالتعب في الحُكم وأنه ينوي التنحّي عن السلطة ويريد الذهاب الى الشام، ليعتقد الناس بأنه قرّر التخلي عن الولاية، ولكن في هذه الاثناء خطرت له حيلة وهو في طريقه الى الشام، فلما وصل ابواب دمشق، أطلع اصحابه على هذا الامر. كان يعلم علم اليقين ضعف ايمان معاوية، ومقابل الحفاظ على دنياه سيقبل بدفع متاع قليل وهذا المتاع هو ابقاء المغيرة على ولاية الكوفة.

لذا، قام المغيرة بتقليب جوانب الأمر، وهو في طريقه من الكوفة الى دمشق، فقال لأصحابه: «اذا لم استطع الآن أن احصل على الامارة لكم فما استطيع ذلك ابداً»، يوضّح هذا الكلام هدف المغيرة الحقيقي من وراء طرح اقتراحه ذلك، لذا فسيرى القارىء آنفاً بوضوح، آن الاصطلاحات والكلمات التي سترد على لسان المغيرة والمغلّفة بغلاف اصلاحي، هي من أجل تحقيق هذا الهدف اي الابقاء على ولاية الكوفة في قضيته.

توجه المغيرة بمجرّد وصوله الى الشام الى لقاء يزيد مباشرة قبل ان يتوجه الى معاوية، وذلك لانه كان يُحتمل أن يواجه بقرار متخذ مسبقاً من قبل معاوية وهو أمر عزله عن الولاية لو أختار الذهاب الى هذا الاخير بدايةً، لذا فقد آثر ان يذهب عند شاب جشع متعطّش للمقام والخلافة. يستطيع بأقتراحه هذا ان يسيطر على عقله، فدخل على يزيد وقال: «حقا لقد ذهب خيرة أصحاب الرسول ﷺ وأشراف القوم وعليتهم، وبقي أولادهم حيث أنك افضلهم منزلة وأرشدهم رأياً، وأعلمهم بالسُنّة والسياسية، فلا أدري لم لا يأخذ أمير المؤمنين لك البيعة.

فقال يزيد: «برأيك هذا ممكن؟» فأجابه المغيرة: «بلى».

فذهب يزيد الى أبيه وقصّ عليه مادار بينه وبين المغيرة. فأرسل معاوية في

طلب المغيرة وقال له: إيه يا مغيرة ماذا يقول يزيد».

فقال: «يا أمير المؤمنين، لقد رأيت كم من دماءٍ سالت بعد مقتل عثمان ـ وكم من اختلافات برزت. فيزيد هو انسب وريث. لذا فأسرع في أخذ البيعة له لأنه اذا اصابك مكروه عندها سيكون ملاذاً للناس وخليفتك عليهم فلا دم أريق، ولا فتنة حدثت».

فقال معاوية: «ومن الذي سيعينني على هذا الأمر؟».

فأجاب المغيرة: «أنا أكفيك الكوفة، ويكفيك زياد البصرة، فلن تجد إذن مَنْ يعارضك في هذين المصرين».

فقال معاوية: «ارجع الى مقر عملك وشاور من تأتمن في هذا الامر، خطّط للأمر وسنخطّط نحن[1] لذا رجع المغيرة وباشر في تهيئة يزيد، شارب الخمر والفاسق لفرضه كولي للعهد على الامة الاسلامية، واكثر من هذا، فقد وضع الأساس للحكم الوراثي، الذي لم يكن معهوداً حتى ذلك العصر، هو نفسه كان يعلم بفداحة الخطأ الذي ارتكبه في مقابل الحفاظ على منصبه الدنيوي ولهذا يقول لأصحابه بعد أن التقى بالخليفة بسبب النجاح في خدعته «أدخلتُ معاوية في أمرٍ سيكون لأمة محمدﷺ سنة دائمة، وعقدت لهم عقدة لن تحلّ في المستقبل القريب».

اذا امعنا التفكير في الجملة التي قالها المغيرة بعد تثبيت يزيد لولاية العهد، يتأكد لنا انه كان يُدرك عمق الهوة التي احدثها في المجتمع الاسلامي مع ايمانه

---

(١) آل ياسين، صلح الامام الحسنعليه السلام من اروع المرونة في التاريخ، ترجمة آية الله السيد علي الخامئني، نقلاً عن رواية ابن الاثير.

بالدين الاسلامي، ولكن لماذا أقدم على ترشيح يزيد وابتداع الحكم الوراثي في الاسلام مع علمه بعاقبة هذا العمل والايمان برسالة النبيﷺ، وهـذا المـوضوع تناولنا شرحه في الفصول السابقة، والذي اذا لم توضيح ابعاده فسـيكون درسـاً لكل المناضلين والمجاهدين والخواص. ان الخلفية التاريخية لهذه القضايا تُثبت ان اشخاصاً كالمغيرة كانوا يؤمنون بالدين والمعاد، لكـنهم لم يسـتطيعوا نـصرة معسكر الدين عندما كانت مصالحهم المادية ومنزلتهم الاجتماعية تتعرض للخطر في اللحظات الحسّاسة.

للامام عليعليه السلام كلام صريح في مسألة تفرّق الناس وبصورة خاصة النخبة منهم، حيث انهم بالرغم من ايمانهم بـالمعاد والآخـرة، فـهم لم يـصمدوا امـام زخارف الدنيا.

لأثبات ان المغيرة قد أقدم على ارتكـاب الأخـطاء وتـقديم الخـدمات لمعاوية، مع ايمانه بالله تعالى، لا بأس في ان نورد القصة التالية:

ذكر المسعودي في كتابه (مروج الذهب): سمعت المدائني يقول:

«أن مطرف ابن المغيرة بن شعبة قال: «ذهبنا أنا وأبي الى معاوية فتحدث ابي ثم رجع اليّ، وأخذ يتكلم عن معاوية وعقله الراجح، واعجابه بأعماله، رأيته ذات ليلة مهموماً ولم يتعشى، فتريّثتُ ساعة لأرى ان كان ما يهمّه هو من طرفنا. فقلت له: ما لي أراك الليلة مهموماً؟

فقال: يا ولدي، لقد جئت الليلة، من عند اشر الناس.

قلت: ما الخبر؟

قال: خلوتُ بمعاوية وقلتُ له: يا أمير المؤمنين الآن وقد صفا لك الدهر،

فما احسن ان تفرش بساط العدل والاحسان وقد تقدّمت في السنّ، وان تُحسن الى ابناء عمومتك من بني هاشم، فلم يُعد يهددك من جانبهم أي خطر.

فقال لي: لن يكون ذلك، ان أخا تيم حكم وعدل وفعل ما فعل وما أن مات ماتت سيرته، ونادراً ما يذكره أحد، وبعده أخا عديّ حكم عشر سنوات وجدّ وأجتهد، فما ان مات، مات ذكره معه، وقلّما يذكره أحد، وجاء بعده أخي عثمان وحكم فلم يكن أحد مثله في القرابة، فما استطاع عليه فعل فمات وماتت معه سيرته، وانمحى ما فعلوه معه أيضاً، أما أخا هاشم هذا فيذكروه خمسة مرات كل يوم بقولهم: «اشهد أن محمداً رسول الله» فأي عمل سيخلد ذكره؟ ثكلتك أُمك، فأنا والله عندما نوارى التراب فقد انتهى كل شيء»[1].

نعم، ان المغيرة مع علمه بكفر معاوية وارتداده، واغتصابه حق آل البيت عليهم‌السلام الطبيعي، فقد ظلّ في خدمة معاوية، لا بل رشّح شاباً فاسقاً وفاجراً كخليفة للمسلمين وابتدع بدعة في دين محمد ظلّت قائمة لزمن طويل، وحسب قوله، عقد عقدة في الدين الاسلامي لن تحل في المستقبل القريب.

نُنهي هذا الفصل ببيت من الشعر قاله الشاعر حسان بن ثابت أحد صحابة رسول الله صلى‌الله‌عليه‌وآله في المغيرة بن شعبة، ومعناه كالآتي:

لو تجسم الشر والخسة فسيكونان عبد ثقيف الاعور الدميم (المغيرة بن شعبة).

---

(١) مروج الذهب، ج ٢: ٤٥٤ ـ ٤٥٣.

أملأ ركابي من الذهب.

لاجل وصف اللحظات التاريخية التي تتدخل في قرار الخـواص لتـغيير مسار التاريخ، نتصفّح هنا بعض صفحات تحوي أصعب اللحظات لقـائد أبشـع حرب التاريخ.

عندما هم عمر بن سعد بن أبي وقاص في اواخر عام (٦٠ هـ ق) بالرحيل الى مقر حكومته في الريّ، فوجيء بقرار جديد، قلب كـل حسـاباته وأحـلامه العريضة،؟ وعرّضه لأقوى الضغوط، وقذْف به في خضم اضطراب عـاصف. اذا صحّت الروايات بأن عمره اثناء واقعة كربلاء كان عمره ٥٥ سنة فيكون قد وُلد في سنة (٥ هـ ق) في المدينة، ولا شك، أنه يحمل في خاطره ذكريات عن النبيﷺ، وذلك بواسطة المنزلة التي كان يحظى بها أبوه لدى الرسولﷺ، حيث انطبعت في مخيلته الطفولية الوقادة الوجه النوراني لذلك الانسان الرباني، كان أبوه من شيوخ الصحابة، وقد قاد بعض معارك المسلمين الفاتحين مع الجيوش الساسانية. لهذا السبب، نُقش اسمه بشكل بارز على صدر التاريخ. كما أنه عُيّن من قبل الخليفة الثاني أحد الرجال الستة في الشورى، ومن هنا يكون قد تجاوز حدوده، كما أنه لزم بيته واصبح من (القاعدين) أيام خلافة أمير المؤمنينعليه السلام.

الانسان، مخلوق معقّد، ويملك قـوى مـحيّرة، حـتى ان بـعض رغـباته وانفعالاته تبقى مخفية عليه.

فهل أن سعد بتعيينه أحد رجال الشورى الستّة، وأنـه اصـبح مـع الامـام عليعليه السلام في خندق واحد للوصل الى الخلافة قد أصيب بأنفصام بالشخصية وعلى أساس هذا، تغيّرت نظرته للأحداث من حوله بشكل كلّي؟ تؤكد وقائع التاريخ ان

ليس هو ففقط قد تعرّض لهذا التغيير بل أن طلحة والزبير وعبد الرحمن وابنائهم أيضاً قد اصابهم ذلك التغيير الجذري في مسألة تعيين شورى الستّة لتعيين الخليفة، فبدأوا بالمطالبة بحقوق ومزايا استثنائية لهم جعلتهم يخرجون عن طريق الأخلاص وأفرغتهم من صفاء الايمان للصحابة والتابعين.

لا نبالغ اذا قلنا ان تاريخ صدر الاسلام قد تأثر بشكل كبير بسبب الأحلام الخيالية لبعض الطامعين في شورى الستة، وعمر بن سعد الذي سنتحدث عنه، أحد هؤلاء الاستغلاليين.

كان أحد الشخصيات البارزة في الاسلام، فهو قائد الجيش المنتصر علىالايرانيين، ومن شيوخ الصحابة والمرشح للخلافة الاسلامية بعد موت أبيه، حيث قرّب نفسه من حكم معاوية، وقد حضى بأمتيازات ومناصب استثنائية.

عين عاملاً على «رافس» أي الري، وذلك أواخر العام ٦٠ هـ ق. قال بعضهم أنه عُيّن بهذا المنصب من قبل يزيد بشكل مباشر، وقال البعض الآخر بل أن (عبيد الله بن زياد) قد فعل ذلك.

المؤيدين للرأي الاول يقولون أن ابن سعد دخل الكوفة لتفقد أملاكه ليرحل منها الى ايران. في هذه الايام، كان تحرّك الامام الحسينعليه السلام من العراق قد ظهر على مسرح الأحداث، فأصرّ عبيد الله حاكم الكوفة الجديد على عمر أن يتولّى قيادة جند العراق في محاربة الامام وأجبره على القبول بذلك.

يبدو أن القول بأن عمر عيّن عاملا على الري من قبل عبيد الله قبل حركته الىايران، لأنه (عبيد الله) قد أوكل اليه مهمّة جديدة وقد اشترط قبول سعد بهذه المهمة الجديدة مقابل منحه ملك الري، نقول أن هذا الراي هو أقرب للواقع.

المهم هو تعيين عمر على ملك الري وبعدها أوكلت اليه مهمة ستجعله يكون قبوله بها هو شرط نفاذ الحكم الاول.

فدعاه عبيد الله بن زياد الى قصر الامارة، وأخبره بموضع مجيء الامام الحسين عليه السلام الى العراق وقال: «لا أرى أحداً غيرك يستطيع مواجهته، تخلّص منه أولاً ثم أحزم أمرك الى الري». لم يكن حديث عبيد الله بعيداً عن الواقع. فقط شخص كعمر: باعتباره ابن أحد الصحابة الكبار والمعروفين، بحكمته من الناحية النفسية أن يقف بوجه أحب الشخصيات في العالم الاسلامي أي أبا عبد الله الحسين عليه السلام.

حيث لم يجرأ على هذا الامر، اغلب القادة في الكوفة وذلك لتمكّن هيبة وعظمة وعصمة الامام في قلوبهم، حيث كان هذا الاحتمال وارداً وهو التحاق هؤلاء القادة بجيش الامام عليه السلام.

لقد ارتجف عمر بن سعد من هذا العرض، فبالرغم من توجهه الى البلاط الاموي للحصول على متاع الدنيا الذي أعمى أبصار الكثير من صفوة الأمة الاسلامية، لكنه كان قارئاً وحافظاً للقرآن وكان يرجو رضوان الله. من ناحية أخرى، كان كسائر أبناء الصحابة، يعلم جيداً بالبون الشاسع بين الامام الحسين عليه السلام ابن فاطمة الزهراء عليها السلام وعلي عليه السلام وبين يزيد بن معاوية بن أبي سفيان، وهو أمر لم يكن هناك أحد ليتجاهله.

وبالرغم من أن زخارف الدنيا، قد ألجمت ألسنة الصفوة، لكن الاشتراك في قتال الامام الحسين عليه السلام أمر كان يخشاه كثيراً ابناء صحابة رسول الله صلى الله عليه وآله.

عمر بن سعد كان رفيق طفولة الامام الحسين عليه السلام، وقد رأى كيف كان رسول

الله ﷺ يضمه الى صدره ويكُنُّ له محبّة ومودّة، من هنا كان يرى في قتال الامام الحسين عليه السلام عاراً له ولأسرته، فلما رأى عبيد الله تردّد سعد وقال: «حكومة الريّ معقودة بتنفيذ هذه المهمة، فكر في الامر بسرعة وأعلمني بالنتيجة».

لقد خلق الشرط الذي وضعه ابن زياد له اضطراباً كبيراً في قلبه وبدّد كل احلامه حول الحكومة الجديدة، لم يعُد سعد يقوى على الكلام و لا حتى التفكير. فطلب منه مهلة ليفكّر في الأمر فخرج من قصر الامارة وهو مضطرب البال متغيّر الوجه مثقل بالهموم، وذهب الى بيته.

إن الإمساك بملك الريّ الاسطوري والسّاحر هذا الاقليم الواقع في حضن جبال البرز الجميلة، في الوقت الذي يحقق طموح التفوّق لدى الانسان ومن ثمّ التفريط به (بالمُلك) ليعتبر في اصعب القرارات، حتى لأولئك الذين يمتلكون ايمان قويّ وارادة حديدية، لذا لم يكن في بال عمر بن سعد أن يترك هذه الفريسة بعد أن امسك بها.

للحظة قال لنفسه: «ليتني تحركت في اللحظة التي استلمت فيها أمر ولاية الريّ وأبعدتُ نفسي عن الكوفة، لكي لا يفكر عبيد الله في أسناد هذه المهمة الجديدة لي، ليت الحسين عليه السلام لم يأت الى العراق، ليت عبيد الله قد وكّل أمر هذه المهمة لغيري، وليت وليت...» لكن كل تلك كانت أحلام ليس أكثر، وقد ضرب عليها الواقع ختم البطلان، فقد كان في الكوفة عندما اشترط عليه عبيد الله القبول بقتال الحسين عليه السلام مقابل الالتحاق بحكومة الري، وفي تلك الايام، كان الحسين عليه السلام في طريقه الى ابواب الكوفة، وعلى عمر بن سعد أن يتّخذ قراره النهائي. قرار ذو حدّين، حدّه الاول، الاقلاع عن شيء صرف عمره كله في بلاط الامويين من اجل تحقيقه وها هو أمر تنفيذه بيده، وحدّه الآخر، محاربة الاسلام

الاصيل وحقيقة الدين.

لقد طلب ليلة واحدة لاتخاذ قراره النهائي، وكانت اللحظات تتسارع. لم يواجه في عمره ورطة كهذه، كان أحياناً يرى نفسه في قصر الريّ والرجال والقوّاد يحيطون به كدرّة في عُقد أجمل مُلك الدنيا.

وأحياناً أخرى كان يذهب خياله به الى صحراء الطف، مصطفّاً مع الشمرّ بن أبي الجوشن، الخوليّ، سنان بن أنس و....، في مواجهة أهل بيت الرسالة، يجد نفسه محتقراً ازاء الدين والرسول وخجلاً، فيمسح هذه الصورة من خياله بسرعة ليتخلّص من مرارتها.

كان ضيق الصدر، وعقله لا يقوى على البحث عن حلّ، كان منقطعاً عن العالم من حوله، ويغطّ في افكاره المضطربة. في هذا الجو الملتهب، قفزت خاطرة من جعبة ذكرياته رنّت في أذنه كانت هذه الخاطرة جملة قد خاطبها اياه الامام علي بن أبي طالب عليه السلام وهي:

هي لحظة يفرش جنود الرحمن فيها امامه سُفرة الاختبار المتلونة ـ فألهما فجورها وتقواها لعلّها تُسعفه في اللحظات المحيرة.

ولكن بالرغم من ذلك، هل أن ترك حكومة الريّ بالأمر السهل؟

هل أن عمر بن سعد فقط الذي لم يستطع مقاومة اغراء متاع الدنيا؟

هل أن الاية الشريفة ﴿أم حسب الناس أن يُتركوا أن يقولوا آمنّا وهم لا يُفتنون﴾[1] تشمل عمر بن سعد لوحده الذي يقف على مفترق طريقين قتال ابن

(١) سورة العنكبوت: ٢.

رسول الله ﷺ أو حكومة الريّ الساحرة، أم أننا جميعاً سنواجه امتحاناً صعباً لصقل جوهرة ايماننا الحقيقي وعندها نُساق للحساب.

الواقع، أن الانسان في لحظات الاستقرار، هو ليس نفسه في لحظات الامتحان والابتلاء، والحكم على كلتي الحالتين للانسان ليس بالأمر الهيّن.

اذا سلّمنا أن اولئك الذين كانوا يدورون حول رسول الله ﷺ لمدة ٢٣ سنة كالفراشة، وكانوا يستمدّون من نبعه النوراني الفيّاض القوّة المعنوية، هم بشر كسائر الناس، وان قوانين التاريخ تنطبق على تلك الحقبة من الزمن أيضاً، عندها سندرك رجوع هؤلاء العظام عن طريق الهداية نحو الضلال وفي هذه الحالة يكون الحكم أسهل، وذلك ان الانسان مهما يكن عظيماً ووجوده منصهراً في قالب الأيمان والدّين، فان احتمال خطأه وانحرافه عن جادة الصواب واردة، وهذه حقيقة تكمن في جوهر كل انسان.

والانبياء والأئمة المعصومين عليهم السلام فقط هم الذين تمكّنوا من شياطين نفوسهم وتسلطوا عليها حتى انعدمت امكانية انحرافهم.

لعل أبلغ قول في هذا المضمار لاحدى خُطب امير المؤمنين عليه السلام في نهج البلاغة، والذي يتحدّث فيها عن انحراف اصحاب رسول الله ﷺ الخُلّص ايام خلافته فيقول:

«فما راعني إلّا الناس كعُرف الضَّبع إليّ، ينثالون عليّ من كل جانب، ...مجتمعين حولي كربيضة الغنم. فلما نهضت بالأمر نكثت طائفة ومرقت اخرى، وقسط آخرون: كأنهم لم يسمعوا الله سبحانه بقول: ﴿تلك الدار الآخرة نجعلُها للذين لا يُريدون عُلُواً في الأرض ولا فساداً، والعاقبة للمتقين﴾ بلى! والله لقد

سمعوها ووعوها، ولكنّهم حليت الدنيا في اعينهم، وراقهُم زُبرجُها»[1].

اذا كان صحابة رسول الله ﷺ لم يستطيعوا مع ما لَهم من علم ودراية بالقيامة وبأنحراف الطريق الذي سلكوه، ان يغمضوا اعينهم عن زخارف الدنيا، ورقوا بأنفسهم وبكامل ارادتهم في وادي الضلال، فما بالنا نحن الذين تفصلنا عن هؤلاء ١٤ قرنا، كذلك سندرك جيداً تحيّر واضطراب عمر بن سعد وهو يختار بين الدنيا والاخرة ان اغراء متاع الدنيا البرّاق قد قصم ظهر كثير من العظماء وابن سعد بن أبي وقاص احدهم. حيث وقف وجهاً لوجه مع الانسان الكامل في عصره والامام المنتخب من قبل رسول الله ﷺ.

ان تصارع القوى المتضادة في داخل شخصية عمر بن سعد أدى به في النهاية الى ساحل الأمان حيث قرّر الامساك بملك الريّ اي القبول بقتال الامام الحسين عليه السلام. لكن على امل المصالحة معه وليس التصميم على قتال ابن رسول الله ﷺ. هذا ماكان يختلج في داخل عمر بن سعد. وبهذه النيّة ذهب الى قصر ابن زياد وقبل مسؤولية قيادة الجيش الذي اوكلت اليه مهمة أخذ البيعة من أبي عبد الله الحسين عليه السلام. ليزيد، واذا رفض ينهي أمره.

فتوجه نحو كربلاء، وقضى أياماً في التباحث مع الامام، وكان ينوي في هذه المباحثات ان ينجح في مهمته أي الحصول على ملك الري ويُرضي ابن زياد من ناحية ومن ناحية أخرى لا يلطّخ يديّه بدم ابن رسول الله ﷺ. لكنّه لم يجد في الامام ليونة كمّا تسبب أصحاب ابن زياد وخصوصاً شمر بن ذي الجوشن في الحيلولة دون الاستجابة إلى الرسائل التي يعث بها ابن سعد إلى الكوفة طالباً فيها

(١) نهج البلاغة ص ٤٩ حسب ترتيب صبحي صالح (الخطبة الشقيقية).

الاذن بمصالحة الإمام الحسين عليه السلام.

قد تكون هذه المرة الأولى التي وجد ابن سعد نفسه فيها مجبراً على انتخاب أحد الطريقين، قتال الحسين عليه السلام أو حكومة الري، هي في عصر التاسع من المحرم، عندما جاء شمر حاملاً اليه برسالة سدّت طريق المصالحة بوجهه بشكل نهائي وخيّرته بين محاربة الحسين عليه السلام أو التنحي.

هنا ضاعت كل الأحلام، وتبدّدت كل الشكوك عندما حسم عمر بن سعد صراع المقام ورئاسة الدنيا من جهة وطريق الحق والحقيقة من جهة اخرى عندما أختار الأول، على عكس اختيار الحر بن يزيد الرياحي، اختياراً جعل منه أقبح وجه في تاريخ الاسلام الى جانب الشمر بن ذي الجوش.

كان عمر أول من وضع السهم في قوسه ورماه باتجاه جند أهل البيت عليهم السلام، واشهد الجمع على فعلته تلك عند ابن زياد. بعد مصيبة كربلاء كان يرنّ في أذنه آخر ما قاله اليه الحسين عليه السلام: **«ويحك اما تتقي الله الذي اليه معادك اتقاتلني وانا ابن من علمت، ياهذا ذر هؤلاء القوم وكن معي فانه اقرب لك من الله... مالك ذبحك الله على فراشك سريعاً عاجلاً ولا غفر لك يوم حشرك ونشرك، فوالله أني لأرجو أن لا تأكل من بُرّ العراق إلّا يسيراً»**[1].

نقل الخطيب الخوارزمي ان الحسين بن علي عليه السلام قد بعث برسالة الى عمر بن سعد بواسطة أحد اصحابه وهو (عمر بن قرظة الانصاري) يطلب فيها لقائه والتباحث معه. فوافق عمر بن سعد على هذا الأقتراح، فذهب الامام عليه السلام في تلك الليلة يرافقه ٢٠ من اصحابه الى الخيمة التي نصبت وسط الميدان الفاصل بين

---

(١) مقتل الخوارزمي: ١/٢٤٥.

الفريقين، وأمر ألّا يدخل أحد الى الخيمة سوى أخيه أبـو الفـضل وولده عـلي الاكبر، وعمر بن سعد كذلك تحرك مع جمعٌ من اصحابه يقدّرون بـ ٢٠ نفر أيضاً، الى تلك الخيمة وقد أمر أن يدخل معه ولده حفص وغلامه الخاص فقط.

قال الامامعليه السلام مخاطباً ابن سعد بقوله: «**يا بن سعد اتقاتلني وأنت تعرف من أنا ومن هو أبي ألا تخاف من الله الذي اليه مرجعك؟ ألا تريد أن تكون مـعي، وتنفصل عن هؤلاء فهذا العمل أقرب الى الله وامتثال لأمره**».

فقال عمر بن سعد في جوابه للأمامعليه السلام: أخشى أن يهدّموا بيتي في الكوفة.

فأجاب الامامعليه السلام: «**أنا أبني لك بيتاً من مالي الخاص**».

فقال عمر بن سعد: أخشى أن يُصادروا بساتيني.

فردّ الامامعليه السلام: «**أنا أعطيك أحسن البساتين في الحجاز**».

فقال عمر: زوجتي وولدي في الكوفة وأخشى أن يتعرّضوا للقتل.

لما رأى الامامعليه السلام تعلّله بالحجج الواهية، يئس من رجـوعه عـن طـريق الضلال فقال جملته الأخيرة التالية مختتماً الجلسة:

«**ما لك ذبحك الله على فراشك لِمَ تصرّ كل هـذا الاصـرار عـلى اطـاعة الشيطان، لا غفر الله لك يوم القيامة والله أني لأرجو أن لا يصيبك من برُ العراق إلّا يسيراً (أي قصّر الله في عمرك)**».

فأجاب عمر بن سعد باستهزاء: يكفيني شعير العراق. «يا أبا عبد الله فـي الشعير عوض عن البُر»[1].

---

(١) مقتل الخوارزمي: ج ١ / ٢٤٥.

وعند رجوعه من واقعة كربلاء على رأس جيشه الى الكوفة، أنشد البيت التالي عند دخوله على ابن زياد:

إمــلأ ركــابي فــضةً أو ذهــباً   فــقد قــتلت السـيّد المــهذّبا

ويقول في بيت آخر ما معناه:

لقــــد قــــتلت الذي أمّــــه   خير الأمّهات وأبوه خـير الابـاء

واضح من هذه الأبيات الآنفة أن عمر بن سعد كان عارفاً بمقام ومنزلة ابا عبد الله الحسين، وآل بيت الرسالة والامامة، لكن ما العـمل ان حبّ المـقام والذهب والفضة والحضور في قلب السلطة الاموية، أرجح كفّة من تحمّل الصعاب والمشاكل والدفاع عن الحق.

لكن ما يجب أن نعتبر منه، أن مثل هذه الاختبارات الالهية يمكن أن تتكرّر لكل انسان ولكل مجتمع، ومن خصائص السنن والاخـتبارات الالهـية، ثـباتها وعدم تغيّرها.

يقول الله تبارك وتعالى في سورة البقرة الآيه الشريفة (٢١٤) ﴿أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يأتكم مثلُ الذين خلوا من قبلكم مسّتهم الباساء والضّـراء وزُلزلوا حتى يقول الرسول والذين آمنوا مـعه مـتى نـصر الله ألا أن نـصر الله قريب﴾.

ويل لي منك

في هذه السطور من كتاب سيرة خواص أهل الحق وتصرّفهم في احـرج لحظات التاريخ الاسلامي نأتي على بيان طفرات من حياة «زياد بن أبيه».

يعتبر زياد احدى شخصيّات صدر الاسلام المحيّرة، والذي سجّل صفحات من تاريخ المسلمين في القرن الأول بأسمه. كان كالمغيرة، يمتلك الذكاء والدهاء والمواهب العديدة، مما جعلته يرتقي من غلام بني ثقيف الى حاكم العراق.

اختلف المؤرخون في سنين طفولته، أمه سميّة جارية الحارث بن كلدة وهي من اصل ايراني أو هندي، وأبوه كان عبداً رومياً، وكان زياد حاصل انسانين محتقرين حسب العُرف الاجتماعي آنذاك وقد ختم على جبينه ختم العبودية. وُجلب من وطنه (الهند أو ايران أو بلاد الروم) الى الحجاز. وُلد في بداية الهجرة، لقد كانت طفولته غامضة، ولا نعرف عن مرحلة مراهقته إلّا أنّه كان من ضمن خدم ابنة الحارث والتي كانت زوجة عقبة بن غزوان في ذلك الوقت، ورحل الى العراق وشارك في الفتوحات الاسلامية لسائر موالي بني ثقيف، واستقرّ هناك.

ولا يُعرف متى أُعتق من عبوديته فقد ظلّ ذلك سرٌّ من اسرار حياته، ولكن نعلم أن المائة ألف درهم التي استلمها من الخليفة الثاني دفعها لعتق والده (عُبيد).

أن عبيد هذا مجهول لدرجة كان الناس يسمّونه باسم أمّه (زياد بن سميّة) أو (زياد الأمير) أو (زياد بن أبيه).

على أية حال، فقد ارتقى زياد السلّم في العراق بفضل ذكائه ودهائه ووصل الى درجة كاتب لعمال البصرة، يُحكي أنه في احدى سني شبابه قدّم دفتر حساب البصرة بجرأة وكفاءة أذهلت الخليفة والحاضرين. بقي زياد بهذا المنصب حتى انطوت صفحة عمر وعثمان. ودخل الامام علي عليه السلام البصرة أثر معركة الجمل. وبعدها أصبح زياد كاتب ابن عباس عامل الامام على البصرة ونائبه على

بعض بلاد ايران الجنوبية محافظات (خوزستان فارس وكرمان الحالية).

وحسب رواية المسعودي فأنه سلّم حكومة فارس من قبل الامام[1]. في هذه الأثناء، كانت تتوالى الرسائل الماكرة من معاوية عليه وهو في البصرة لاغوائه واخراج الولايات الواقعة تحت سيطرته من حكم الامام، لكن امتناعه عن ذلك ليس فقط أيام خلافة الامام علي عليه السلام بل كذلك في بعض شهور خلافة الامام الحسن عليه السلام، مدعاة للتقدير. لقد اطّلعنا قبل ذلك في قصة المغيرة على جوابه لمعاوية أيام خلافة الامام المجتبى عليه السلام.

لقد بُعثت الرسائل ٢٠، ٢١، و ٤٤ من نهج البلاغة أيام ولايته على البصرة من قبل أمير المؤمنين عليه السلام.

نستشف من الجُمل التي وردت في الرسالة ٢٠، إن زياد كانت له مطامح لجمع المال والاسراف على حساب بيت المال حيث هُدّد من قبل الامام بشكل قاطع وصادق.

«واني أُقسم بالله قسماً صادقاً، لئن بلغني أنك خُنت من فيء المسلمين شيئاً صغيراً أو كبيراً، لاشدن عليك شدة تدعُك قليل الوفر ثقيل الظهر ضئيل الأمر، والسلام»[2].

لقد كان الامام ينصح زياد برفق كما هو عهده مع جميع ولاته، كما هو واضح في الرسالة ٢١ من نهج البلاغة في الجملة التي يقول فيها:

«فدع الإسراف مقتصداً، واذكُر في اليوم غداً، وأمسك من المال بقدر

---

(١) مروج الذهب للمسعودي ترجمة أبو القاسم پاينده ج ٢ الطبعة الخامسة ص ١٠ ـ ١١.

(٢) نهج البلاغة / صبحي الصالح.

ضرورتك، وقدّم الفضل، ليوم حاجتك. أترجو أن يُعطيك الله أجر المتواضعين وأنت عنده من المتكبرين! وتطمع ـ وأنت مُتمرغٌ في النعيم، تمنعه الضعيف والأرملة ـ أن يوجب لك ثواب المتصدقين؟ وإنما المرءُ مجزي بما أسلف وقادمٌ على ما قدّم والسلام».

ما مرّ من سيرة ابن زياد حتى الآن يبين خدماته للحكومة الاسلامية خلال ٣٠ سنة.

بأستشهاد أمير المؤمنينعليه السلام وصلح الامام الحسنعليه السلام، فُتحت صفحة جديدة في حياة زياد السياسية والاجتماعية مغايرة تماماً لماضيه.

بدى الوجه الآخر لشخصية زياد منذ بداية حكم معاوية إلى أن توفي.

يقول طه حسين حول الشخصية المزدوجة لزياد بن أبيه:

«لزياد شخصيتان، عاش بالشخصية الأولى في عصر الخلفاء الراشدين وعاش بالشخصية الثانية بعد مصالحته مع معاوية، وهذان الوجهان لشخصية زياد متناقضين لأقصى درجة، في ذلك الوقت الذي كان تحت امرة الخلفاء الراشدين، كان يسير في الطريق المستقيم، وعندما غيّر وجهته وأصبح عاملاً لمعاوية أسفر عن وجه طاغية عنيد»[1].

عندما تسلّم معاوية الخلافة، هرب زياد الى ايران امّا خوفاً من مكر ودهاء معاوية أو أنه خاف ضياع دينه. واستقرّ في القلعة المعروفة بأسمه.

من هنا تعرّض هذا الشخص وهو من خواص الأمّة الاسلامية، لأمتحان

---

(١) الدكتور طه حسين: علي وأبناؤه، ترجمة المرحوم أحمد آرام، ص ١١٤.

صعب. امتحان جعله بين كفتين دينه وشرفه في كفّة، واللحاق بعدو الاسلام اللدود والابن المنحرف لأبي سفيان في الكفّة الأخرى، أمضى زياد أيّاماً مع صراع هاتين الفكرتين المتناقضين في حصاره بالقلعة في جنوب ايران فلحقه الى «فارس» الصديق المشؤوم (المغيرة) الذي أنقذه زياد يوماً ما من مصير أسود وذلك بتردده في الشهادة على زناه، فوقف على باب قلعته وصاح بأنه يحمل رسالة من معاوية وينوي شراء دين زياد ابن أبيه.

كان زياد من عدّه جهات في صالح معاوية، أولاً مكانته في الولايات الجنوبية لايران، حيث كان يستطيع أن يقوّي جبهة أهل البيت، وثانياً، المزايا الشخصية لزياد حيث كان يمكن أن يقوّي شوكة المكر في الشام.

لقد أوكلت الى المغيرة بن شعبة مهمّة الحاق حاميه الى بؤرة الخيانة، وكان يحمل في جعبته رسالة من معاوية مليئة بالمكر والتطميع في الرسالة يخاطب معاوية زياداً بأبن أبي سفيان وأخيه وهي بدعة في التاريخ جديرة بأن تحكى سميت بعد ذلك بالاستلحاق.

قلنا سابقاً أن زياد ابن عبد روميّ حيث سمّي (عُبيد) وهو قد أعتقه من ماله أيام حكم الخليفة الثاني في حين تذرّع معاوية بحكاية مزيفة سمعها عن أبيه أبي سفيان، يخجل منها كل حرّ، وجعلها دليلاً ليخدع بها زياد. والقصة هي الحادثة المشينة لزنا أبي سفيان بأم زياد في زمان الجاهلية، وأن زياد كان نتيجة هذا الزنا وقد استعمل معاوية هذه الحيلة قبل ذلك، وفضح زيفها الإمام علي عليه السلام في الرسالة ٤٤ من نهج البلاغة التي بعثها لزياد وحذّر هذا الأخير منها، ونورد هنا جزءاً منها:

«... وقد كان من أبي سفيان في زمن عمر بن الخطاب فلتةٌ من حديث

النفس، ونزغة من نزغات الشيطان، لا يثبتُ بها نسبٌ، ولا يستحق بها إرث، والمتعلّق بها كالواغل المدفّع، والنوط المذبذب»[1].

ان هذه الرسالة والإطمئنان الذي حصل عليه من دار الخلافة (الكوفة) منعتا زياداً من الوقوع في فخ معاوية. لكنه الآن ليس تحت امرة الامام علي عليه السلام وعليه أن يتخذ قراراً حاسماً، قراراً يكون طرفيه المتضادين الدين والدنيا، وهكذا هو الحال عندما تتحيّر الخواص في اللحظات المصيرية في التاريخ، بعد سنوات الجهاد والكفاح، لو قاوم زياد في ذلك اليوم طلب معاوية بالانضمام اليه لتعرض لمحن كبيرة في حياته، وكان سيُقتل سراً أم جهراً، لكنه من ناحية كان سيحتفظ بدينه الى آخر عمره، ولم يكن ليعدل عن مبادئ الاسلام والدخول في عمل مشبوه وبدعة مبتدعة، والتعاون مع الشيطان.

لكنه ان قبل ذلك الطلب فسُينادى أخ الخليفة من تلك اللحظة، ويتغيّر نسبه من عبد ثقفي الى احدى أشهر القبائل العربية، وسيُعفى عن اختلاسه من بيت المال، وسيمسك بيده بالأمارة والولاية في ظل الحكم الأموي، وسترتقي منزلته ومقام اسرته وعرقه في الدولة والمجتمع.

لكن في قبوله سيرتكب ثلاثة أخطاء جسيمة، حيث كان على دراية تامة بها جميعاً، أول هذه الاخطاء أنه سيبتدع بدعة جديدة في الدين، لأن الولد للفراش وعلى الزاني الحدّ، وليس أن يُنسب الولد للزاني في حين أن له أب ومعروف في المجتمع. الثاني: أنه قد نُصح من قبل إمامه وأن مقالة أبي سفيان تلك في الاستلحاق هي مقالة الشيطان وهي كذب محض. والثالث: كان يعلم جيداً أنه

---

(١) نهج البلاغة، الرسالة ٤٤ حسب ترتيب الدكتور صبحي صالح.

بالتحاقه بمعاوية سيدير ظهره لدينه الذي جاهد للحفاظ عليه طيلة أربعين عاماً، وسيدخل الى وادي الشيطان.

ومن ناحية أخرى، فقد كان المغيرة الماكر يُمطره بوابل من الخُدع والحيل.

«دع عنك الاشياء الصغيرة، وأمسك الأمر الرئيسي، فلا أحد غير الحسن بن علي عليه السلام يدّعي الخلافة وهو بدوره قد تصالح مع معاوية، أغنم لنفسك قبل أن يستتب الأمر».

فردّ زياد على المغيرة قائلاً: «ما العمل برأيك؟» فقال المغيرة: «برأيي أن تُلحق نسبك بمعاوية، وان توحّد أواصرك معه، وان لا تصغي لكلام الناس!».

فقال زياد: «يابن شعبة، كيف أزرع غصناً في أرض لا فيها ماءاً يُحييها ولا جذر لها يرويها»[1].

يُثبت هذاالقول أن زياد لم يكن مقتنعاً بهذا النسب المزوّر وكان يعتبره عاراً.

يتذكّر زياد جيّداً ان الرسول صلى الله عليه وآله قد قال: «**من نسب نفسه الى غير أبيه عالماً بذلك، حُرّمت عليه الجنة**»[2].

لكن على الرغم من كل هذة الأدلة، لم يكن ممكناً لزياد الانصراف عن زخارف الدنيا، وهو الذي كان يوماً في ساحة الامام علي عليه السلام واحد ولاته، ينضم لصفوف الأعداء، وسلّم لبدعة أبي سفيان المشينة في الاستلحاق ليكون رمزاً

(١) مروج الذهب، ج ٢ ص ١١.
(٢) علي وأبناؤه ، ص ٢٠٠.

للعارف في التاريخ وعبرة لكلّ الاحرار.

رواية الاستلحاق قد نُقلت كما هي عن المصادر الأولى وقد اعلن الصحابة والتابعين كذلك في ذلك الوقت تعارضها مع الشرع الاسلامي، واعترض كذلك أخوه زياد وبنو قومه على هذا العمل الفاضح وأقسموا على أن سمية لم تر أبا سفيان في حياتها قطّ، ومن جملة المعترضين (يونس بن عبيد) الذي قاطع خطبة صلاة الجمعة لمعاويةوقام بالناس وقال لهم:

«يا معاوية: اتق الله، لقد قال رسول الله ﷺ أن الولد للفراش ويجب رجم الزاني، وأنك تعطي الولد للزاني، وترجم الفراش وزياد هو غلام عمتي وابن غلامها، فارجع لنا غلامنا».

عجز معاوية عن الردّ عليه فسلك طريق التهديد فقال له: «ابن يونس! والله إن لم تسكت، جعلت منك عبرة لمن اعتبر[1].

أصبح عمل زياد ومعاوية في ذلك الزمان، حديث المجالس، والشعراء والمنشدين وأصحاب القلم.

بعد أن ختم زياد على جبينه، أشنع حادثة في التاريخ وهي قبوله بأنه ابن زنا، عيّن والياً على البصرة من قبل معاوية وضمّ اليها الكوفة وكان أول من جمع في يده حكم العراقين في آن واحد.

في هذا الوقت، ارتكب زياد تحت حكم أفجر انسان في عصره، أبشع الجرائم التي قلّ نظيرها في التاريخ، حيث كان في يوم مضى أميراً على هذه

---

(١) مروج الذهب: ج ٢، ص ١٢.

الديار تحت حكم وصي رسول الله صلى الله عليه وآله.

قبل كل شيء كان زياد يقسو على محبّي الأمام عليه السلام، وكان يضرب أعناقهم بأدنى شبهة، كان يهجو قدوته وإمامه وقائده علي عليه السلام في خُطبه بشكل علني وذلك من أجل كسب رضى معاوية.

قال زياد في احدى خطبه والتي لم يسمع مثلها قبل هذا في عهد الاسلام وهي:

«من أغرق شخصاً، أغرقته، من يفتح ثقباً في بيت الآخرين، ثقبت قلبه، من ينبش قبراً، دفنته حيّاً في ذلك القبر، من يشك فيما أجتمع عليه الناس ضربتُ عنقه»[1].

وعلى هذا المنوال، كان يقتّل الناس بأدنى شك أو شبهة، فما بالك اذا وصل الأمر الى الفعل، هذه نبذة مختصرة عن الحكم الارهابي الذي اقامه زياد في العراق. وصل الخوف من زياد حدّاً كتب معه الى معاوية يقول له: «أحكم العراق بيد واحدة، ويدي الأخرى عاطلة» فضمّ معاوية الى حكمه المدينة، فهب أهالي المدينة برجالهم ونسائهم الى المسجد وبقوا فيه ثلاثة أيام شُغلوا فيها بالاستغاثة والدعاء عسى أن يدفع الله شرّه. من جملة ما ارتكب زياد من فضائح في العراق.

ومن فجائعه في العراق قيامه بسجن وتزوير امضاء (حجر بن عدي) وهو من كبار صحابة رسول الله صلى الله عليه وآله وإرساله الى معاوية، حتى تسبب في استشهاده مع جمع من خيرة صحابة رسول الله صلى الله عليه وآله والمؤمنين. لقد احدث استشهاد حجر بن عدي بدسيسة من زياد، عاصفة من الحزن والأسى في بلاد الاسلام وحرّكها من

---

(١) طه حسين (المصدر السابق).

شرقها الى غربها حيث سُجّل ذلك في صفحات التاريخ. نورد هنا قصة ثبات حجر وأصحابه على مبدئهم لنبيّن جانب من جرائم زياد بن عبيد من جهة، ومن جهة اخرى فأن ملحمة حجر بن عدي واصحابه في (مرج عذراء) هي واحدة من أعظم الملاحم التي سطّرها الخواص من أهل الحق على صفحات التاريخ.

وهي حكاية مريرة شبّهها رسول الله ﷺ وأمير المؤمنين عليه السلام بشهادة (اصحاب الأخدود) قبل وقوعها بسنين. أرسل معاوية الى زياد يُبيّن له تردّده في قتل حجر وأصحابه، فألح زياد عليه في قتلهم، وأخيراً جاء عملاء حكومة الشام الى مرج عذراء لقتل حجر وأصحابه.

أرسل معاوية «هُدبة بن فيّاض القضاعي» و «الحصين بن عبد الله الكلابي» و «أبو شريف البدّي»[1] الى مرج عذراء من أجل أنهاء قضية المسجونين وأعدام قادة الانتفاضة.

جاء شرطة معاوية الى المسجونين فأخرجوا ستة منهم كانوا قد استشفعوا ووجّهوا خابهم الى ثمانية آخرين وقالوا لهم: «قد وُكلّنا أن ننتقل لكم ما أمرنا بنقله اليكم وهو أن تتبرأوا من علي وتسبّوه إن فعلتم ذلك فسنطلق سراحكم وإلّا فسنقتلكم، أكدّ أمير المؤمنين معاوية أنه بموجب الشهادة التي أدلى بها كبراء مدينتكم ضدّكم فأن دماءكم حلال، لكنّه عفا عنكم ويريد منكم أن تبرءوا من علي لنطلق سراحكم».

فقالوا: «لا نفعل ذلك أبداً». ففكّوا وثاقهم وأحضروا أكفانهم وحفروا قبورهم. كانوا قد قضوا الليل بطوله في الصلاة والدعاء فأقبلت ساعة استشهادهم.

---

(١) في الأغاني ذُكر باسم (أبو صريف البدري).

فرحل حجر وأصحابه الى بارئهم وهم غرقى في نشوة الدعاء، فهم قد ذهبوا الى الصّدق وتقلّدوا وسام الصدّيقين، لقد انشد الوجود كلّه ترنيمة الخلود والبقاء، لأنهم كانوا صادقين تماماً، وهذا هو الصدّيق، نعم لقد ابتهلوا الى الله بالدعاء، وليس من أجل انقاذهم من الموت بل ليتمتعوا بالشهادة أقصى استمتاع ويعشقوها أكثر ليتمكنوا من نيل الثواب الالهي، وان يستشهدوا في سبيله كما يُريد لهم ذلك. لم يطلبوا من الله سوى الشهادة، لأن الشهادة في هذه المرحلة هي الكلمة الوحيدة والوسيلة الفُضلى التي يعرفها الطاغوت وان الظالمين كانوا يرتجفون من هذا التصرّف. وكان دائماً اسم الشهيد موضع اضطراب وعذاب لهم.

في ليلة تنفيذ حكم الاعدام جاء الجلادون الى الثوار وقالوا لهم: «لقد رأيناكم أطلتم الصلاة وأجدتم في الابتهال والدعاء، نسألكم مرة أخرى ماهو رأيكم بعثمان؟

فقالوا جميعاً: «كان أول من عدل عن حكم الله وعمل بغير الحق».

فقال الجلاّدون: «لقد كان أمير المؤمنين معاوية يعرفكم حق المعرفة اذ أمر بقتلكم».

وطلبوا مرة أخرى من الثوار أن يتبرأوا من الامام علي عليه السلام فقالوا: «لقد رضينا بولايته، ونكنّ له حبّاً عظيماً».

طلب حجر من جلاديه أن يُمهلوه ليصلّي ركعتين، قال لهم: «والله لم أتوضأ قط إلّا وكنت مصلّياً» فقالوا له: «صلّ» فأدىّ صلاته وقال: «والله ماصليت صلاة أقصر من هذه، كنت أتمنى أن أطيلها لولا لديّ ما ينتظرني ثم قال: اللهم أنا نستعديك على امتنا، فأن أهل الكوفة قد شهدوا علينا، وأهل الشام يقتلوننا، أما

والله لئن قتلتموني فإنّي أوّل فارسٍ من المسلمين سلك في واديها، وأوّل رجل من المسلمين نبحته كلابها.

قيل أن «هُمام» ابن حجر قتلوه أيضاً، حيث أنهم أرادوا بهذا طلب العمل أن يستغلوا عاطفة الأُبوّة حتى يكف حجر عن الصمود ويندم على فعلته. فلما علم بما يبيّتون طلب منهم أن يقتلوا ابنه قبله. فتكرّموا عليه واستجابوا لطلبه، فأرسل في طلب ابنه فحضر وقال لجلاّديه اقتلوه (ابنه) اولاً. فلما سُئل عن ذلك قال: «خشيت أن يرى السيف على رقبتي فيخرج عن ولاية عليﷺ فلا نستطيع أن نلتقي ببعضنا في المقام الذي أعدّه الله للصابرين»، يقال ان حجر لحظه استشهاده كان يردّد هذه الكلمات. «سلام عليك يا مولاي العظيم ياعلي بن أبي طالب اليوم، انني اليوم بفضل موالاتي لك أنال درجة أصحاب الأخدود. يا أهل العراق سيُقتل سبعة نفرٍ بعذراء مثلهم كمثل أصحاب الأخدود»[1].

بعد ذلك أقبل (هدبة بن فياض) على حجر بسيفه وقال له: لم أظن أبداً أنك ستجزع من الموت أو تخاف من السيف.

فقال حجر: «اذا خفت وأنا في هذه الحال فهذ ليس بعيب، لأن قبري قد حُفر، وأن كفني قد أُعد وسيف العدو قد استُلّ، لكن والله لن تسمعوا جزعي أثناء الموت، ولن تروا منّي عملاً يُغضب الله».

اما بعد الموت فلا تنزعوا عني حديداً ولا تغسلوا عني دماً فأني لاقٍ معاوية على الجادة.

ثم تقدّم الجلاد نحوه وقان: «أدنو رأسك لأضرب عنقك» فأجابه حجر:

---

(١) نقل هذا الحديث في تاريخ ابن عساكر نقلاً عن الامام عليﷺ ورواه البيهقي كذلك.

«هذا دمٌ يُراق منّي بغير حق اذا قدّمتُ رأسي، أعنتك على ارتكاب عمل قبيح وغير صحيح، معاذ الله أن أعينك على عمل قبيح كهذا». ثم قدّموا رأسه وضربوا عنقه.

لقد استشهد حجر مع خمسة من أصحابه. أما عبد الرحمن بن حسان وكريم بن عفيف الخثعمي طلبوا من جلاديهم أن يذهبوا بهم الى معاوية، وهناك سيتبرأوا من علي عليه السلام فأرسلوا الى دمشق بالخبر فأمر معاوية بأحضارهم لما دخل الخثعمي على معاوية قال: يا معاوية، الله الله، أنك سترحل من هذه الدنيا الفانية الى دار البقاء وستُسأل عن قتلنا وتحاسب على دمائنا.

فقال معاوية: ماذا تقول في علي عليه السلام؟

فقال: أفهل اقول ما تقول أنت، أفهل أتبرأ من علي عليه السلام الذي هو موضع رضى الله؟

فلم يُسرّ معاوية لهذا الجواب. لكن الشمر بن عبد الله الخثعمي طلب له الشفاعة من معاوية، فقال معاوية «ساعفو عنه، ولكن سيبقى شهراً في السجن»وبعد انقضاء المدّة اطلق سراحه بشرط أن لا يدخل الكوفة أبداً. وقد اختار أن يقطن الموصل بعد ذلك.

بعد ذلك التفت معاوية الى «عبد الرحمن بن حسان» وقال له: «وأنت ماذا تقول في علي عليه السلام». فقال: أشهد أن الامام علي عليه السلام كان من أولئك الذين يذكرون الله دائماً وكان يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ـ وكان يعفو عن الناس.

فقال معاوية: وماذا تقول في عثمان؟

فقال: كان أول مَن فتح أبواب الظلم بوجه الأُمّة وأغلق أبواب الحق.

فقال معاوية : قتلت نفسك .

فقال : لقد قتلتك حيث لا ربيعة في الصحراء .

هذه الجرأة الصراحة لم تترك الفرصة لأحد لكي يشفع فيه وكتب معاوية الى زياد برسالة وارسلها بيد عبد الرحمن وكتب في تلك الرسالة : «هذا الرجل الذي بعثت هو شر الناس، عاقبه بما يستحق واقتله شرّ قتلة، يا زياد ادفنه حيّاً في (قس الناطف)[1].

لقد أحدث استشهاد حجر وأصحابه شرفاً في هيكل الاسلام، وقد غرق الناس في حزن عميق في ذلك اليوم، حتى معاوية نفسه لم ينس ذلك اليوم حتى آخر عمره، فقد قال عن هذه الحادثة وهو في فراش الموت : «يا حجر، ويل لي منك». وكذلك كان يقول : «لي مع ابن عدي يوم طويل» وهذه واحدة من فضائح زياد بن ابيه والذي كان في يوم من الايام من خواص أهل الحق. فأعتبروا يا أولي الأبصار.

الخير الذي خلط

الحديث عن اخطاء العظام الذي قضوا عمرهم في العبادة والجهاد ونشر العلوم والمعرفة أمر جد صعب ومرير.

ولكن لما كانت أخطاء العظام عظيمة مثلهم، وآثارها تنعكس على المجتمع، فذكر تلك الاخطاء لكي يعتبر الناس بها الى جانب تلك المحاسن أمر واجب وضروري.

---

(١) ثورات الشيعة في تاريخ الاسلام ـ صادق آيينه‌وند، منشورات سپاه، سنة ١٣٦١.

يتطرق هذا الكتاب كذلك للأحداث المصيرية والتاريخية للخواص من المجتمع من هنا في نفس الوقت الذي نثني فيه على النقاط الايجابية في حياتهم، فان تحليل عثراتهم هو أمر مهم ومفيد لأطلاع المعنين بالموانع التي تقف في طريق الحق والسير على الصراط المستقيم.

احد هؤلاء الخُلّص من أهل الحق الذي سجّل اسمه في صفحات التاريخ في لحظة حساسة وتاريخية، هو أبن عمّ الرسول الكريمﷺ وأمير المؤمنينعليه السلام. ابن عم عالم، سياس، مؤمن، عالم بزمانه وخبير.

رجلٌ دعا له النبيﷺ ليكون فطحلاً في تأويل القرآن. رجل وقف بوجه الخلفاء مراراً من أجل اثبات حق ولاية عليعليه السلام. وذلك بالبحث والمحاجة. رجل انبرى للدفاع عن اهل البيت عليهم السلام ما عاش. وعبّأ أهل بيته في صفهم، رجل كان الذراع القوية لأمير المؤمنينعليه السلام اثناء خلافته وأمين أسراره. رجل حارب في الجمل الى جانب عليعليه السلام، وفي صفين حمل لواء الجهاد ضد الضالين من أهل الشام. رجل انبرى مراراً لمحاجة الخوارج بلسان فصيح وبليغ بالنيابة عن امير المؤمنينعليه السلام وهدى الكثير منهم الى طريق الحق والهداية.

رجلٌ مرّغ أنوف المنحرفين الخوارج في التراب في معركة النهروان الى جانب ابن عمه، وتسلّم امر ولاية اكبر الامصار الجنوبية للبلاد الاسلامية أي البصرة من قبل أمير المؤمنينعليه السلام. هذا الرجل هو عبد الله بن العباس بن عبد المطلب.

كان ابن عباس مفسّراً وراوياً لمعظم احاديث رسول اللهﷺ وموضع ثقة الفريقين، عُيّن والياً على البصرة بعد معركة الجمل أيّام خلافة الامام عليعليه السلام

وبسبب الظروف الخاصة للبصرة من حيث الأرض الواسعة والسكّان اقتضت من الامامعليه‌السلام أن يختار رجلاً من أهله مقتدراً من جميع الجوانب ليكون حاكماً على تلك الديار خصوصاً بعد أن اشتبك فريقان من المسلمين في حرب ضروس بالقرب منها، ودبّ في قلوب أهلها الفرقة والبغضاء.

استطاع ابن عباس بكياسته وحنكته ان يُهدئ الامور، وبلسان عذب وحديث علمي جمع الناس حول الحقيقة وان كان في بعض الأحيان يتعدّى حدوده، ويرشده الامام حينئذ الى الطريق. عندما شدّد على بني تميم كتب اليه الامام قائلاً: **«أبا العباس رحمك الله فيما جرى على لسانك ويدك من خير وشر فانا شريكان في ذلك وكن عند صالح ظني بك ولا يفيلنّ رأيي فيك والسلام»**[1].

كان الامامعليه‌السلام بالنسبة لعبد الله مشفقاً محسناً، كان يُسدي اليه النُصح وقد علّمه بعضاً من كنوز علومه ونصائحه ومن جملتها الحديث التالي:

«اما بعد، فإنّ المرء قد يسرُه درك مالم يكن ليفوته، ويسوؤُه فوت مالم يكن ليدركه، فليكن سرورك بما نلت من آخرتك، وليكن أسفُك على ما فاتك منها، ومانلت من دنياك فلا تكثر به فرحاً، وما فاتك منها فلا تأس عليه جزعاً، وليكن همُك فيما بعد الموت»[2].

«أما بعد، فانك لست بسابق أجلك، ولا مرزوق ماليس لك، واعلم بأنّ الدهر يومان: يوم لك ويوم عليك، وان الدنيا دار دُول»[3].

---

(١) نهج البلاغة، صبحي صالح، الرسالة ١٨.
(٢) نهج البلاغة، صبحي صالح، الرسالة ٢٢.
(٣) نهج البلاغة صبح صالح، الرسالة ٧٢.

«سع الناس بوجهك ومجلسك وحكمك، وإياك والغضب فإنّه طيرة من الشيطان، وأعلم أن ما قربك من الله يباعدك من النار وما باعدك من الله يقربك من النار»[1].

في خطابه عليه السلام لعبد الله، كان يصغّر الدنيا في عينيه ويعظُم من شأن الآخرة كان يحثّه على الرزق المقدّر وينهاه عن الحرص، حتى يُسكن من ثورة عينه وقلبه اللاهث وراء الذهب والفضة والجواري والغلمان ويجرّه الى جادة الاعتدال وأخذ عبد الله ينحرف في سلوكه لانه رأى نجم حكومة ابن عمه علي عليه السلام الى أُفول نتيجة تفرّق وتشتت أهل العراق، وأن مخالب وأنياب لصوص الشام تأذن ببشارة انتصار معاوية، وقد أدرك ان اصحاب الامام قد تفرقوا وان أهل الشام قد تسلّطوا وسيغدوا الامام عليه السلام بلا نصير ولا معين، وقد يكون عدم حضوره على رأس الجيش المتحرك من البصرة صوب الشام هو أيضاً علامة على تردّده في البقاء في جبهة الحق، كما توقع طه حسين[2].

لا شك في أن عبد الله بن العباس كان من الساسة المتفتحين والمحنّكين في عصره وأن اعماله كانت قائمة على التدبير، والنظرة للمستقبل ومراعاة جوانب الامور، من هنا فان توقعات هذا الكاتب المصري (طه حسين) جدير بالتأمّل.

وبغض النظر عن أسباب الاحداث التي سبقت موضوع بحثنا، نتطرق للأذى الذي تسبب به عبد الله بن عباس للامام علي عليه السلام وهو في أوج الفتن والحروب الداخلية التي فُرضت عليه والهمّ الذي ملأ به قلب إمامه والجرُح الذي

(١) نهج البلاغة، صبحي صالح، الرسالة ٧٦.
(٢) طه حسين، علي وأبناؤه، ترجمة أحمد آرام، ص ١١٩.

احدثه في جسم المجتمع الاسلامي.

ان خلفية هذا الحدث تبدأ من النقطة التي كتب فيها أبو الأسود الدؤلي وهو من أصحاب الامامعليه السلام اليه يخبره بأن ابن عباس قد أستأثر بأموال بيت مال المسلمين لنفسه واطلق العنان لهواه غير مراعٍ لسُنّة الاسلام.

«... إن ابن عمك قد أكل ما تحت يديه بغير علمك فلم يسعني كتمانك ذلك».

وعند قراءة الامامعليه السلام لرسالة أبي الاسود أثنى عليه لإرساله هذا التقرير وكتب الى ابن عمّه بدون مجاملة أو مماشاة يقول له: «**أما بعد، فإنه قد بلغني عنك أمرٌ إن كنت فعلته فقد اسخطت الله وأخربت امانتك وعصيت امامك، وخنت المسلمين ... فارفع اليّ حسابك، واعلم أنّ حساب الله أعظم من حساب الناس والسلام**»[1].

لم يُعر عبد الله بن عباس رسالة الامامعليه السلام ولا طلبه بإرسال قائمة بمصروفات بيت مال المسلمين في البصرة، وقال بغرور وبدون مبالاة مجاملاً إيّاه «أما بعد فان كل الذي بلغك عني باطل، وانا لما تحت يدي ضابط وعليه حافظ فلا تصدق الضنين»[2].

كما يتّضح من الرسالة أنها لا تبرّأ المتهم ولا تسرّ الامامعليه السلام، لأنه لم يعرض دليلاً مقنعاً لردّ الاتهام، علاوة على ذلك، فأنه كان على علم بسيرة عليعليه السلام في التشدّد بما يخص بيت المال وبعدالته وليس له مفر غير ردّ الاتهام بشكل صحيح،

---

(١) نهج السعادة ج ٥ ص ٣٠٠ / طبع وزارة الارشاد (ايران).

(٢) المصدر السابق نفس الصفحة.

ولكن مع ذلك لم يفعل وكتب اليه الامامعليه السلام في رسالة أخرى: **«أما بعد فإنه لا يسعني تركك حتى تُعلمني ما أخذت من الجزية من اين أخذته، وما وضعت منها فيم وضعته، فاتق الله فيما ائتمنتك عليه واسترعيتك إيّاهُ»**[1].

على اثر الرسالة تلك، تيقّن ان الامامعليه السلام لن يغضّ النظر عن حقوق المسلمين، ولا مفرّ من تقديم حسابه الدقيق وقد كانت نتيجة الحساب معلومة وعبد الله يعلم جيداً أن امامه لن يتردّد لحظة واحدة في ارجاع اموال بيت المال ومعاقبته. فعلى العكس مما كان يُنتظر من شخصية مرموقة مثله، ترك أمر الحكومة من غير أن يمتثل لأمر الأمام، أو يذهب الى الكوفة لمقابلة الامامعليه السلام، وحتى أنه لم يعمل كما هي العادة، بأن يقدم استقالته للأمامعليه السلام، فقد ترك عمله ورحل عن المدينة (البصرة) ولأنه كان يعلم بأن اهل البصرة لن يدعوه يخرج من المدينة بأموال بيت المال المسروقة، فأقدم على حيلة، وهي أنه طلب من أخواله من «بني هلال» أن يتولّوا حمايته للخروج من المدينة بسلام.

فالتجؤا للعصبية الجاهلية، وعدلوا عن طريق الاسلام الواضح، فحملوا أموال بيت المال وأفرغوها في اكياس ابن عباس، هذه الاموال التي يقدرّها المؤرخون بستة ملايين درهم، وتولّوا حمايته بسيوفهم المستلّة حتى خرج من البصرة الى مكة بسلام. وياللعجب من هؤلاء الناس الذين رجّحوا قرابتهم على اختلاس بيت المال من قبل الوالي، واصغوا لصوت العصبية وتولّوا حماية ابن اختهم المتمرّد السارق، وأنقذوه من قبضة الناس.

ذهب الى اخواله في مكة ليكون في حمايتهم واختياره لمكة محلاً لسكناه

---

(١) نفس المصدر السابق ص ٣٠٢.

لم يكن اعتباطاً، فقد آوى الى المدينة التي تعتبر حرماً آمناً، ليتمكن في ظل حرمة مكة أن يتمتع بأموال اليتامى والارامل ومجاهدي البصرة، وأن يتسلى بالجواري والغلمان. وكم كان قصير النظر عند اختيار الحرم الالهي الآمن ليستغلّه في هكذا أمر وقح، ووقف امام الله بلا خجل. وكم هي المسافة شاسعة بين فعلته وتصرّفه فقد جعل حساب الله وراء ظهره وترك امامه الحقيقة وأختصّ لنفسه بأموال المسلمين. ما أعظم العبرة عندما نرى هكذا أعمال تصدر من اعلام الدين ورؤساء القوم وخلّص الصحابة.

حقاً ان ابن عباس قد ترك جبهة الاسلام في أحرج لحظة في تاريخ الاسلام واعفى نفسه من حمل ثقل المسؤولية، وبالاضافة لهذا اقدم على خيانة كبرى بحق الاسلام، في حين أنه هو نفسه كان عالماً مرموقاً ومجتهداً.

يُعتقد أنه كان يعلم بأنه وان كانت جبهة امير المؤمنينعليه السلام على الحق وأنه قد ساهم فيها بشكل فعّال الى جانب الامامعليه السلام وأنه كان بمثابة الذراع القوية لحكومة ابن عمّه، لكن هكذا أرادت حوادث الدهر، أن يُهزم، في الوقت الذي كان يطمع في مال الدنيا والجواري والغلمان والذهب والفضة وهو بجانب الحق لم يكن يُرد أن يشارك الامامعليه السلام همه الى آخر لحظة. وفي الحقيقة أنه تعذّر بتقديم حساب بيت المال والذي كان أمراً طبيعياً حتى ينفصل عن الذي يعلم به اكثر من أي شخص آخر أنه على حق.

كما أنه لم يطلب من عدوّه معاوية عوناً، لهذا أقدم على سرقة بيت المال والفرار الى مكة حتى يبتعد عن الفريقين.

كذلك كان يعلم أن معاوية ليس بالرجل المؤمن بل رجل المراهنات

السياسية وهو لن يطلب منه أموال البصرة.

لما علم الامام بخروج ابن عباس من البصرة وسرقته أموال بيت المال بعث اليه برسالة ملؤها الالم والحزن الذي يملأ قلب حاكم مظلوم ووحيد، فكل كلمة من كلمات الرسالة تحكي عن وضع وظروف حكومة الامام وغربته ومظلومية، ولكن في نفس الوقت تبيّن ثباته وسمّوه المحيّرين. الامام الذي أصيب بسهم مسموم من أقرب المقربين اليه وأمين أسراره وابن عمه وفي أحلك الظروف وأقسى حوادث الدّهر. الامام الدي بقي وحيداً في الكوفة وليس له قوة للوصول الى اموال البصريين المسروقة.

الامام الدي يتأوه من خلّص اصحابه ويقول:

«أما بعد، فاني كنت اشركتك في امانتي، ولم يكن من أهل بيتي رجل أوثق عندي منك بمواساتي وموازرتي بأداء الامانة، فلما رأيت الزمان قد كلِبَ على ابن عمّك، والعدوّ قد حرد، وامانة الناس قد خربت، وهذه الأمة قد فُتنت، قلبت لابن عمك ظهر المجن، ففارقته مع القوم المفارقين وخذلته أسوأ خذلان، وخُنته مع مَنْ خان فلا ابن عمّك آسيت، ولا الأمانة إليه أدّيت؛ كأنك لم تكن على بيّنةٍ من ربك وانما كدت أمة محمدﷺ عن دنياهم، وغدرتهم عن فيئهم، فلما امكنتك الفرصة في خيانة الأمة، أسرعت الغدرة، وعاجلت الوثبة فاختطفت ماقدرت من اموالهم؛ وانقلبت بها الى الحجاز، كأنّك انما حُزت على أهلك ميراثك من أبيك وأمك فسبحان الله أما تؤمن بالمعاد؟ أما تخاف الحساب، أما تعلم انك تأكل حراماً، وتشرب حراماً، وتشتري الإماء وتُنكحهم بأموال اليتامي والأرامل والمجاهدين في سبيل الله التي أفاء الله عليهم. فاتق الله وأدِّ الى القوم اموالهم، فانك والله لئن لم تفعل وأمكنني الله منك لأُعذرنّ الى الله فيك فوالله لو أن الحسن

والحسين فعلا مثل الذي فعلت، ماكانت لهما عندي هوادة ولما تركتهما حتى آخذ الحق منهما ... واني أُقسم بالله ربي وربك رب العزّة ما أحب أن ما أخذت من اموالهم لي حلالاً ادعه ميراثاً لعقبي، فما بال اغتباطك به تأكله حراماً. ضح رُويداً فكأنك قد بلغت المدية (ودفنت تحت الثرى) وعُرضت عليك اعمالك بالمحل الذي ينادي فيه المغتر بالحسرة، ويتمنى المضيّعُ التوبة، والظالم الرجعة (ولات حين مناص)»[1].

وبعد أن قرأ ابن عباس رسالة الامام عليه السلام كان عندها مقيماً في مكة، وقد شرع في اسرافه من اموال بيت المال وهو في اوائل ايامه في مكة وقد اشترى ثلاثة جواري حسان وكان يمضي معهن احلى اوقاته، فكتب الى الامام يقول:

«اما بعد فقد بلغني كتابك تعظم عليّ اصابة المال الذي اصبت من بيت مال البصرة ولعمري ان حقي في بيت المال أكثر مما أخذت والسلام».

ان ابن عباس في رسالته هذه كسابقاتها، لم يُثبت حقاً أو يدرء جرماً، بل أنه نثر التراب على جرمه وادار ظهره لماضيه، كأنه ذكريات الجمل وصفين والنهروان قد انمحّت من مخيلته.

ننهي هذه المجادلة بين الحق والباطل بآخر خطاب للامام عليه السلام في جواب رسالة ابن عباس، لنسمع من لسان أمير المؤمنين عليه السلام كلمات التعجب والحسرة على هذه العقيدة، والصادرة من ابن عمّ رسول الله صلى الله عليه وآله وعالم ضليع بكتاب الله وسنّة رسوله، وعامله على البصرة، علّنا نعتبر من هكذا حوادث وأن نقتدي بأمامنا وقائدنا في الظاهر والباطن والصعاب، وذلك باليقظة وبالتحليل الصحيح

---

(١) نهج السعادة ج ٥ ص ٣٠٤ الى ص ٣٠٩.

للوقائع.

«أما بعد فان من العجب أن تُزين لك نفسك أن لك في بيت مال المسلمين من الحق اكثر مما لرجل واحد من المسلمين، فقد أفلحت إن كان تمنيك الباطل وادعاؤك مالا يكون يُنجيك من المأثم، ويحل لك المُحرّم إنك لانت المهتدي السعيد اذاً. وقد بلغني أنك اتخذت مكة وطناً، وضربت بها عطناً، تشتري بها مولدت مكة والمدينة والطائف، تختارُهنّ على عينك وتعطي فيهن مال غيرك، فأرجع هداك الله الى رُشدك، وتب الى الله ربك، واخرج الى المسلمين من اموالهم فعمّا قليل تفارق من ألفتَ، وتتُرك ما جمعت وتغيبُ في صدع من الأرض غير موسد ولا ممهّدٍ، قد فارقت الأحباب وسكنت التراب، وواجهت الحساب، غنياً عمّا خلّفتَ، فقيراً الى ما قدمت والسلام»[1].

القائد الذي التحق بصفوف الأعداء

هذه المرّة نتكلم عن واحد من قوّاد الامام علي(ع)، شخص من المفروض أن يكون منقاداً لأوامر ونواهي خليفة رسول الله(ص)، بأعتباره أمين وعين الحكومه في البلاد الاسلامية.

ان القواد والعمال هم من خواص وهم أمناء الخليفة بين الناس. وبواسطة هؤلاء يعترّف الناس على الحاكم، وهم حلقة الاتصال بين الأثنين، فاذا أردنا تقسيم هذه المجموعة من الخواص فسيكون الولاة والمحافظين في طبقة الممتازين منهم.

---

(١) نهج السعادة ج ٥ ص ٣١٠.

اسم ذلك الوالي هو «مصقلة بن هبيرة» وهو من قبيلة شيبان والمنطقة التي أرسل إليها لاداء مهمته هي مدينة تقع في محافظة فارس في ايران وتسمى «اردشير خره» وهي من المدن التابعة لولاية البصرة. كانت محافظات (خوزستان، فارس وكرمان) في ايران تحت امرة حاكم البصرة في ذلك الزمان وقد اعطيت حكومة البصرة من قبل أمير المؤمنينعليه السلام الى ابن عمه عبد الله بن عباس وفي السطور الآتية سنلقي نظرة على بعض الأحداث أيام حكم مصقلة، حتى نأخذ درس عبرة من حياة هؤلاء الخواص أيضاً، لأن أحد التجربة والعبرة هي أحسن الدروس التي يمكن أخذها من التاريخ، وذلك على طريق التقدم والتكامل، حتى لا يكرّر أبناء المستقبل اخطاء الماضي وهزائمه مرة اخرى وذلك بفضل مطالعة انتصارات وهزائم من سبقونا.

أيام خلافة الامام عليعليه السلام قام جماعة من جند الري بالتمرد علي الامامعليه السلام والمجتمع الاسلامي وذلك بعد الرجوع من معركة صفين، ومن أجل اهداف مختلفة، كما فعل جند العراق، متعذرين بقضية التحكيم مع معاوية. وقد تصرّف معهم الامامعليه السلام بما عُهد عنه من عظمة النفس باللطف والمداراة، وما أكثر اولئك الذين قاطعوا خطبته وبكلماتهم المُفرّقة لوحدة الكلمة، عرّضوا وحدة الأمّة للخطر. وكم من لعبة سياسية خطيرة وكم من تحزبات قد أحدثوا في المجتمع الكوفي، وكم من كلمات جارحة قد تفوّهوا بها على امير المؤمنينعليه السلام، لكن الامامعليه السلام كان يناقشهم بصبر وأناة، كان يحاججهم بنفسه تارة، أو يبعث اليهم من الصحابة المعروفين من يأخذهم بالحجة والبرهان، ومن بين هؤلاء أحد الخوارج وأسمه (خريت) حيث كانت قبيلة (بني ناجية) تواليه، حيث دخل في أحد الايام على عليعليه السلام وقال: «والله، لن اطيعك ولن أصلي خلفك، فقال أمير المؤمنينعليه السلام: «ثكلتك أمك، إنك ستعصي الله وستنكث عهدك وستغوي نفسك. ولم تفعل

ذلك؟».

قال خرّيت : «لأنك قبلت التحكيم بكتاب الله؟» فطلب منه الامامعليه السلام أن يتناقشا حول هذا الموضوع سوية ليتوضّح الأمر، فقال له «سأتيك في الغد لنتباحث في الأمر» فقبل الامامعليه السلام بذلك وتركه وشأنه.

خرج خرّيت ليلاً من الكوفة مع عدد من اصحابه وهم يدقون طبول الحرب فصادفهم في طريقهم رجلاً أحدهما يهودي والآخر مسلم، فاستنطقوهم فقتلوا المسلم الذي يحبّ علياًعليه السلام وأطلقوا اليهودي، فجاء اليهودي الى أحد عمّال الامام وقص عليه الحكاية، وبالتالي أطلع الامامعليه السلام بما جرى، فأرسل جيشاً في طلبهم حتى يمتثلوا للأمر أو أن يُسلّموا القاتل. فلم يقبل خرّيت بتلك الشروط وبعد يوم من القتال فرّ الى البصرة، فجهز الامامعليه السلام الجيش وطلب من حاكم البصرة أيضاً أن يمدّ الجيش بمددٍ من عنده، وهكذا حصل وللمرة الثانية عثر جيش الاسلام على خريت، وبعد حرب ضروس، فرّ زعيم المتمردين مستغلاً ظلام الليل.

في هذه الاثناء تجرّد خرّيت من أي عقيدة دينية وذهب الى ساحل البحر وشكّل مع الكفار والرهبان عصبة أخذت على عاتقها ارتداد جماعة عن الاسلام ومن ثمّ شكل جيشاً، فأعقبه جيش الإمام حتى ظفروا به في أحد الأيام وقتلوا خريّت.

اسمه الكامل خريّت بن راشد آل ناجي، وقد أسر جيش الاسلام نفراً من المرتدين الذين لم يتوبوا ويرجعوا عن ارتدادهم وأرسلوهم إلى الكوفة، ذكر عدد الأسرى حوالي ٥٠٠ نفر في طريق عودة الجيش مرّ على المنطقة الواقعة تحت سيطرة مصقلة، فاستغاث بعض الأسرى به وقد كانوا من قومه ليخلصهم من الأسر، فاتفق مصقلة مع قائد الجيش على أن يشتري الأسرى ويحرّرهم، ولكنه

لم يكن يملك المال اللازم لذلك ، فقرر أن يرسل المال المذكور إلى الكوفة قريباً فوافق القائد وأطلق سراح ال(٥٠٠) أسير .

علم الإمام عليه السلام بذلك الأمر فأثنى على مصقلة واعتبر عمله من شيم الرجال الأحرار ، لكن يا حسرتاه ، فلم يستمر مصقلة طويلاً في طريق الأحرار ، بل أنّه كان يقصد خداع الإمام عليه السلام حيث كان التعصب القبلي والجاهلي قد بُعث من جديد في داخله ، فهو قد أقدم على خداع الإمام عليه السلام عندما قابل صيحات الاستغاثة للمرتدين من قبيلة (بكر بن وائل) أخوته من أبيه الذين لم يرجعوا عن ارتدادهم ، وأذاق الإمام المظلوم والمحاط بخدع وحيل الكوفيين كأساً من السم ، فزلزل أركان الحكومة الاسلامية وقذف الرعب في قلوب الناس ، وانتشر صوت انعدام الأمن في الأقاليم الواقعة تحت سيطرة الامام وتردّد صداه في أسماع أعدائه .

كان مصقلة من أولئك القادة الذين لا يزال التعصب القبلي والقومي يغلي في عروقهم إلى الحدّ الذي كان أفراد قبيلته أعلى مرتبة من سائر الأفراد أيام حكم الامام علي عليه السلام وهو قد تسلّم رسالة عتاب من الامام عليه السلام فيما مضى وهي :

«بلغني عنك أمرٌ إن كنت فعلته فقد أسخطت إلهك ، وعصيت إمامك : أنّك تقسم فيء المسلمين الذي حازته رماحهم وخيولهم ، وأُريقت عليه دماؤهم ، فيمن أعتامك من أعراب قومك ... ألا وإن حق قِبلك وقِبلنا من المسلمين في قسمة هذا الفيء سواء ، يردون عندي عليه ، ويصدرون عنه»[١].

ان عدم الاستجابة للخواص ومطالب الأقرباء حين تقتضي مطالبهم الدخول في دائرة الباطل ، تكون ممكنة فقط في ظل الايمان الكامل والتحرر

---

(١) نهج البلاغة ، صبحي صالح : الرسالة ٤٣ .

والاحساس بالمسؤولية، هذا الأمر قد جعل الكثير من الخواص من أهل الحق يقعون في مستنقع الانحراف والخداع، ومصقلة هو أحد هؤلاء، فهو أمام استغاثة أفراد قبيلته وضع الحق الواضح والبيّن جانباً وتمسّك بالتعصب القبلي.

طلب الامام ﷺ بعد مدّة من مصقلة أن يسدد ديونه، فكان في كلّ مرّة يستمهله، وبعد ذلك وكّل أمره لوالي البصرة عبدالله بن عباس ليطالبه بالديون المؤجلة، فطلب عبدالله منه أن يفي بوعده ويسدّد ديونه، فقال له مصقلة: «لو كنت قد طلبت هذا المال من ابن عفان (عثمان بن عفان، الخليفة الثالث) ما حجبه عنّي قط».

وبهذه المناسبة نقول: ما هذا المنطق الذي يعمل به أهل الضلال الذين يستشهدون بأعمال الباطل التي يرتكبها الآخرون للتغطية على أخطائهم وبهذه الطريقه يبرّؤون أنفسهم منها، فإذا تجاوزنا ما تحتجج به مصقلة من عمل هذا الصحابي، ونضع مسؤولية حقيقة الأمر على عاتقه، ونتساءل هل انّ الخليفة الثالث كان سيتغاضى عن عمل أمثال مصقلة أم ان تغاضيه هو عن أعمال بني أُمية فقط؟

المهم في الأمر، هي الطريقة النفسية التي يتعامل بها بعض أصحاب الحق حيث أنهم لم ينكروا لحد الآن بشكل تام الحق والهدف، لكنهم لا يملكون القدرة على التحرك طبقاً للطريقة المطلوبة، فلكي يغطّي هؤلاء على أخطائهم يتحجّجون بشيوع هذه الأخطاء بين أفراد المجتمع وكذلك الوجهاء من الناس، لقد أثبت هذا الاسلوب في علم الاجتماع الجنائي من قبل العلماء.

ممّا لا يخفى على مصقلة وأمثاله، انّ كلّ واحد مسؤول عن أعماله، فهو مقابل اطلاق سراح ٥٠٠ أسير استدان من بيت المال مبلغاً معيناً، وكان مضطراً

لتسديده ، كان يستطيع مصقلة الطلب من الإمام عليه السلام أن يستمهله أو يقسّط عليه المبلغ أو أن يطلب إعفائه من تسديد جزءاً من المبلغ ، كما أنّه كان يستطيع أن يأخذ مالاً من المرتدين من أفراد قبيلته الذين اشتراهم ويسدّد به دينه .

وكان يستطيع هذا القائد أن يأتي إلى الكوفة وأن يطلب من الامام عليه السلام مهلة أطول للدفع ، لما عرف من العفو واللطف لدى الإمام عليه السلام ، وبالنتيجة يسلّم نفسه للحكومة الاسلامية لتتصرف معه ، لكن مصقلة لم يفعل أيّاً من تلك الأُمور التي كان يمكن أن تفتح كلّ واحدة منها طريقاً للهداية ، بل أنّه اختار طريق الضلال ، وخرج من البصرة على أثر حيلة ليلتحق بالعدو ، بمعاوية بن أبي سفيان رأس الأحزاب والمشركين وابن هند آكلة الأكباد ، ذلك الأعور البطين الذي كان لسنين عديدة ذليل طريق الحق والهداية ، كان يعرف جيداً الفرق الشاسع بين إمام الكوفة عليه السلام وسلطان دمشق ، وأدار ظهره للحقّ عن دراية ودخل على الباطل ، لقد ذهب هو وذاع خبره في العراقين ـ الكوفة والبصرة ـ ومكة والمدينة وكلّ البلاد الاسلامية انه قد التحق بمعاوية أحد قادة الامام علي عليه السلام ، وزرع همّاً في قلب الإمام عليه السلام والمؤمنين ، ورسم البسمة على شفاه المنافقين والكافرين والمشركين ، قال الإمام عليه السلام في هذا الفرار :

«ما له ترحه الله ، فعل فعل السيد ، وفرّ فرار العبد ... أما أنه لو أقام فعجز ما زدنا على حبسه فان وجدنا له شيئاً أخذناه ، وان لم نجد له مالاً تركناه»[1].

لما وصل مصقلة إلى الشام ، استقبل بحرارة من قبل معاوية ، وأرضاه من جميع الجهات ، ولمّا مضت مدّة على اقامته في الشام ، كتب رسالة إلى أخيه نُعيم في الكوفة لعلّه يستطيع إغوائه ، ويأتي به إلى الشام ، لكن هذا المؤمن الحرّ قد ردّ

(١) نهج السعادة ٥ : ١٧٣ .

عليه بعنف ردّاً مليء بالعبرة لأهل الحق ، بعث نُعيم بهذه الأبيات الشعرية إلى أخيه الضال :

لا تأمـــنن هـــداك الله مـــن ثـــقة	ريب الزمان ولا تـبعث كـجلواناً
مـــاذا أردت إلى ارســـاله سـفهاً	ترجو سقاط امرىء ما كان خوّانا
عـــــرّضته لعـــلي أنّــه أســد	يمشي العرضنة من آساد خـفّانا
قد لنت في منظر عن ذا ومسـتمع	تأوى العراق وتدعى خير سيبانا
لو كنت أدّيت مال القوم مـصطبراً	لحق أجـبيت بـالأفضال مـوتانا
لكن لحقت بأهل الشـام مـلتمساً	فضل ابن هند وذاك الرأي أشجانا
فالآن تكثر قرع السـن مـن نـدم	وما تـقول وقـد كـان الذي كـانا
وظلت تـبغضك الأحـياء قـاطبة	لم يـــرفع الله بـــالبغضاء انســانا

إن حكاية مصقلة وفراره من الحقّ من اجل مال الدنيا ، هي مسألة يمكن أن تتكرر لكلّ أتباع الحق والطريق القويم ، إنّ طريق التصدّي لهذا الأمر وأخذ العبرة من هذه الأحـداث والوقـائع ، إلى جـانب التـوجه الدائـم لله سـبحانه وتـعالى والمحاربة المستمرة مع النفس الأمارة بالسوء ، وعدم الالتفات للآمال والمطامع الدنية التي تُبعد عن الله .

انّ ملاحظة جواب أخيه نعيم ـ الذي يأتي من منطلق الايمان الخـالص ـ فهو مليء بالعبر ـ.

بالاضافة إلى أننا في هذا الكتاب قد أوردنا مقتطفات من كتاب علي وبنوه لـ «طه حسين» نورد هنا أيضاً تحليله عن تصرف مصقلة ومعاوية حيث نجعله مسك الختام ، والذي قال :

«لم يكن مصقلة لوحده ، بل انّ عامة أهل البصرة والكوفة بل كبار القـوم

وأشرافهم كانوا مثل مصقلة» .

لقد اشترى الأسرى وأعتقهم ليس من أجل الثواب الإلهي ، أو ينوي فعل الخير ، بل لكي يُرضي تعصبه القبلي وان خداع الحكومة هي وسيلة لأرضاء تلك التعصبات ، لما علم أمير المؤمنين بخدعته وطلب منه الحق ، لم يصبر ولم يسترد ما في ذمّته ، بل أنّه هرب إلى عند من كانوا يحاربون الخليفة فترك الصديق وتمسّك بالعدو .

ما أبداه معاوية من ترحيب به ، لم يكن من جهة عدم تسديده المبلغ وفراره إلى الشام ، فهذه كانت خدعة وتكريم لم يكن من اللائق أبداً أن يُكرم بمثله مسلم حقيقي .

كان عمل معاوية حسناً لو كان قد أكرم رجلاً رومياً لجأ إليه بدل مصقلة ليستعين به على قيصر ويكون عوناً له في حربه ضد الكفار ، أما أن يأوي شخصاً كاد لإمامه بلا سبب ونكث عهده وهرب إلى غيره ليُفسد على العراق أمره ، هو نفسه يعلم أي سياسة قام معاوية باتباعها من أجل إدامة ملكه الجديد ، هذه السياسة التي عمودها الفقري عبادة الدنيا والأهواء والأرباح والأماني والشهوات .

هنا يتوضّح جيداً الفرق بين المذهب السياسي لعلي الذي أراد كلّ شي من أجل الدين ، والمذهب السياسي لمعاوية الذي سخّر نفسه كلياً للدنيا.[1]

---

(١) طه حسين (المصدر السابق) .

المحتويات

القسم الأوّل

الخواص واللحظات المصيريّة

الجزء الثاني

الخواص واللحظات المصيريّة